صفحة	خطأ	صواب
١٦٥	لجلت	لحلت
١٦٩	السائله	السائلة
١٩٦	الحمى	الحي
١٩٧	رُوي	رُوي
٢١٤	لا يدله	لا يدَ لهُ
٢١٥	كناشية	كنّاشة
٢٢٧	اللغات	اللعنات
٢٣٨	طالعتْ	طالَعَتْ
٢٤١	كثيراً	كثيرٌ

مرآة النفوس

صفحة		صفحة		صفحة
	خطأ	٢٥١	صواب	٥
	»	٢٥٢	»	٦
	»	٢٥٣	»	٧
	»	٢٥٤	»	٨
	»	٢٥٥	»	٩
	»	٢٥٦	»	١٠
٣٨	»	فودعتُ	»	فودعتهُ

والعلمُ ليسَ يُخافُ من إنفاقهِ　　وبحفظهِ عزُّ الاديبِ الناصحِ
فاذا قصدتَ الى المعارفِ رتبةً　　فاركبْ الى الجوزآءِ ظهرَ الرامحِ
لا تقنعنْ بالدونِ فهي نقيصةٌ　　وارغبْ عن العُمّيِّ (١) رغبةَ جامحِ
كُلٌّ لهُ من طبعهِ ميلٌ الى　　بعضِ الفنونِ وذاكَ سرُّ الناجحِ
فاذا عصتكَ من الفنونِ جماعةٌ　　فانظرْ الى ميلٍ بطبعكَ راجحِ
واقصدْ هناكَ تُطعكَ كلُّ عصيّةٍ　　من غيرِ تكلفةٍ وكدحٍ فادحِ
مَن رامَ جمعَ محاسنِ الدنيا فقد　　يُبلى بفقدانِ القليلِ الصالحِ
أنَّ التشبّهَ بالكرامِ فضيلةٌ　　لا باختلاسِ ظواهرٍ وملامحِ
فالقردُ يَحكي كلَّ ما نُبديهِ من　　حركاتنا ويكونُ هُزْأةَ مازحِ
لو كان زيٌّ ساتراً عيباً لما　　اهدتَ بينَ الخلقِ جيشَ مقابحِ
ليس الفتى بثيابهِ او لفظهِ　　لكن بعرفانٍ وقلبٍ ناصحِ
كم ذي ثيابٍ رثةٍ من تحتها　　نفسٌ عزوفٌ عن اذىً وفضائحِ
ولكم فتىً ذي بزّةٍ محمودةٍ　　من خلفها نفسُ الوفُ قبائحِ
لا تعجبنَّ برأيِ نفسكَ او بما　　صنعتْ يمينُكَ من صنيعٍ ناجحِ
او بالذي اوحاهُ قلبُكَ وانتظرْ　　كيما يكونُ سواكَ شخصُ المادحِ

---

(١) العامي

كُلٌّ لهُ من امرِهِ شُغْلٌ فلا تحسَبْ امورَكَ ذاتَ قَدرٍ راجحِ
وٱخترْ مواضيعَ الحديثِ جميعها إلاّ حديثَكَ عنكَ غيرُ مُسامَحِ
وأنصِتْ لقولِ محدّثٍ ولو انَّهُ القى اليكَ بحامضٍ وبمالحِ
ما كُلُّ ذي صوتٍ يغرّدُ منشداً والاذنُ تأذنُ للصدى والصادحِ
انَّ الجِراحَ امضُّها في كِلْمةٍ فاكْفُفْ لسانَكَ عن كلامٍ جارحِ
لا تُثنينَّ على امرىءٍ بحضورِهِ فبغيبةِ الممدوحِ صدقُ المادحِ
ليسَ التصدّرُ في المجالسِ رافعاً قدْراً فكَمْ صدرٍ لقدرٍ فاضحِ
لا تقطعنَّ حديثَ غيركَ انَّهُ عارٌ يعينُ عليكَ قدحَ القادحِ
واذا اعترضتَ لهُ عقيبَ كلامهِ فٱحلمْ فانَّ الحلمَ سِرُّ الرابحِ
واذا اجادَ محدّثٌ في مجلسٍ فبضلهِ حدّثْ هناكَ وصارحِ
انَّ المجيدَ لهُ علينا شكرهُ فالصمتُ من صفةِ الحسودِ الجامحِ
ودَعِ الحُليَّ معَ الحريرِ لعاطلٍ من كلِّ علمٍ فارغٍ من صالحِ
والبسْ حُليَّ ذوي العقولِ فانها دُرَرُ المعارفِ والكمالِ النافحِ
فالمالُ مثلُ الغيثِ يسقطُ تارةً فوقَ الصخورِ وتارةً في راشحِ
والفضلُ ليسَ يُنالُ يوماً بالمُنى وتصادفٍ او حكمِ بختٍ رابحِ
واخو المعارفِ ليسَ يبرحُ باسماً امواله كالبحرِ ليسَ بنازحِ

انَّ البشاشةَ للضيوفِ منَ القرى ... فابْرُزْ بوجهٍ بالبشاشةِ طافحِ
واذا جلستَ بمجلسٍ فاظهرْ لمن ... فيهِ ظهورَ معاشرٍ متسامحِ
واذا نطقتَ فزنْ مقالكَ واجتنبْ ... لفظَ اغتيابٍ كاجتنابِ الكاشحِ
واذا سمعتَ فخذْ بسمعكَ عن لسا ... نِ نميمةٍ تأمنْ مذمةَ قادحِ
وتجنّبِ الدعوى لخجلةِ مُدَّعٍ ... ما ليسَ فيهِ منَ المعابِ الفاضحِ
نزّهْ كلامكَ عن قبيحِ تصنّعٍ ... واذا مزحتَ فكنْ اخفَّ مُمَازحِ
لا تقتسرْ ضحكاً فتلكَ بضاعةٌ ... مبذولةٌ بل ذاتُ زورٍ واضحِ
واذا ضحكتَ فكنْ بطبعكَ ضاحكاً ... ما جازَ طبعَ المرءِ ليسَ بصالحِ
واذا رأيتَ السامعينَ اليكَ قد ... اصغَوا فلا تذهبْ لفرطِ تفاصحِ
خيرُ الكلامِ بليغُهُ فارغبْ لهُ ... ليسَ المُطيلُ منَ المقالِ برابحِ
واعلمْ بأنَّ سواكَ ممن ضمّهُ ... ذاكَ الندىُّ يرومُ فرصةَ طامحِ
فافسحْ لهُ وقتاً لبسطِ حديثهِ ... لا تحتكرْ لكَ كلَّ سمعٍ سانحِ
واحذرْ اشاراتِ اليدينِ ولا تكنْ ... متلفّتاً مثلَ الخطيبِ النابحِ
لا تحسبنَّ اللفظَ منكَ مواهباً ... او انعماً منهلّةً من مانحِ
إيّاكَ قولَ انا فعلتُ واننيَ ... اهوىَ كذا وكذا اسوسَ مصالحي
لا تجعلنَّ امورَ نفسكَ محوراً ... يبدو حديثُكَ حولَهُ بفواتحِ

في اجتماعاته وخلواته اثواب الوقار حتى تغامز عليه الصغار ، من ضاربي الصنوج والاوتار ، ورموه بينهم بالعار والشنار ، وتهامس بعضهم على ان في طباعه دناءة يتخذ لها من تكريره الفاظ المرؤة والحرية وغيرهما من الفضائل ، خفآء اي ثوباً يظن انه يستتر به عن اعين الرقبآء ويخدع بظاهره البسطآء وانا لا اقطع فيما ذكرته لك من المنقول فراقبه ان احببت وافدني ما يتحصل لديك من المنخول ، فراقبته مدةً ووكلت من اثق به ايضاً في مراقبته فكانت الحقيقة عندي وعند صديقي فيما قيل ، وان اجتهد في طمسها اصحابه وقانا الله واياكم كل خزيٍ واحسن ختامنا وختامكم .

المرآة الثالثة عشرة

اداب المعاشرة

يا خيرَ منصوحٍ واكرمَ نازحٍ ... اسمعْ فديتُكَ نصحَ اخلصِ ناصحِ
كنْ عن حسودِكَ معرضاً ولئنْ بدا ... لكَ ودُّهُ فالحقدُ ليسَ ببارحِ
واهجرْ معاشرةَ الكذوبِ ولا تثقْ ... بمداهنٍ بذّالِ مدحٍ نافحِ
شرُّ الخصالِ تقامرٌ وتعاقرٌ ... فاحذرهما تأمنْ قبيحَ طوائحِ
واحذرْ معاشرةَ اللئيمِ فأنهُ ... مترصّدٌ لكَ كلَّ شرٍّ سانحِ

والصلاح والصوم والصلاة ويسميهم اصحاب الصادات ولكنه في الحقيقة كان يتحذر كلَّ من يتعمد في حديثه تكرار ذكر فضيلة وكنت اعجب من ذلك اذ كان على جانب من طهر النفس وحب الفضائل ولا سبيل لخبيرٍ بمحاسن اخلاقه ان ينسب ذلك الى سوء ظنه بالناس ، فقلتُ له يوماً اني اراك شديداً على اصحاب الصادات فقال معاذ الله ان يكون ذلك مني عن سوء ظنٍ باحدٍ معين من الخلق ولكني اكره للمرءِ ان يتبجح ويتمجح بما ليس فيه ويلبس غير ثوبه لخداع الاغرار ، ألا ترى فلاناً وتكريره لفظ الاخلاق والوطنية والحرية والمرؤة والشرف وامثالها من الفضائل كانها من اظهر خصاله وقد قيل لي انه كان خليقاً به ان لا يكررها كثيراً في شعره وقال اخرون انها شباكٌ يصطاد بها فتيان المدارس في هذه الناحية وغيرهم ممن يحسبون انهم يفقهون وسواهم ممن يظنون انهم بماديحهم له يتاجرون او يعتزون الى غير ذلك من الاقوال ، والرجل شاعر لا ريب في قريحته الا انه نادر الجيّد فقير الابتكار كثير الاغارة على معاني المتقدمين من الشعرآء ، على انه لو لم يلبسها من تركيبهِ ثياب الركاكة ومبتذل اللفظ ، لما فضح امره العارفون ولا اغترّ بها ضعفآء العلم وعادمي الذوق ، ومهما يكن من ذلك فقد بلغني انه منذ تجاوز الخمسين قد تمادى في شرب العقار وخلع

« ابوكات » ويسميه بعض الناس ابا احتيالات ووكيل رشوات . وكان اتخذ له اعوانَ خبثٍ ومكر ، وسماسرةَ خداعٍ وغدر ، وشهود زورٍ وهتر ، يصطادون له من المدينة والارياف سليمي الصدور من جماعات المتخاصمين ليحكّموه بينهم وظل دهراً على ذلك وطريقته الاثيمة ، الغدر باحد الخصمين ، او المكر بالاثنين ، للوصول الى اقتناص الدينار العين ، حتى جمع من السحت شرّ مجموع ، ولم يكن يُسمع منه الا الفاظ الشريعة والقانون والنظام والعدل والحق والانصاف والاستقامة والامانة والشرف والناموس وامثالها ، فهل باكثاره من ذكر هذه الالفاظ كان محباً لها حقاً او واقفاً عند نواهيها وقد سمعتم مجمل خبرهِ ، وشيئاً من عجره وبجره ، ولله در القائل

تعصى الالهَ وانتَ تُظهِرُ حبَّهُ هذا لعمري في الفِعالِ بديعُ
لوكانَ حبُّكَ صادقاً لاطعتَهُ انَّ المحبَّ لمن يُحبُّ مطيعُ

فلم يكد ينتهي من كلامه حتى قال احدُ اعيان ذلك المجلس وانا احبُّ ان اعزّزَ رأيَ الاخ السعيد بما اتفق لي من هذا الباب فهل تحبون ان ارويه ؟ فاجاب الجمع نعم وحُبَّةً وكرامة ، فقال كان احد خلاني الاعزآء يحذّرني على الدوام ممن يكررون ذكر الصدق

او على حد قول المعري

رويدَكَ قد غُرِرْتَ وانتَ غِرٌّ   بصاحبِ حيلةٍ يَعِظُ النسآءَ
يُحرّمُ فيكمُ الصهبآءَ صبحاً   ويشربُها على عمدٍ مسآءَ

وكم من شرير يكرر ذكر الموت حتى يُحسب من عباد الله الناسكين وهو في الخلوة شيطان مريد ! وقد عرفتُ فيما مضى من الدهر صعلوكاً تزدريهِ العين بل مسخ قردٍ كان في اول امرهِ يخدم في مهنةٍ ساقطة ، ثم خدع احد المستورين من البسطآء اذ استأمنهُ على تفهٍ من المال يبيعهُ لحسابهِ في السوق ولما طالبهُ بقيمته انكرها عليه ، فحاكمه الى الحكام ولكنه كان اتلف الثمن فظل يحاول ويماطل ويماكر ابان المحاكمة ثم التجأ الى بعض اصدقآء صاحب المال ملتمساً ان يستأجلهُ في دفع قيمة المال ريثما يتمكن من ايجاد خدمة يحصّل منها وفآء ذمته ، فرضي المستور المغبون اذ كان قد ملّ خداعه ومماطلته ، غير انه بعد ذلك ايضا لم يحل منه بطائل .

هذا ما حكاه لي عنه من عرفهُ يومئذٍ ولا ارتاب في صدق كلامه ، ولم تزل تتقاذف به ايدي المصادفات حتى عدّ نفسه في عداد المحامين ، بين عمى الدهر وظلامه ، يومَ لم يكن للمحاماة قانون مشروع ، ولا جائز ولا ممنوع ، وكان يُطاق عليه وعلى امثاله اسم

لمخاطبه ِ اراكَ من دُعاة الاشتراكية قال وما برهانك على ذلك ؟ قال تكرار ذكرها وذكر جماعتها ، قال أهذه كل حجتك ؟ قال وما تريد بعدها وفي الامثال المأثورة « من احبَّ شيئاً اكثر من ذكره » قال وقد يكون الامر على عكس ذلك ، والامثال لا تصدق في كل حين ، ولكل قاعدة شاذّ بل شذوذ ، قال صاحبه اني لا اوافقك على ما تقول ، وبينا هما في ذلك والقوم مصغون الى حديثهما اذ دخل الصديق المُستدعى ونسميه سعيداً ، ومكانهُ من الفضل ورجاحة العقل مشهور بين الناس ، فقال احد المتناظرين اترضى بالمولى سعيد حكماً بيني وبينك ؟ فاجاب مناظره أتسألني وانت تعلم انقيادي لرزانة ارآئه ؟ ثم قصّ عليه كل منهما ما قال . فلما فرغا من الكلام انصت كل من في المجلس لما يكون حكم المولى سعيد فقال لا ريب في ان الامثال حكمة الامم ولكن ما يشذ عن احكامها كثير ايضاً ، بل منها ما يكون امره كامر الاضداد في كثير من الفاظ اللغة مثل قولنا تلحلحَ فلانٌ فهو يعني ثبت في مكانه ويعني ايضاً انه ذهب وكقولنا امرٌ جَلَلٌ فهو يعني انه عظيم ويعني ايضاً انه يسير .

فقد يكون الأكثار من ذكر الشيء حباً به كما في المثل وقد يكون خداعاً ومكراً بالسامع على حد قول الشاعر

وقد يتزيا بالهوى غيرُ اهلهِ ويستصحبُ الانسانُ مَن لا يلائمهْ

فظللتُ ارقصُ اولاً ثقةً بتحقيقِ الأملْ
يأتي الصباحْ وينقضي فاقولُ عوّقهُ عملْ
واذا المساءُ اتى اقو لُ عساهُ أنْ يأتي وعلْ
حتى اذا ما الشهرُ غا رَ اقولُ سوف اذا استهلّ
تأتي الشهورُ وتنقضي ولبرّ وعدِكَ لم أزلْ
مترقّباً متعطّشاً فامننْ بهِ قبلَ الأجلْ
ولربَّ اخوانٍ لنا بلقائهم اقصى الجذَلْ
في مجلسٍ عندي بهِ من جنّةِ المأوى بَدَلْ
تُجلَى علينا قرقفٌ ما الاندرينُ وما العسَلْ
هيَ ذوبُ البابِ بها نخرُ الاواخرِ والأُوَلْ
ولأنتَ ادرى ذائقٍ منها واكرمُ مَن نَهَلْ
فانهضْ الينا غيرَ مأ مورٍ لِبرجِكَ يا بَطَلْ
فاذا حلَلْتَ بهِ أرَيـ تَ البدرَ في برجِ الحَمَلْ

فلما قرأها قوبلت بمنتهى الاستحسان ثم نادى احد الغلمان وقال خذ هذا المكتوب وطِرْ به الى دار السيد فلان وضعهُ بين يديه ، وعاد الاخوان الى احاديثهم ومفاكهاتهم الى ان قال احدهم

أَمَا فيكمُ للبثّ صَيحةُ مُشتَكٍ ... اذا لم يكنْ مالٌ لديكم ولا خَيلُ ؟
كفى القومَ عاراً انْ يُقالَ غبيُّهُمْ ... اخو سؤددٍ فيهم لهُ المنعُ والنيلُ

المرآة الثانية عشرة

من احبَّ شيئاً اكثرَ من ذكره

كان لنا في كل اسبوعٍ مجلس يضمّ طائفةً من خاصة اهل الادب وعصابةً من اعيان الفضل وفيهم كلُّ ظريفٍ ولبيب ، يديرون من الاداب كؤوسا ، ويطلعون من آفاق الذكآء شموسا ، ولما انتظم عقد المجلس في يوم من ميعاده ، ادار احد الفضلاء فيه ابصاره ثم قال اني لا ارى بيننا فلاناً وهو كما تعلمون من بدور الكمال في هذا البلد الخصيب فعلى مَ ينتحي عنا مكاناً قصيّاً ؟ فقال صاحب المنزل قد وعدني مِراراً فلا ادري ما الذي كان يعتاقهُ في كل مرةٍ ، فقال آخر لِمَ لا نرسل اليهِ ألوكةً تقيمهُ من بيته وتقعده بيننا ؟ فاستحسن الحُضَّر هذا الرأي وطلبوا الى رب البيت ان يكتب اليه فاخذ قلماً وقرطاساً وكتب :

يا ايُّها الخلُّ الحبيـ ... ـبُ وايُّها المولى الاجلّْ
عللتني بزيارةٍ ... وتركتني رهنَ العِلَلْ

والبدن بمثل هذا الثمن غير غبين ؟ قلت يا سيدي هذا بحث يقتضي وقتاً اطول من وقتي هذا اذ الباخرة ستجري بعد نصف ساعة او نحوها ولعلي لا ادركها الا بحسن دعائكم فاستودعكم الله الان وارجو ان تجمعنا الايام فصلونا بحسن الذكر فنهض الرجل وخرج خارج الدار وطلب الينا مواصلته باخبارنا وودع اخلص وداع ، ثم قصدت السفينة بعد ان ودعت صديقي على امل اللقآء والاجتماع .

المرآة الحادية عشرة

نفثـــة

أَمَا في الحمى ضَوءٌ لمن جنَّهُ الليلُ ... أَمَا هضبةٌ تُرقى لمن دَهمَ السَيلُ
الى كم يظَلُّ الظلمُ للعدلِ ماحياً ... وكم يستمرُّ الجورُ في الناسِ والويلُ
اذا قالَ ربُّ الفضلِ أُنكِرَ قولُهُ ... وإنْ نطقَ المهذارُ قيلَ هوَ القيلُ
أُقلّبُ طرفي في الديارِ فلا ارى ... سِوى مُدَّعٍ فضلاً وليسَ لهُ ذَيلُ
اذا قلتُ قمْ للامرِ قامَ مُعدِّداً ... معاذيرَهُ لا حولَ فيهِ ولا حَيلُ
تحكّمتِ الاذنابُ فالامرُ اعوجٌ ... متى كانَ للاذنابِ عن عَوجٍ مَيلُ
أجهلاً وبغياً واستطالةَ فاجرٍ ... وعصرَ جيوبِ القومِ، قد طفحَ الكيلُ

مني ، ولـكن اذا ظهر السبب بطل العجب فانني ربيتُ في بلادٍ حكمهـا استبداديّ منذ مِئات من السنين ، ودين اهلها التسليم والطاعة ، فلا اعتراض على حكم ، ولا تعجب من شيءٍ غيرطبيعي ، ولا تعليل لما هو غامضٌ ، اذ الاعتراض على الحكم هو التظلم او ادعآء الجور والباعث على ذلك ثورةٌ عقلية دوآؤها استئصال الرأس عن الجسد كيلا تستفحل وتسري ُعدواها والعياذ بالله ، هذي هي قوانينا واما التعجب من اي شيء كان فهو نقص يقين بالله لان الله قادر على كل شيء ، واما تعليل ما غمض عنا او ما نجهلهُ فهو حمق منا وتطاول لادراك حكمة الله ومقاصدهِ فالله تعالى وتقدس اسمهُ اعلم بما صنع وسوّى ، ومحاذرة تعليل المجهولات واجتناب الخوض في اسرار الكائنات ، راحة للجسم والعقل لا يأباهما الا المتطفل ، وهما خيرٌ من التوغل في مباحث تدعي طائفة من العلمآء والفلاسفة انهم كشفوا اسرارها وما هم بصادقين وفي كل عصر يهدم متأخرهم ما بناهُ المتقدمون منهم .

وعصارة القول ان ابائي واجدادي على هذا نشأوا ومضوا وانا اتبع خطواتهم مستريح الجسم والبال ، وقد سمعت من يقول عنا اننا قوم نحبّ الـكذب ونحب ان ُيكذب علينا ابد الدهر ، فهب ان بعض ذلك حقيقيٌ ألا ترون أنّ مَن يشتري راحة البال

لمولاك ان في الباب فلاناً وصديقاً آخر فدخل وعاد الينا بسرعة البرق وقال على الرحب والسعة يقول مولاي ، فدخلنا داراً رحبةً ولم تقع عين صاحبها علينا الا واقبل علينا بوجه باشّ مرحباً مؤهلاً ولا تسل عن سروره عندما ذكر له صاحبي اسمي ثم اخذنا في الحديث من شأن الى شأن ومرت بنا ساعتان لم نشعر بهما ، وفيما نحن كذلك نادى الخادم وقال له مَن هذه التي جآءت ؟ فقال هي الكوّآة (اي الكاوية) فقال أدعها لي فخرج وناداها فدخلت علينا وحيّت ثم قالت لصاحبنا يا سيدي متى ترغبون ان احضر قمصانكم ؟ فقال لها غداً صباحاً ، فقالت هذا لا يمكن يا سيدي ، قال اذن لا تأخذي شيئاً ، فقالت لكم الامر وحبذا لو استطعت تنفيذ امركم ولكن الوقت شتاء والمطر متواصل فكيف اتمكن من غسلها وتنشيفها وكيّها بهذا الوقت القصير ؟ قال لها كان يمكنكِ ان تجاوبيني بنعم ثم تحضرينها بعد يومين ، قالت أما اكون كذبتُ عليكم ؟ قال اطاعتكِ مع الكذب ، اهونُ عليّ من صدقكِ مع العصيان ، اعني ان تكذبي عليّ بقولكِ نعم احب اليّ من صدقكِ مع مخالفة امري بجوابكِ لا اقدر او لا يمكن ، وعندئذٍ ناداها الخادم فتبعتهُ ، والتفتَ الرجل اليّ ـ وكنتُ سارقتُ صاحبي نظر التعجب مما سمعتهُ ـ فقال لعلكم تتعجبون يا سيدي مما سمعتموهُ

فمسكت بيده وقد مدها اليّ وقفزت الى القارب ، فسار كالسهم ولم يكن الا كلا ولا ، حتى كنت على المرفأ ، فاشرت الى الملاح ان يعود بعد اربع ساعات ، ثم ركبت سيارةً وقلت لحاميها اقصد شارع كذا رقم كذا فسار بها كالبرق ثم وقف بي امام المنزل الذي عينتهُ له فنزلتُ وسألت البواب عن صاحبي فاجاب انه لم يبرح منزله فنفحت حامي السيارة بمقاطعته (باجرته) ودخلت على الصديق ، فحدّث عن سروره بمفاجأتهِ هذه ولا حرج ولما انتهينا من التأهيل والترحيب ومبادلة احاديث الشوق قلتُ له أتحب ان نطوف ساعة في المدينة لمشاهدة ما جدّ فيها بعد طول العهد ؟ فقال ذلك اليك ثم نهضنا وخرجنا ونحن نتذاكر اطايب الذكرى حتى انتهينا الى زقاقٍ قديم فاستوقفني وقال اتعرفونِ فلاناً قلت لا قال انه كثير الذكر لاسمكم وهو لم يترك شيئاً من كلامكم نثراً ونظماً الا وطالعه وهو اديب كامل وطالما شكى اليّ فرط شوقه الى مشاهدتكم فهل ترون ان نزوره الان وداره قريبة منا ، قلت لا مانع يمنعني سوى ضيق الوقت ، قال ومتى مجرى الباخرة فنظرت في ساعتي ثم اجبته بعد ثلاث ساعات ، قال اذن لدينا كل الوقت فهيا بنا ، ولم نسر الا بضع خطوات حتى وقف بنا على باب دار هندستها قديمة فطرق الباب وسأل الخادم عن سيد البيت ثم قال له قل

كل هذا وسواه يبدو لك لدى التفرس فيه فلا يخامرك ريب في ان السريرة سريرة تمساح متعطش الى نهش اعراض الناس وافتراس لحومهم واقتناص مالهم .

فقلتُ له ان كانت كل فراستك بل بعضها على هذا النحو الذي بدا لي منك هذا اليوم ، فانا اشهد انك افرس علمآء الفراسة ، فصافحني باسما شاكراً وودعني بعد ان وعدني ألا ينقطع عن زيارتي طويلاً .

المِرآة العاشرة

﴿ الطاعة مع الكذب خير عندي من الصدق مع العصيان ﴾

جمعتني الاقدار ، في ليلة ذات امطار ، بجوّاب افاق ، حَسنْ السرد والسياق ، فحكى في ما حكى قال رست بنا السفينة في احد الاسفار امام مدينة . . ولا اسمي ، فتذكرت صديقاً يقطن بها فسألت الربان أطويلٌ مُقامنا في ذلك المينآء ام قصير ، فقال لا اقل من خمس ساعاتٍ ، وكان الفصل شتآء فقلت في نفسي لا اقضي حق الوفآء ان لم ازر صديقي وقد اسعف الدهر بذلك ، وكانت القوارب حول الباخرة فناديت من على ظهرها احد الملاحين فلم يكد يسمع ندائي حتى شقّ بقاربه الماء وصار بجانب السلم ،

اباحكم اسرار نفسه ؟ فقال بل قل اسرار نفسه الخبيثة . قلتُ وقد ملكني منه العجب ومن اين لكم ذلك ، قال لو تفرستم فيه ومنحتموه شيئاً من انتباهكم بقاعدتي وهي المقايسة والتشبيه في ذاكرتكم بين صورته وصورة حيوان او وحشٍ لبرز لكم في الحال تمساحاً في زي انسان ، فعيناهُ عينا تمساح في البلاهة والبلادة والخبث والمكر لونهما ترابيّ يضرب الى اصفرار ، وهو ينظر من شقيهما كانه في ذهول او متنبهُ من نوم ثقيل ، اضف الى ذلك فماً يتصل شدقاهُ باذنيه ، واذناهُ كانهما سُمّرتا في اقصى رأسهِ المستطيل ، اما فكّاه ولاسيما الفك السفلي ، فما اشد عرضهما وتبسطهما القبيح ، واذا تأملت وقاك الله في شفته الفوقانية وانقلابها قليلاً الى فوق ، وفي التحتانية وانقلابها الى اسفل حتى تبدو لك اسنانه الصفر كانها نابتة على شفته السفلى ، وفي فمهِ المشقوق على الدوام كانهُ مستعد للنهش والعض ، واذا تبصرت في الشعر الاصفر النابت غب الحلاقة او القص على شفتهِ الفوقانية كرؤوس الحسك ، وفي خديهِ العريضين المنبطحين الى اسفل على لون اخضرٍ قذر ، فلا تلبث ان ترى امامك تمساحاً ذا انفٍ قصيرٍ افطس منفوخ المنخرين ، وجبين اخضر قذر جداً كانه ظهر تمساح مع قحة ظاهرة وعدم احساس وحشي .

اخلاق الرجل تصوير مَن عاشره دهراً واختبره خبراً، وهو لم يعرفه قبل اليوم ، فقلت له أتبنون حكمكم هذا على قواعد علمية من علم الفراسة ام هو سرّ من الاسرار المضنون بها على غير اهلها ؟ فتبسّم تبسم الاريب اللبيب ثم قال ان علم الفراسة كما تعلمون قد تكلم به كثيرون من اقدم تواريخ البشر ، الا انه الى اليوم لم تتقرر له قواعد عامة يُرجع فيه اليها ، وانما انا ارى باختباري ان طريقتي - وهي لا شك طريقة من سبقني من القدمآء - هي اضمن للحقيقة من سواها ، وكنا وصلنا الى مفترق طريقنا ، واذا بصديق لي قديم يصحبهُ رجل اعرفهُ وقد تنحى عنه قليلاً عند ما تقدم صديقي لمصافحتي ومصافحة صاحبي وكان يعرفه ، وظلّ ساعةً يحادثنا، ومن ذلك انه صادف احد اصحابي عند قفوله من اوروبا على ظهر الباخرة فحكى لي عنه ما سرني ، وبين ذلك كلهِ كنتُ الحظ صديقي غير منصتٍ الى الحديث وان كان يحاول ايهامنا من ذلك ، وفي الحقيقة قد توجّه بكل خواطره الى رفيق صاحبنا المتنحي عنا ، وكان يصعّد فيه نظره ويصوّبه ، حتى اذا ما همّ الصاحب بوداعنا تقدّم الى رفيقهِ معتذراً ثم سارا ، وما كادا يبتعدان قليلاً حتى بادرني صديقي بقولهِ أتعرفون هذا الرجل رفيق صاحبنا فقلت نعم اعرفه وقد رأيتكم تتفرسون فيه غاية التفرس فهل بدا لكم من ملامحهِ ما

عنده ، وكان يصاحبني صديقي هذا واذا بداخل يقول السلام عليكم فما اتجه نظري اليه حتى عرفته . فتقدم نحوي وصافحني وقال رأيتكم من بعيد وانا مشتاق اليكم فتتبعتكم حتى ادركتكم فقلت وانا اليكم مشوق فكيف انتم ؟ وما عندكم ؟ فاخذ في حديث عن آخر سفرة له واكثرها يتعلق بتجارته ومصالح نفسه ، وصديقي يقلّب ناظريه في وجهه وحركات يديه وسائر جثته وكان الرجل بادناً ، ولما انتهى من حديثه صافحني مودّعاً وذهب ، ولم يطل جلوسنا بعد ذلك عند الكتبي فودعتُ ونهضت راجعاً والصديق يسير بجانبي ، فقلت له رأيتكم تحققون الرجل بابصاركم وتجيلونها فيه من قمة رأسه الى عقبي قدميه فماذا رأيتم ؟ قال رأيت عقاباً ، قلت ما ذا تقولون قال عقاباً نسرياً ولا اخطىء ، قلت ومن اين بدا لكم وجه الشبَه ؟ قال أما تبصرتم في ذلك الانف المُعَكَّف الاقنى وارنبتهُ الدقيقة وتلكما العينين الصغيرتين الغائرتين اللامعتين تحت حاجبين كثّين فوق خدين بارزين ؟ ثم أما لاحظتم كفيه الصغيرتين وبعد النسبة بينهما وبين جثته الكبيرة واصابعه المتقوسة واظفاره المستطيلة الثخينة الصفر كأنها مخالب نسر تتطلب القبض والاقتناص والافتراس ؟ وصاحبكم شَرِهٌ ، طمّاع جبان ، اي انه جامع سائر طباع العقبان . وكنت اتبصر فيما يقول واتعجب منه فانه صور لي

المرآة الثامنة

ابو العلآء المعرّي

ما قامَ فوقَ الارضِ اعمى قبلَهُ ... يهديْ الى رَشَدٍ ذوي الأبصارِ
بالعينِ يُبصِرُ كلُّ من فوق الثرى ... ما حولَهُ ويضلُّ في الانوارِ
اما الضريرُ ابو العلا فبروحهِ ... قد كانَ يبصرُ ابعدَ الاقمارِ
وبدت لسامي فهمهِ وعلومهِ ... اسمى الحقائقِ مثلَ جسمٍ عارِ
فأتى بما لم يأتهِ من قبلهِ ... بَشَرٌ وادركَ مُغلَقَ الأسرارِ

المرآة التاسعة

عُقابٌ وتمساحٌ

كان لي صديق على جانب من العلم كثير المطالعة شديد الذكآء فارس النظر ، وكان يزعم ان لكل وجهٍ من وجوه البشر شبهاً بحيوان ، من طائر في الهوآء ، او سابحٍ في المآء ، او دبّابٍ على وجه الغبرآء ، وان تلك المشابهة تدله على طباع صاحبها وهي عين طباع الحيوان المشبه به .

ووقفتُ يوماً على ورّاقٍ (كتبي) كنت معتاداً على الجلوس

من حركاته واحواله ويسمعون من صرخاته وخلط اقواله ، وقد يقطع خطابه بجملة يوجهها الى احد الضاحكين ، كأنْ يقول له انك حاسد لي على مقامي هذا ، او انك تتمنى ان تقول ما اقول ، ويضحك هو نفسه ثم يعود الى خطابه كأنْ لم يكن شيء ، وكانهُ لا يرى في وجوه السامعين وضحكهم الا الاستحسان والاعجاب ، ولا يخطر له ان يقول انكم تهزأون بي مع ان سخريتهم منه ظاهرة ، ولكن شدة اعجابه بنفسه وثقته بمزاياه وعلمه تسدل بينه وبين اوضح الحقائق حجاباً كثيفاً ، مع انه لو بدا له من سواه عشرُ معشار ما يبديه ، لانتقده اشد انتقاد ، ولِما فاته من مضحكات تلك الحالة خفيّ او دقيق ، وليس ما صورته لك مما مرّ امامي وامام سواي مرةً او مرتين ، بل مما تواتر وقوعه امامنا كثيراً ، وهذا من غرائب الطباع البشرية وعجائب القوى العقلية ، فالرجلُ ذكيٌّ القلب ، متوقد الفهم ، سريع الفطنة ، دقيق الحسّ ، حسنُ النقد ، الا فيما يكون منه ويصدر عنه ، وفي ذلك مجال للناقد البصير في افعال القوى العقلية وانواعها وتأثير التربية والعادة في ذلك كلهِ .

ولله در القائل

وعينُ الرضى عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ
كما أنَّ عينَ السخط تبدي المساويا

اساريره، وقد يقلّب ناظريه في الحاضرين فيرى الابتسام على شفاههم بل قد يرى بعضهم لا يملك نفسه من شدة الضحك، فلا يبالي بشيء من ذلك كلهِ كانه لم ينظر ما يريبهُ او كانه متحقق ان ضحك الضاحكين ليس لشيء الا لمشاركتهِ في سروره.

وقد يسألهُ احد الاصحاب في ذلك المجلس ان يرتجل خطاباً في موضوع يذكره له وهو لا يروم من وراء سؤاله سوى المزاح، فلا يلبث ان يغير هيئة جلوسه، ويسوّي ثوبه وجبته، وقد يقف على قدميه خطيباً يحسب نفسه بين الوف من الخلق فيتنقل من جملة الى اخرى في كلام يعيده في كل خطاب، ولا يكاد ينطق بجملتين او ثلاث حتى يصعد الى آدم ثم يحكي شيئاً من قصة نوح ويسقط منها على الكليم صلوات الله عليهم، ولو تبصرت في حركاته وملامحه واحسنت الاصغاء الى نبراته وهمساته وجواباته وقراراته، لتبينت انه يظن الكليم تقمص فيه وانه امام الطور او على الطور، ثم يروي كما لو انه تدلى من الطور الى الارض وشاهد بعض مَن يُعظّمهم من اهلهِ الى حكاية او حلمٍ يُلخص به كيف انقادت اليه الرياسة لما لم تجد لها كفؤاً سواه، وقد يظل ساعةً او تزيد على هذا النحو، وهو في ذلك كلهِ مُعجَب بما يُلقي، يحدج السامعين بابصاره ويجيل فيهم واحداً واحداً نظراته وهم مستغرقون في الضحك لما يشاهدون

وقد عرفنا رجلاً من هذه الطائفة وكان آيةً من ايات الله في الصفات المتناقضة ، فقد كان حسن الخلقة في الاجمال ، حلوَ العشرة ، على قسطٍ وافرٍ من العلم والفهم والتحقيق والذكآء وقوة الحافظة . وكان سديد النقد بصيراً بمعاني الالفاظ ودقائق التركيب ، حسن المحادثة مستيقناً من نفسهِ بذلك كلهِ وفوق ذلك ، الا انه كان ذا قريحة مستحجرة بل لا قريحة له البتة ، يكتب التافه ومعناهُ مسروق ، وقد ينظم الشعر من باب الكلام الموزون كما ذكرنا في احد ابواب هذا الكتاب والمعاني لسواه ، ويتيهُ بذلك على كل تياه ، وان ساقك نحس الطالع الى ان تنبههُ على لفظ ورد له في غير موضعه او ان تشير الى معنى مسبوق اتى به ، فحينئذٍ تعلم كيف تنحط جلاميد التقريع على الرؤوس وكيف تنهمر سيول التوبيخ والتفنيد والتعنيف ، وهو يزعم ان كل جملة من كلامهِ توازن رسالة جليلة ، وكان طيب السريرة سليم الصدر امين المغيّب ، غير انه كان يتطلع الى الرياسة وتنزع اليها نفسه نزوع الوالدة الى ولدها المفقود ، وكان حب العظمة قد ملك عليه مشاعره ، حتى اذا رام ممازح او خصم ان يثير غضبه ورآه قد كاد ينشق من الغيظ ، فما عليه الا ان يقول له او لمن في المجلس ، ان الرياسة لن تكون الا له او لا تليق الا له ويشير اليه ، فتسكن فجأةً سورته ويتهلل وجهه وتبرق

فلا يطيق الاناني ان يسمع مدح احدٍ من الناس ، او الثناء بالجميل على ذي فضل .

واما المعجبون فهو مبني للمجهول هكذا ورد عن العرب يُقال رجل مُعجبٌ بنفسه او برأيهِ ، قال في لسان العرب معجب مَزهوٌّ بما يكون منهُ حسناً او قبيحاً ، قلنا ان بناء هذا التعريف ينقضهُ المنطق ، لان الانسان لا يزدهي ويفاخر الا بالحسن من افعاله ، حتى ان الاشرار انفسهم يكتمون قبائحهم ، واذا جرى ذكر القبيح في مجلس فانهم يكونون اول الذامين له ، والمشنّعين على اصحابه ، فكيف يرضون المباهاة به ؟ ولعل الاولى ان يُقال في تعريف الاعجاب بالنفس انه خلل او ضعف في احدى القوى العقلية يوهم صاحبه انه حائزٌ ما تستحسنهُ نفسه .

والمعجبون ليسوا كلهم في مرتبة واحدة ، بل هم على درجات ، فمنهم من يوقن انه يملك الحسن كله ، وهو في الحقيقة قبيح الصورة او مشوّه الخلقة ، ومنهم من لا يرتاب في انه حبيب الى كل القلوب ، وهذا في الغالب مشارك في شيء من البلاهة ، ومنهم من يحسب انه حائز غايات الذكاء والنباهة وهو في الحقيقة من البلداء ، ومنهم من يظن انه شاعر وهو اميّ فيقول هذراً ولا يشعر بهزء الناس به ، ومنهم من لا يشك في جمعه الحسن والفهم والجود والحلم ،

والرئيس اعزهُ الله يعلم ان مَن طلب الصيد كله فاتهُ كل الصيد ، ومن لم يحرص على الصديق الوفي حرصهُ على كنزٍ ثمين فهو غبين ، وان كسب رضى الناس كلهم غرضٌ سحيق ومطلب ممتنع التحقيق .

المرآة السابعة

الأَنانِيّةُ والمُعجَبيّةُ

على النسبة الى الانانيين والى المعجبين (بضم الميم وفتح الجيم) وذلك قياساً على الكنتية نسبةً الى الكنتيين ، قال في لسان العرب في مادة كَوَنَ .. فقلتُ ما الكنتيون فقال الشيوخ الذين يقولون كنا كذا وكان كذا وكنت كذا فكانهُ منسوبٌ الى كنتُ .

فالانانيون إذنْ هم الذين يقولون انا فعلتُ وانا احبُّ كذا وانا ارى كذا وانا .. وانا ..

والانانية هي منقصةٌ ورذيلةٌ تتطلب كل مزية وخير لصاحبها وان عرّضت سواهُ بتطلبها هذا للاذى وشديد الضرر ، او هيَ طَمعٌ وجشَعٌ بصاحبها الى كل نافع ومستحسن بغير مبالاة بسواهُ من سائر البشر ، ويعرّفها بعضهم بحب الذات او هو الافراط في محبة الذات ، ولعل تعريفنا اعلاه اوضح واشمل .

وهذه الرذيلة يتفرع عنها بل يتولد معها ويلازمها الحسد ،

والتكريم ، ثم لا يلبث ان ينقلب الى ذم الزمان واهله في نفس ذلك المجلس ولا يستثني احداً من الخلق لانه ضنين بالمدح ، لم تسمع له يوماً كلمة خير في احد من البشر ، حتى ليكاد يبخل بكلمة عافاك الله على من ينتشله من خطر الهلاك ، بل لو استطاع ان يقبض يده عن اشارة التسليم ، وان لا يحرك شفتيه بالفاظ التحية لفعل ، وهو ينفر من الاجتماع باكثر من واحد او اثنين من الاصحاب وهما اذا غابا عن ذلك المجلس لا يضن عليهما بشيء من نخز لسانه اللاسع على سبيل المزح في التقريظ ، يقول عارفوه انه حسود ، وهو يزعم ان الناس كلهم له حاسدون ، وهو على عِلاّته ذكيٌّ خفيف الروح حلو المطايبة ، لا تكاد تنطق بنادرة او مُلحة حتى يستحسنها ويبادرك بقص شيء من ذلك الباب ، ولو كان من تلفيق ساعته ، فيكثر الاشارات بيديه وكفيه وعينيه ويحرك رأسهُ الى كل ناحية من نواحي الجلاّس ويخفض صوته حتى لا تكاد تسمعه وبين ذلك كله يحكُّ ما ورآء أذنيه وحاجبيه بكلتا يديه ويلتفت يميناً وشمالاً نحو سامعيه كانه يشعر بانهم في شكٍ مما يقول حتى يريب بذلك غير المستريب ، وحتى تحسبه من تصويب نظراته انه يؤلف ويختلق وبعد ذلك كلهِ فلا تنسَ انه نبيهٌ وانه صاحبنا ولله في خلقه ايات .

المرآة الرابعة

خرجت ذات يوم بعد اكباب طويل على القرآءة اريد النزهة فقابلني صديق اريب قال لي اول ما وقعت عيناه عليّ ، احمد الله الذي منّ عليّ بلقائك قلت عسى خيراً فما ورآء ذلك ؟ قال زارني شخص منذ ثلاث ساعات فلم ارَ فُرجةً مما نالني منه ، الا بان اشكو بثي الى صديق عملاً بقول الشاعر

ولا بدّ من شكوى الى ذي مرؤةٍ

يؤاسيكَ او يسليكَ او يتوجعُ

وقد بعثك الله اليّ ، قلتُ فمن كان زائرك ؟ قال فلان ، قلت وكيف حاله ؟ قال انه لم يزل كما تعهدونه على انانيته ، واسرافهِ في مدح ذاتيته ، شكوى الكساد او ما ينطق بهِ عند زيارته ونحسَ الزمن وشؤم الوقت ، وهو يُعالن بسعة نِعم الله عليه وكثرة ارزاقه ، يحب القليل من الناس بل لا يحب احداً ، وقليل محبوه بل لا محب له ، فلا ادري أيتعمد ما يجنيه على نفسه من كراهتهِ الناس ام الناس كلهم له اعدآء كما يشير الى ذلك في طيات احاديثه ، وقد يعرض له اثنآء المعاشرة كلام يدل على ان اصحابه كثيرو العدد ، وانهم كلهم يرددون عليه الثنآء بكرةً وعشياً ، ويتلون لديه ايات الاخلاص

الجبلة هي في الحقيقة بعيدة عن مجاراة الامم المتمدنة، غريبة عن العمران البشران .

المرآة الثالثة

وجه حسود

يا حزيناً يقضي الحياةَ كئيبا   وعليلاً اعيا شفاهُ الطبيبا
خيَّم اليأسُ فوقَ وجهكَ حتى   غادرَ البشرَ نائحاً مرعوبا
اعينٌ ترسلُ الغمومَ كسهمٍ   حيثُ وجّهتَهُ اراعَ القلوبا
ابدَ الدهرِ انتَ حلفَ همومٍ   فيكَ تزدادُ ما رأيتَ طروبا
واذا ما نظرتَ وجهاً جميلاً   رحتَ من حسنه غضوباً قطوبا
واذا ما سمعتَ صوتاً رخيماً   او فصيحاً في مجلسٍ او خطيبا
او ثناءً على امرىءٍ بتَّ من ذا   لكَ شهراً مسهَّداً مكروبا
واذا قيلَ في البلادِ غنيٌّ   اضرمَ القولُ في حشاكَ لهيبا
كلُّ هذا وانتَ من نِعَم الرحـ   ـمانِ قد نلتَ اسهماً ونصيبا
ما الذي كانَ منكَ يظهرُ للعا   لمِ لو كنتَ معدِماً منكوبا ؟

لتوزيعها جوائز على السُبّاق منهم مكافأة لهم لخدمتهم الامة بما اجادوا وابتدعوا ، وتنشيطاً لهممهم واستجماماً لاذهانهم وارهافاً لقرائحم ، هذا عدا ما تعنى به حكوماتهم وجماعاتهم من التأنق في هندسة منازلهم وكنائسهم وملاعبهم ومتاحفهم وساحات بلادهم وحدائقهم العامة العديدة وكلها مزخرفة بالتماثيل العجيبة البديعة الصنع ، بل لا يكاد يخطو المرء شارعاً من شوارع مدنهم العظيمة حتى يستوقفه تمثال من المرمر او الصفر - برونز - ولو قصدنا الى وصف ذلك حق وصفه لطال الكلام في هذا الباب مما لا تتسع له الا المجلدات الكثيرة فنكتفي بهذه الاشارة ، ولعل اسبق الامم اليوم في ذلك كلهِ الامة الفرنسوية .

فمما تقدم رأينا كيف ان الفنون البديعة تؤثر في اخلاق البشر احسن تأثير ، اذ تألف ابصارهم النظر الى المحاسن فتنبو عن كل ما هو سمج قبيح ، وتتعشق الموسيقى والالحان والشعر والفصاحة والتصوير والنقش والهندسة ، والامة التي تميل الى هذه الفنون ويكون ديدنها الاشتغال بكل ما له صلة بالمصنوعات الجميلة النفيسة لا يُستكثر ان ينطبع في اخلاقها الشغف بانواع الحسن اياً كان ، ولا عجب اذا ما هذّب هذا الشغف الشريف اخلاقها وحسّن ادابها .

ويُستَنتجُ مما اجملناه ان الامة التي لا حظ لها من الفنون

يومئذٍ ورق على وجه الارض ليُرسَم عليهِ ويُخطَّط ويُصوَّر ويجيء التصوير ثم الحفر والنحت والنقش والصقل بمثل ذلك الاحسان والاتقان اللذين تجدهما على المرمر بعد الوف السنين ، فاتحاد كل هذه العوامل وغيرها مما يطول استيفاؤهُ في سبيل الصناعات الجميلة، كان من شأنه ليس ترقي الفنون البديعة في وجوه التحسين فقط بل اعان على توسع المتفننين الاولين في طرق الاختراع بتأثير ما يقع تحت ابصارهم من المحاسن ، ونبّه تخيلاتهم ومهّد سبل التكامل في اخلاقهم بعد فاحش البربرية والخشونة ، بل في اخلاق الامة كلها على درجات متفاوتة تتناسب مع التربية والتهذيب والعلم ، حتى تربي فيهم ملكة حب الجمال فتنطبع في غرائزهم كما سبق القول .

ومما يكاد يكون حقيقةً لا ريب فيها ، انه لم يأتِ على الانسان عصر راجت فيه سوق المصنوعات الجميلة عند عموم الامم المتمدنة كهذا العصر ، فتراهم يؤلفون الجمعيات المتعددة في اكثر الممالك المتمدنة ، فمنها لتبويب الحسان من كل مملكةٍ ، ومنها للمعارض والاسباق في التصوير والحفر والنقش والموسيقى والغناء والشعر والادب والرقص والتأليف والتنسيق والتنزيل والترتيب وغير ذلك مما يجدّ له كل يومٍ عندهم هواةٌ يرون في تنشيط ومساعدة المتفننين وسائر عمال الفنون البديعة ، ويجمعون الاموال الوافرة

ولهذا السبب كان تأثير اخلاق البشر في الصناعات كلها ، ولاسيما الصناعات البديعة تأثيراً بطئاً كبطء الامم القديمة في ايجاد سائر الصناعات ، ومثل ذلك تأثير الفنون البديعة في اخلاقهم ، اذ لما كانت حاجياتهم في اوائل امرهم قليلةً ، اي في حال بساطة عيشهم وقناعتهم ، لم تدفعهم الحال الى غير التقليد ، فكانوا يقتفون اثار من سلفهم ، ولما بدأت بينهم الغزوات ثم الحروب وما يتبع ذلك من النهب والسلب ، ثم من تنقل المتحاربين وامتلاك ارض المغلوبين واختلاط القبائل وامتزاجها أمماً واشتغالها في البنآء وتخطيط البلاد ، ثم ارتقآئها الى المبادلات في التجارات ، فمن ذلك التأريخ في سير المجتمع الانساني يجب تقدير التحسين الذي هبت رياحهُ على الصناعات عموماً ، والفنون البديعة بالخصوص ، رغبةً في نفاق البضائع والربح ، ثم اعقب تلك الرغبة الميل الغريزي والارشاد العملي الى الاحسن ، ثم توالى التحسين والتفنن وتتابع تزاحمُ الامم ورآء الكسب والفخار والتنافس واختيار البيئة ولها تأثير شديد في سجايا البشر ومصنوعاتهم كما تعلم ، ولعل صناعات التصوير والنحت والحفر والنقش لم تكن لتبلغ هذا المقام المنيف عند الامة اليونانية القديمة ، لولا تلك الجبال المرمرية البديعة التي تكتنف بلادها وذلك الهوآء الصافي والنور المتلألئ ، اذ لم يكن

فيما يعتقدون، وعلى الجملة فان هذا الاعتياد يغرس في نفوسهم الشغف بالفنون البديعة فترقى اذواقهم وتتهذب اخلاقهم وتتسع معارفهم.

ولربَّ معترض يقول ان كانت الفنون البديعة هي صنع الانسان ووضعه - وهي لاشك كذلك - فكيف يؤثر المصنوع في الصانع والموضوع في الواضع؟ وكيف يمتدّ تأثير مصنوعه الى اخلاقهِ واهوآئهِ وعلومه؟ وكيف يحبب اليه الفضيلة وهي نتيجة طباعهِ وتربيته؟ وكيف يولد فيه الشغف بكل ما هو حسن وهو مطبوع عليه وذلك مما شاهدناه في شعره وسائر صناعاته الجميلة، وبالاجمال ان الفنون البديعة هي وليدة هذا المخلوق العاقل وما علمنا ولداً يربّي والده.

فالجواب ان كل ما ورد في هذا الاعتراض حقيقة لاريب فيها الا اغفال امرٍ واحدٍ، ذلك ان كل هذه الفنون البديعة بل المصنوعات الجميلة التي شرحنا اجمالاً تأثيرها في البشر على العموم وفي المتفننين على الخصوص، لم تظهر كلها في بقعةٍ واحدة من الارض، ولا في عصر واحد، ولا خُصَّت بها او ببعضها أمةٌ واحدة، ولانشأت ثم بلغت كمالها في قرن واحد او قرنين، ولكنها ذات تأريخ بعيد متغلغل في ظلمات القرون وعمرٍ مجهول اوله،

والالفاظ العفيفة ، ويحبب اليهم الجمال على اختلاف انواعه ومعانيه، في العاقل وغير العاقل، وفي ما لا روح لهُ من المنظورات، بل ان هذا التأثير يشمل كلَّ من تعاطى مادةً من مواده بل يشمل الامة كلها .

ورد في الامثال السائرة انَّ مَن احب شيئاً اكثر من ذكره ، وكلما كثرت الفنون البديعة عند امةٍ ، كان ذلك عنوان حضارتها ومجدها ، وترقيها في سلم المعارف البشرية ، وحيازتها اشرف خلال الانسانية ، اذ الاعتياد على المحاسن اياً كانت من منظور او مسموع ، كأن يكون على التصاوير او التماثيل الانيقة ، او بليغ الاشعار ، او الموسيقى السامية ، او الخطب الراقية في الفصاحة ، او الهياكل العجيبة والقصور الجميلة الرفيعة وامثال ذلك ، من شأنهِ تهذيب الاخلاق وانماء شعور الفضائل وتمرين الطباع على حب الجمال وتلطيف الذوق ، فالمحاسن تتطلب المحاسن ، بل ان هذا الاعتياد مما يلقي دروساً اولية على الاولاد ويطبع في نفوسهم الفتيّة حب الوطن اذ يرون كل تلك البدائع في دور التحف ويسمعون الطف الاصوات الموسيقية وافصح الخطب والاشعار في ساحات المدينة ونواديها وقصورها العامة فيعتقدون ارسخ الاعتقاد ان هذه كلها ملكاً مشاعاً لهم يتمتعون بها في كل حين ، وهم على صواب

والنجمَ غارَ على جوادٍ ادهمٍ والليلَ اقبلَ فوقَ صهوةِ اشقرِ

فكثيراً ما رأى قدومَ الفجر وهربَ الليل ورأى طراد الفرسان والخيول السود والشقر ومثلهُ مصور الفجر فقد رأى ذلك كله اذ هو شائع في اكثر اطراف الارض ، فنتج من وحدة المنظورات التي عايناها ، أنْ توارد الخاطران فهذا رسَم وهذا نظم ، ولا تناقض البتة في ما ذكرناه .

وتوارد الخواطر كثير في البشر كما هو معلوم على اختلاف اجناسهم ولغاتهم ، ونحن نورد شاهداً واحداً والشواهد على ذلك كثيرة قال الشاعر العربي

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويومٌ نُسَآءُ ويومٌ نُسَرّْ

وقال الشاعر الفرنسوي

Un jour de fête un jour de deuil
La vie est faite en un coup d'œil

ألا يُرى ان كل واحد من هذين الشاعرين يكاد يقول لقرينهِ انك سرقت شعري وترجمته الى لغتك ، والسرّ في ذلك ان المعنى الذي نظماهُ هو حالة تتجدد كل يوم على جميع النوع الانساني في سائر اطراف الارض .

وتأثير الفنون البديعة في الاخلاق لا يولد عند المتفننين فقط التخيلات البديعة والمعاني السامية ، ويجمّلهم بالشمائل اللطيفة

معتوقاً عاش ومات في البصرة. وكويدو من اهل بولونيا في ايطاليا وهي مدينة مشهورة بمدرستها مدرسة التصوير، ولا نظنه تغرب عنها الا الى روما، والصورة المذكورة من صنعهِ لم تفارق قبة القصر المذكور فلا ريب في ان معتوقاً الموسوي لم تقع عيناه على صورة الفجر. وبين البصرة وبولونيا لذلك العهد ستة اشهر بين برٍّ وبحر، بل لعل شاعرنا لم يسمع بخبر الصورة ولا باسم صاحبها، على ان الناظر اليها ان كان ممن وقف على بيت شاعرنا، يكاد يحتم بان المصور اقتبس موضوعهُ من بيت الشاعر او أنّ الشاعر نظم ما قال بعد معاينته الصورة، ولكن متى علم ما بين هذين المتفننين من الفروق الجنسية والدينية والاخلاقية والبعد الشاسع بين المدينتين كما تقدم، تزيد دهشتهُ ويعترض على ما تقدم بيانهُ من قولنا أنّى يتأتى لمن لم يعاين تلك البدائع، ان يأتي بهذه الروائع؟

والجواب ان تصوير المصنوعات البديعة لفظاً اي نظماً او وصفها او تصويرها اي رسم هيئتها ومختلف اشكالها لا يمكن ان يخطر في قريحة المتفنن مهما أُلهِمَ ما لم يشهدها او يعاين ما يشبهها، او يقرأ لها وصفاً، فان قائل «حقاقٌ منَ العاجِ» لو لم يكن قد شاهد العاج والعنبر والمرمر لما امكنه ان يأتي بهذا التشبيه كما تقدم، واما قائل

ومن هذا وامثالهِ نعلم تأثير الصناعات الجميلة في الاخلاق ، اذ من اينَ يأتي لمن لم يعاين تلك البدائع ، ان يأتي بامثال هذه الروائع ؟

واليك مثالاً آخر

لما رأتْ ليلَ البنفسجِ قد ذوى
من ليلنا وزهتْ رياضُ العصفرِ
والنجمَ غارَ علی جوادٍ ادهمٍ
والفجرَ اقبلَ فوقَ صهوةِ اشقرِ

هذانِ البيتانِ من قصيدة للشاعر المرقص المطرب امير شعرآء التشبيه غير مدافَعٍ معتوق بن شهاب الموسوي المشهور « بابن معتوق » والبيت الثاني منهما هو المقصود باستشهادنا هذا ، ولعل كثيرين من مطالعي كتابنا هذا يتذكرون عند سماعهم هذا البيت صورة الفجر L'aurore المشهورة وهي من صُوَرِ قصر روْسپيجْليري في روما للنابغة المشهور المصوّر كُويُدوْ رِيْنّي ، ولها نسخ عديدة في پاريز ولندن وغيرهما من كبيرات المدن في اوروپا واميريكا ، وشاعرنا معتوق وكويدو ريني كلاهما من اهل القرن السادس عشر وقد توفي كويدو قبل معتوق بثلاث وثلاثين سنةً ، وكان غيرَ غريبٍ ان يُدركه لو عرفه ، لان معتوقاً توفي في الثانية والستين من سنيهِ ، فكان عمره حين وفاة ريني تسعاً وعشرين سنة ، ولكنّ

ملقمات أطفالهنّ ثُديّاً ناهدات كأحسن الرمانِ

وقال العباس بن الاحنف

وانا امرؤٌ حلوُ الشمائل همتي في قطف رمان الثديّ النُهَّدِ

وقال كثيرون مثلهما وكلهم درجوا على هذا التقليد ، مع ان الشبه غير سديد ، وكأنهم لم تقع ابصارهم على مشبه الطف او اقرب الى المشبَّه من الرمان وهو من صنع الطبيعة كما هو معلوم حتى جاء احدهم ولم تعِ الذاكرة اسمهُ فقال

حقاقٌ منَ العاجِ قد عُلّقتْ على مثلِ صحن منَ المرمرِ
خشينَ السقوطَ فسمَّرنَها مساميرَ صيغت منَ العنبرِ

فاذا نظرنا في جمال هذا التشبيه وبراعة هذا اللفظ وفخامته مع كمال رقته حتمنا ان القائل ممن عاين التماثيل من العاج ، وشاهد صحون المرمر في الحياض يترقرق عليها الماء الثجّاج ، ودار في القصور ، ورأى ما وراء الستور ، ونظر الندّ يحرق في الشموع ، والعنبر من المباخر الذهبية يضوع ، بل شاهد مخجلات البدور ، عاريات الصدور ، يتهادين باثوابهنّ النواعم ، في استقبال الربيع الباسم ، نعم ابصر ولا شك كل ذلك فجادت قريحته بقوله

حِقاقٌ منَ العاجِ قد عُلّقتْ على مثلِ صحنٍ منَ المرمرِ
خشينَ السقوطَ فسمَّرنَها مساميرَ صيغتْ منَ العنبرِ

يتجلى له من غرائب المعاني والمجازات التي تعرض لنوابغ الشعرآء عند الامم المختلفة ، اذ ان تقريب المسافات في البر والبحار ، وانتشار المطبوعات هذا الانتشار العظيم واقبال الناس على تعلم مختلف اللغات ، وكثرة تنقل الناس وتسهيل اسباب الاسفار ، ومخالطة الامم ولاسيما الشرقي بالغربي الى اشياء لا يحصيها الكاتب ، كل ذلك فسح لقريحة المتفنن ميداناً تتزاحم فيه سوابق التخيلات وغرائب المعاني ، وتتعدد فيه صور الموضوعات ، وتتلوّن اشكال الموصوفات ، ولطافة التراكيب ، وسهولة التعبير عما في الضمير ، واصطياد اسهل الالفاظ مفهوماً ، واكثرها وضوحاً ، وابعدها عن الوحشيّ والغريب والمنفور منه ، وتعمد موَجز اللفظ وبارعه وبليغه ، كما اشرنا الى ذلك في كتاب آخر ، وبهذه كلها تتأثر اخلاقه فيظهرُ لنا ذلك التأثير في شعره وتصويره ونقشه ونحته وهندسته وتلحينه واصوات موسيقاه وطرق خطابته ، ولا سبيل لبسط الشواهد الكثيرة على ذلك في هذه العجالة ولكن ما لا يمكن كله لا يُهمل كله واليك امثلة من ذلك .

ظل شعرآء العرب دهراً طويلاً يشبّهون النهود بالرمان ، قال ابن الروميّ يصف قياناً مغنيات ينقرن على اعوادهن

مُطفلاتٍ وما حملنَ جنيناً مرضعاتٍ ولسنَ ذات لبانِ

قريحتهُ من المعاني اللطيفة والخواطر السامية فيصورها بابدع لونٍ من اسلوبه واجمل تركيب ، حتى يبدو المنظوم من صناعة قلمه في نسقٍ من الدقة والبراعة ، تريك المعاني ارواحاً ناطقةً بافصح بيان ، في اجسامٍ من الالفاظ تكادُ تُلَمس بالبنان ، وقد لبست من روائع التعبير حللاً هي احسان الاحسان ، واعربت عن بلاغةٍ تسكنُ اليها الاذان ، سُكنى نفوس الذائقين الى اطرب الالحان ، وذلك بتأثر اخلاقه مما وقع تحت انظاره من التصاوير الجميلة والتماثيل البديعة وهندسة الهياكل الانيقة والقصور الرفيعة ومما توالى على سمعهِ من اشعار البلغآء وخطب الفصحآء وبدائع الالحان ورنات اوتار العيدان والآلات الموسيقية العديدة ومحاكاتها اطرب ما يقع في الاذان من اصوات البلابل والاطيار وتلهفات الشجي ومفاجآت المشتاق وعتاب الاحباب والاخوان الى نَغماتٍ هي منتهى امل الآمِل واقصى يأس المستيئس .

ومما لمس ولبس من ناعم الحرير والكتان ومما تشمم من روائح العطور على اختلاف الانواع وغرائب الابتداع .

ومما ذاق من اطايب الاطعمة ولذائذ الخمور ، ومما يطالع كل يوم من اخبار الأكتشافات والمخترعات ومما يقرأ كل وقت من شتى العلوم والفنون وضروب الفصاحة في المنثور والمنظوم ، ومما

على حيطان المغاور المتغلغلة في ظلمات القرون ، وما وجد من صور معبوداتهم بين منحوت ومعجون ، حجة صريحة وبرهان واضح على بساطة اخلاقهم وطفولة تخيلاتهم الجاهلية او البربرية، ولكن في كل اثرٍ من اثارهم المذكورة شاهدٌ مقطع على تأثير اخلاقهم فيها اذ هي صنع ايديهم وِمرآةُ وحي قرائحهم .

واذ قد تبيّنا تأثير الاخلاق في الصناعات الجميلة فلننظر الان في الوجه الثاني من المرآة .

المِرآة الثانية

تأثير الصناعات الجميلة في الاخلاق

لما كان التدرج سنّةً من سنن الطبيعة في كل شيء ، لم يتجاوز الشاعر في شعرهِ وصف المشهود والمحسوس ، الا بعد ان قطع العمرانُ البشري شوطاً بعيداً من اشواط المدنية ، ويومئذٍ ارتقى الشعر الى المعنويات ، اذ كثرت حول الشاعر الكماليات ، فقام يخلق من ضروبها صوراً يتخيلها فكرهُ مجتمعة بعد ان توالت معاينتهُ لها متفرقة ، ويصورها اشكالاً متفرقة بعد ان عاينها متجمعة ، وراح ينقب عن اسرار النفس الانسانية وعلاقتها بسواها من الموجودات ، وعن عواطف الحس ودواعيها وينظم ما توحيه اليه

كما يشاء الا ان ظروف زمانه ومكانه وكل ما يحيط به من خفض العيش ورفاهيته وجريهِ مع تيار المدنية وانواع زخارفها ونعيمها ، كل ذلك كان له التأثير العظيم في لبهِ وعواطفه والتصرف البالغ في خواطره وتخيلاته ، ومن ذلك تعلم ان الشاعر يخلق الالفاظ او يستلهم لها الحافظة ويستوحي الذاكرة لينظم بذلك صور المشهود والمحسوس ، او ما يجول في خاطره عنهما ، وهو امر لا اختلاف فيه ، فشعراء الجاهلية في كل امة ـ واريد بلفظ الجاهلية حال طفولية الامة ومبدأ امرها قبل ان تؤلف الاوزان والقواعد الشعرية ـ لا تتعدى تشبيهاتهم ما يقع تحت ابصارهم ، ولم يكن لديهم يومئذٍ شيء من المحاسن الصناعية ، فكانت مقصورة على المنظورات الطبيعية من السماء واقمارها والازهار والانهارِ ، ونسمات الاسحار ونغمات الاطيار ونفور الغزلان ، وتمايل الاغصان وخرير الماء وزمجرة الاسود وقصف الرعود ولمع البروق ، والغروب والشروق وعصف الرياح وتلاطم الامواج الى كثير من امثالها بل قد يتجاوزون ذلك عند التنطس في التشبيه كقوله

فقلتُ لهُ لما تمطّى بصُلبِهِ   واردفَ أعجازاً وناءَ بكلكلِ

وهو في نهاية السخف والدلالة على خشونة القائل كما ترى ،

وكلُّ ما في شعرهم واغانيهم ، وطبولهم ومزاميرهم وتصاويرهم

القائل في المقول ، وبعبارةٍ اخرى اثر نفسه اي اخلاقه ، فانه لما كان على الفطرة البدوية من العيش والتفكر ، لم تتجاوز صناعته حكاية ما حوله وما يشعر به بخشونة الفطرة وبساطتها فقال

رمتني امُّ عيّاشِ بسهمٍ غيرِ طَيّاشِ

او صغيرانِ نرعى البُهمَ ياليت أنّنا الى اليومِ لم نكبر ولم تكبرِ البُهْمُ

فلم يكن يتمنى شيئاً كتمنّيهِ العود الى رعي البهم مع تلك الرفيقة الراعية الصغيرة ، ولما هجر العيش البدوي بدأ يتعرض للنسآء الحسان في الطرق ويشبّب بهنّ ويوسط من يأتيهِ باخبارهنَّ ويوصل رسائله وشعره اليهنَّ ويصف ركوبهنَّ الهوادج والبغال ، ورأيناهُ قد خلع ردآء السذاجة الفطرية والخشونة البدوية وبدا لنا في اخلاقه واحواله تأثير حالات عصره ، وهي الحضارة ورغد العيش والتأنق في الملبس والمأكل والتلطف في الرسائل والوسائل من الطيب والغنآء والاوتار والكأس والرقص الى غير ذلك من اسباب الرفاهة والتنعم .

وعلى الجملة فقد رأينا من ما تقدم ان الصانع وهو الشاعر ، كان يرتقي في شعرهِ من طورٍ الى طور تباعاً لما يكتنفهُ من شؤون عصره وطرق العيش في قطره ، فهو وان كان له التصرف في شعرهِ

ونسآءٌ قد لَبِسَتْ أثوا   بَ رجالٍ والتبسَ الامرُ
وشيوخٌ تلعبُ كالولدا   نِ وليسَ على احَدٍ نكرُ
وزجاجاتٌ واباريقٌ   لعِبَتْ بِمُعاطيها الخمرُ
ونهارَ العيدِ بليلتهِ   وصلوهُ فلم يحدُثْ هجرُ
ما بينَ اللهوِ تقضى الليـ   لُ على عجَلٍ وبدا الفجرُ
فأيادٍ في ايدٍ عقِدَتْ   واياد يعقدُها الشَعْرُ
وخصورٌ تحسَبُها وهماً   ولحاظٌ عاهدها السحْرُ
كم جيدٍ افتنَ ذا لُبٍّ   كم غصنٍ يعلوهُ بَدْرْ
رقصوا كغصونٍ قد لعبتْ   بحواشيها نَسَمٌ عطرُ
كم خصرٍ طوّقَهُ زَندٌ   كم جيدٍ قبّلَهُ ثغرُ
كم قلبٍ يخفقُ في صدرٍ   كم عاجٍ يحملُهُ خصرُ
صاحوا والصبح يفرِقُهُمْ   وعهودُ الحبِّ لها نَشْرُ
يا عيداً تفديهِ الاعيا   دُ ويحسدُ بهجتَهُ الدهرُ
عُدْ والزَمْ عاصمةَ الدنيا   فسواها من الجسمِ الظَهْرُ
كُلُّ الامصارِ لها عَتَبٌ   باريسُ من الدنيا الصدرُ

فاذا نظرنا نظر ناقدٍ بصير في كل ما مرَّ بنا نرى اثرَ صناعة

ملكَاتُ الحسنِ علتْ فيها   سُرُراً لم تشهدْها مِصرُ
جرّتْها خيلٌ مُسرَجَةٌ   بِسُروجٍ طرّزَها التبرُ
سارتْ والموكبُ يقدمها   لا يحجبُ حسناءَ سِترُ
وبنودٌ تخفقُ حولها   والندُّ تضوّعَ والعطرُ
وطبولٌ ثم مزاميرٌ   صدحت فتجاوبها القُمْرُ
لِلّهِ بدائعُ باريسٍ   وعجائب ليس لها حَصرُ
من قصرٍ يحملهُ فيلٌ   او عرشٍ يحملهُ نَسرُ
او فُلْكٍ سارَ على بكرٍ   تَعلوهُ حسناءٌ بِكرُ
او حصنٍ جرّتْهُ خيلٌ   قادتها عذراءٌ غِرٌّ
او من عرشٍ فيهِ صَنَمٌ   فيهِ روحٌ فيهِ سِرٌّ
وجرى هِرَمٌ يختالُ فتَحـ   ـسَبُ في باريسَ بدَتْ مِصْرُ
وهُنا طاووسٌ من نورٍ   وهُنا مِن نورٍ صَقْرُ
ومصابيحٌ وقناديلٌ   حُمرٌ زُرقٌ صُفرٌ خضْرُ
واهازيجٌ واناشيدٌ   وعساكرُ يحدوها النصرُ
وغرائبُ ليسَ لها وصفٌ   في الكتبِ وليسَ لها حَصْرُ
والناسُ منَ الحيطانِ وفي الـ   ـطيقانِ تصيحُ لنا البِشْرُ

قال كاتب هذه السطور في يوم مهرجان الجمال في باريس ، وهو يحسب نفسه في فردوس الفراديس :

عيدُ القوم   في نصف الصوم

يا يوماً اطلعَهُ الدهرُ   كُلُّ الايامِ لهُ مَهْرُ
باريسُ جَلَتْ بخلائقِها   وشوارِعُها موجٌ بحرُ
يا نِصفَ الصومِ وعيدَ القو   مِ أَبَعدَكَ عيدٌ او فِطرُ
باريسُ سَمَتْ بمعانيها   وغوانيها سُكرٌ سِحرُ
فَهُنا قَدٌّ يحكي غُصُناً   وهُنا وجهٌ بل ذا بَدْرُ
وهُنا قَفزٌ وهُنا لذٌّ   وهُنا بوسٌ وهُنا هَصْرُ
وهُنا روضٌ وهنا نهرٌ   وهنا حوضٌ وهنا جسرُ
ونجومٌ تُذرى فوق الخـ   ـلقِ لها نظمٌ ولها نَثْرُ
وَرَقٌ يحكي الوانَ النو   رِ فلا يُخشى منهُ ضَرٌّ
فوجوهٌ منهُ تحمرٌّ   ووجوهٌ منهُ تَصفرٌّ
قد بِتنا منهُ باثوابٍ   لم يُنْدِغها يوماً فِكرُ
عيدٌ للحسنِ تُعيّدُهُ   باريسُ فَمَن لا يفترُّ
وشوارعُها سالتْ بالنا   سِ كبحرٍ يدفعُهُ بحرُ

فلم استطعها غيرَ أنْ قد بدا لنا عشيّةَ راحت وجهُها والمعاصمُ

ولما ارتقى في سلّم المدنية ، وابتسمت له ثغور الحرية ، ورقّت حواشي العيش ، وشفعت محاسن الشباب في الخفة والطيش ، وألِفَ مجالس الانس ، واختلاط الجنس بالجنس ، قال شاعر عصره ذو الوزارتين ابن زيدون يخاطب ولادة بنت المهدي

لَيَسقِ عهدَكُمُ عهدُ السرورِ فما كنتم لارواحِنا الاّ رياحينا
ياساريَ البرقِ غادِ القصرَ فاسقِ بهِ مَن كانَ صرفَ الهوى والودَّ يسقينا
ويانسيمَ الصبا بلّغْ تحيّتنا مَن لو على البعدِ حيّا كانَ يُحيينا
ويانعيماً خضرنا من غضارتهِ في وشيِ نعمى سحبنا ذيلَهُ حينا
نأسى عليكِ اذا حُثّتْ مُشعشعةً فينا الشَمولُ وغنّانا مغنّينا
لا اكؤسُ الراحِ تُبدي من شمائلنا سيما ارتياحٍ ولا الاوتارُ تُلهينا
لسنا نُسمّيكِ اجلالاً وتكرمةً وقدرُكِ المعتلي عن ذاكَ يُغنينا

واينَ نحن من ام عياش ؟

ثم لما بلغ اعلى درجة من حضارة القرن العشرين ، ولبست له الدنيا زخرفها حيناً وتعرّت حيناً عن ابدع تكوين ، وعاين ما لم تقع عينُ شاعرٍ على مثلهِ قبل اليوم من مصنوع ومطبوع ، وذاق من معاني العيش ما لم تحلم بمثلهِ قريحةٌ بشرية وانما هو نِتاج المجموع ،

ففي بساطة المطلوب والتركيب والتشبيه ما يدل على الصانع اي الناظم ومكانهِ من المجتمع الانساني .

وهذا مثلهُ ايضاً

قرّبا مربطَ النعامةِ مني لا تُباعُ الرجالُ بيعَ النعالِ

النعامةُ اسم فرسه وهو يتحمس لاخذ الثأر وكشف العار ويؤجج نار العداوة والحقد في قلوب قبيلته ، وكلامه يدلنا على ما لحقهم من الهوان ،

ولما هجر هذا الانسان القفار والفلوات وذاق طعم الحضارة ونعيمها ، وتبدلت به الحال من امتطآء الجمال ، الى ركوب الخيل والبغال ، واضطجاع ذوات الغنى في الهوادج والمقاصير ، بعد تعرضهن على متون الاباعر لمشاق السفر ولفحات الهجير ، راح الشابّ المدلّ بجمالهِ وماله ، يتعرض لهنّ في الطرق مغنياً مشبباً ، ويراسلهنّ باشعارهِ متحبباً ، كشاعر وقته عمر بن ابي ربيعة ويقول

نظرتُ اليها بالمحصّبِ من منىً ولي نظرٌ لولا التحرّجُ عارمُ
فقلتُ أشمسٌ ام مصابيح بيعةٍ بدا لكَ خلفَ السترِ أم انتَ حالِمُ
بعيدةُ مهوى القرطِ إمّا لنوفلٍ ابوها وإمّا عبد شمسٍ وهاشمُ
ومدّ عليها السجفَ يومَ لقيتُها على عَجَلٍ تُبّاعُها والخوادمُ

لانها ثمار علوم الامة التي صنعتهـا ، ونِتاجُ اذواقها ، وقُصارى اجتهادها ، وعُصارةُ عقولها ، بل هي معرض الفنون البديعة التي لم تزل تتمخّض بها نوابغ العقول منذ اقدم عصر للعمران الانساني .

ولعل الشعر هو اول تلك الفنون ، لانه من الفنون الفطرية كالصوت الحسن ، وليس هو من الصناعات التحصيلية ، ولذلك نرى ان نتخذه شاهداً اولياً على تأثير الاخلاق في الصناعات الجميلة تقريباً لمسافة البحث وقد نلمّ بغيرهِ من الفنون البديعة .

ولما كان الغرام اول باعثٍ على نظم الشعر عند ذوي القرائح سمعنا الشاعر يقول

رمتني امُّ عيّاشِ   بسهمٍ غيرِ طيّاشِ

هذا بدويٌّ يرعى الماعز مرّت به حسناء من نسآء الحي لها طفل اسمهُ عياش ، فرمته بنظرةٍ وما ادراك ما هيَه ، فتنفّس الصُعدآء وقال   رمتي امُّ عيّاشِ   بسهمٍ غيرِ طَيَّاشِ

فشبَّه فعل نظرتها في فؤاده بسهمٍ لا يطيش ، وهو اعلم الخلق بفعل السهام لملابستهِ لها بدوامهِ حراسة الماعز ، لم يرَ الا المآء والسماء والقوس والسهام والقفر والبدر ، والبيت من الشعر ومثله قول الآخر

صغيرانِ نرعى البُهمَ ياليت أنّنا   الى اليوم لم نكبر ولم تكبرِ البُهْمُ

معرفة اخلاق امةٍ من الامم ، كان لا بدَّ له من قانون ينتحيهِ او مِرآةٍ يجتليها لترتسم له في احدهما صورة اخلاق تلك الامة .

ولعل نقد مصنوعات الامم هو اجلى مِرآة لنفوسها . ومرادنا بالمصنوعات ، لا تلك الآلات البسيطة التي احتاجت اليها جميع الامم في سائر حالاتها الاولية فصنعتها من الصوّان والعظام والخشب والحديد وغيره من المعادن ، بل المصنوعات التي اطلق عليها الانسان المتمدن اسم المصنوعات الجميلة او المصنوعات النفيسة وهي وليدات الفنون البديعة ، فالتبصر في هذه المصنوعأت يبرز لنا صورةً هي مِرآة ما بلغته تلك الامة من الحذق والذوق والعلم والحضارة ، بل هي اثر اخلاقها ، وكما ان في صنعها ومبلغهِ من البراعة دلالة على اخلاقها ، فكثرة الموجود منها في تلك الامة ومراتب اتقانها ، تؤثر في تربية نفوسها فتنبعث عنها اخلاقها .

على اننا لا نروم بهذا البحث ان نأتي على تفصيل ما يكشفهُ الاشتغال به من اسرار المحاسن المتعددة التي تتفرع عن هذا العلم ، فذلك مما يستدعي تحقيقاً وافراً وتدقيقاً بعيد الغور ووقتاً لا نطمع في الحصول عليه ، وعلى الجملة علماً وهمةً فوق هذا العلم القاصر والهمة الضعيفة ، ولكننا نجتهد ان نصور في هذه العجالة رسماً ضئيلاً لما يجول في الخاطر من اثر النفوس في المصنوعات الجميلة ،

المرآة الاولى

تأثير الاخلاق في الصناعات الجميلة

لا ريب في ان كثيراً من اقوال الانسان وافعاله هي مِرآة تتجلى فيها عواطف نفسه في يد المراقب العاقل، وكلامنا هنا عن الخاصة من البشر، اي عقلاء الناس واذكيآئهم، وفيهم كثير من خبثآء النفوس والاشرار، لان الفطنة والذكآء لا يكفيان في تربية النفوس وتغذيتها بالاخلاق الفاضلة كما هو معلوم.

اما قولنا كثيراً من اقوال الانسان وافعاله، لانه في احوال كثيرة ايضاً لا يكون ذلك منه عن تروٍ كاملٍ وعمدِ نيةٍ، واما عامة البشر فهم عكس ما ذكرنا، اذ انهم يقولون ما يقولونه عن بُداهةٍ وسذاجةٍ، وافعالهم وحركاتهم خاضعة في سائر احوالهم لبساطة عقولهم وقناعتهم بالقليل وتقارب اغراضهم، وعلى الجملة لعاداتهم وحالاتهم الطبيعية.

الا ان هذه المِرآة قاصرة على مراقبة افراد من الناس كما ذكرنا، فاذا طمع الناقد في الوصول الى ما هو ابعد من ذلك، كأن يروم

تمهيد

لما بلغنا آخر ما اردنا بسطهُ في هذا الجزء الثالث ، رأينا ان نضم اليه شيئاً من كتابنا مِرآة النفوس لما فيه من العلاقة الشديدة بالنقد الادبي فذيلناه به راجين به للمطالعين بعض الفائدة و الفكاهة .

قسطاكي الحمصي

فهرست مرآة النفوس

كتاب

مرآة النفوس

تأليف

قسطاكي الحمصي

الحلبي

عفي عنه

باساطير اليونان ، وهوميروس وفيرجيل وصلاح الدين الايوبي وافلاطون في اجتماع ، واحاديث الصبابة والغرام ، وما يعانيهِ داتتي من الشوق والهيام ، مع الغبطة الالهية اي الله ذاته ... وليس في كل ذلك ، اي فيما يعرّض به من العلوم ، رأيٌ لراويها او اعتراض او بيان او شرح فكانها صورة كتابٍ ميت لا صوت لسانٍ حي .

هذا ما وصل اليه بحثنا وتمحيصنا ونرجو ان نكون اصبنا فيه شاكلة الصواب وامطنا به منيع النقاب ، عن مخدّراتٍ نزلت عليها آية الحجاب ، وتوارت ورآء مغلغات الاحقاب .

ولا تقيم للحنان والاعتذار وزناً ، او هوَ سواد انسان لكنَّهُ قُدَّ من حجر ، ومع انه كان زوجاً وابا فلم نسمع منه حرفاً باسم زوجته او اولاده ، بل لم نسمع منه شكوى فراق ، او صوت اشتياق ، او عبارةً تُشعر بانه فكّر بهم ولو كلمحة البصر ، ونرى حب المجد والأَثرة ظاهراً في كثير من اسطرها الى الغاية القصوى .

اما اخلاقهُ فكلها عبوسٌ وكآبة ، وحقدٌ وشراسة ، وحبُ انتقام وقصر نظرٍ لا يعرف من الحلم ورحابة الصدر الا اسميها ، وعنده ان كل مخلوق عاقل على وجه الارض منذ وجدت حتى آخر الدهر ، يجب ان يُزَجَّ في نيران جهنمهِ السود ، او انه محكومَ بها عليه ان لم يؤمن بكل ما آمن هو به ، لا عفوَ ، ولا سماحَ ، ولا شفاعة ، ولا رحمة ، ولا غفران ؛ وانت ترى ما بين دانتى وبين المعرّي من البون الشاسع في التعقل والاخلاق ، وانّ رسالة الغفران التي تنطوي على اقصى مزايا التسامح والرأفة والحلم ، باتت بتحويلها عن موضوعها السامي في فم دانتى ، رسالة لعناتٍ وانتقام وكأنَّ شاعرنا العربي نظر اليهما فقال

تقول هذا مجاج النحل تمدحهُ وان تذمَّ تقل قيءَ الزنابيرِ

وترينا مِرآة دانتى هذه صفحات كثيرة من علوم عصره وحوادثه مخلوطةً خلطاً عجيباً ، فلاهوت القديس اغوسطينوس

حاسباً انه القوة التي بها يغلب الاعدآء ويستردّ المسلوب، ويستعيد المجد الذاهب والملك المغصوب، او انه يغني عن كل ذلك، وهذا ما اصاب غيرَ امةٍ كالعبرانيين والبيزنطيين في آخر دوَلهم.

فلا بدعَ والامرُ على ما ذكرنا ان يكون الرأيُ العمي لعهد ابي العلاء محصوراً في الزهد والتقشف والصلاة والحجاب والنهي عن الخمر واللهو وسائر اللذات، وان يجرف تيار هذا الرأي حصافة فيلسوفنا فتناقض نصائحهُ صريح مذهبه وتختلف نتيجته عن مقدمته في بعض اقواله.

وفي الختام فلننظر في مِرآة داتى وهي الالعوبة الالهية، اما من حيث العقل واصابة الرأي، فيصعب جداً على الناقد المنصف ان يرى لهما في هذه المِرآة شكلاً او خيالاً، فالخلط فيها اضاع الاصابة وغشّى على العقل بستر كثيف، حتى ظهر فيها رجلَ اوهامٍ وخرافات كانَ حفظَ في صغرهِ شتى كتب التأريخ والعلوم، ثم اصيب في كبره بحمى شديدة غادرته يردّد في هذَيانه اكثر ما حفظه متداخلاً بعضهُ في بعض حتى جاء بهذا الخلط العجيب، فنحن لا نرى عن رأينا تبديلاً فيما بدا لنا من وسواسه.

اما اهوآؤهُ وعواطفه فقد بدت لنا غريبةً عن مواطن اللطف، بعيدةً عن معادن العفو والشفقة، لا تعرف للتسامح معنىً

تعبٌ كُلُّها الحياةُ فما أعْـ جَبُ إِلاّ من راغبٍ في ازديادِ

وانَّ كلّ حيٍّ مصيرهُ كمصير النبات ، فما ضرهم - ان كان الامر كما يزعم - انتهاب هذه اللذات ، والتمتع بما اباحته لهم الطبيعة من المسرات ؟ وما الذي يجب ان يتوقاهُ اذا هو لم يعتدِ على احدٍ من المخلوقات ؟

ان في نواهي ابي العلاء وتشدّدهِ برهاناً بدا لنا من عهد غير بعيد وحلّ لغزاً طالما امتنع علينا حلّهُ ، وذلك ما اوردناه في باب التيّار الجارف من جرف الرأي العُمّي كل ما امامهُ ، واستدراج اعقل الناس اليه من حيث لا يشعر حتى ليضيّع الحازم حزمه ، والبصير رشده ، وتختلف نتيجة المنطقي عن مقدمته ، وهو التناقض الذي اشرنا اليه .

ولا بأس من بسط ما بدا لنا في ذلك ، وهو ان عصر ابي العلاء كان عصر تشدّد في الدين لما انتاب الدولة العباسية العظيمة من خسارتها كل ما كان بيدها من الملك ، الا اسم الخلافة والدين ، وانت تعلم ان المرء حريص على ما بيده من ملكٍ او جاهٍ او سلطان او مال ، حتى اذا ما فقد شيئاً منها تمسّك بسواه ، واذا اصيب بفقدان جميعها نظر الى ما حوله وفتش عما يستطيع امتلاكه والتباهي بهِ ، ولو كان ذلك الملك شيئاً معنوياً كالدين ، فيقبض عليه بكلتا يديه ،

وكنا كما قلنا في حيرةٍ من امرِ ابي العلاء، لما نراهُ من التناقض بين مذهبه ومقاله فهو شديد على النسآء في الحجاب ووجوب الاستقرار بالبيوت، مع علمهِ بانهنَّ في طبيعتهنَّ الانسانية لا يختلفن عن الرجال بل عن سائر الحيوان من النزاع الى الشمس والهوآء والاستمتاع بكل ما في الكون مما تجيش اليه النفس، وتستلذّهُ الحواس الخمس.

وهو شديد عليهنَّ في ترك التبرّج، مع انه يُحسَب عند علمآء الطبائع من غرائز الانثى حتى في بعض الحيوان، ومع انه لم يرَ امرأة قط - سوى امهِ في طفوليته - ولم يتزوج ولم يَمسّ انثى لقولهِ وهو القائل الصادق

هـذا جناهُ ابي عليَّ وما جنيتُ على احدْ

وهو شديد على شاربي الخمر مع معرفته انها قديمة جداً في الارض وان البشر احبوها في كل عصر بل عبدها كثير من الناس كاليونان والفينيقيين وغيرهم ولم يحرمها دين من الاديان سوى دين الاسلام وفيلسوفنا كما علمت ليس من الاسلام في شيء.

وهو شديد على اهل اللهو وسائر اللذات الجسدية، يأمرهم بقهر الجسد ومحاربة اهوآء الجسم الطبيعية، ويتهددهم بقصر العمر، وينذرهم بالفنآء مع انه القائل

ومعلميّ افانين العداوات ، ثم غمزهم غمزةً فالقى الاخطل وبشار بن برد لاعينهم في النار ، والاول نصراني والثاني مسلم كما تعلم ليحكم في ذلك العقلاء وبضدها تتميز الاشياء .

على اننا ما خطر ببالنا مرةً ابو العلاء الا وحرنا في امره ، ذلك انه على ما اوضحناه اول هذه الموازنة كان من الفلاسفة الزنادقة الذين يهزأون بمذهب البعث ، الا انه ملأَ شعرهُ مواعظ بالزهد في الدنيا والبعد عن مسراتها واجتناب سائر لذاتها حتى الخمر والنساء ونادى بقصر العمر وما يعقبه من الفنآء ، وهذا كله عين ما يقول به اهل الاديان كقوله وهو اقصى ما يقوله المتقشفون منهم

ضحكنا وكانَ الضحكُ منّا سفاهةً ... وحُقَّ لسكّانِ البسيطة ان يبكوا
يحطِّمُنا ريبُ الزمانِ كأنّنا ... زُجاجٌ ولكن لا يُعادُ لهُ سبكُ

وكقوله

رُويدَكَ قد غُررتَ وانت غرٌّ ... بصاحبِ حيلةٍ يعظُ النسآءَ
يُحرِّمُ فيكمُ الصهبآءَ صبحاً ... ويشربُها على عمدٍ مسآءَ
يقولُ لكم غدوتُ بلا كِسآءٍ ... وفي لَذَّاتها رهنَ الكسآءَ
اذا فعل الفتى ما عنهُ ينهى ... فمن جهتينِ لا جهةٍ اسآءَ

وغير ذلك من امثاله كثيراً جداً وفي مراجعة لزومياتهِ غنىً عن الافاضة فيه .

في علم الهيئة .

وكقوله « يفترق اهل ذلك المجلس بعد ان اقاموا فيه كعمر الدنيا اضعافاً كثيرة » فهل من وصف لطول ذلك الوقت وسرعة مروره بالمقايسة مع لفظ الابدية ابدع من هذا الوصف ؟

وكقوله « وهل يعرف البشر من علم النظيم الا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الارض » الى غير ذلك من اللطائف والمعارف .

اما ركن رسالة الغفران ، فهو الحلم والتسامح والحنان ، وهي عواطف صاحبها واخلاقه وكلها عقل وفضيلة وفلسفة ، فانه لما القى نظر علمه على ذلك الفردوس الموعود ، فكَّكَ بل سحق بحكمته تلك الاقفال والقيود ، وفتّح ابوابه ، وفسّح رحابه ، ووسّعَ فيه الاماكن لجميع البشر بل للحيوان ايضاً . اما ثواباً لعمل صالح ولو كان طفيفاً ، او للفئة صدقٍ ، فلم يَدَعْ جاحداً مشهوراً الا انزلهُ بذلك النعيم ، ولا وثنياً او مجوسياً الا وسلسل في حلقه ذلك التسنيم ، وسقاهم كلهم ذلك الشراب الطهور القديم ، ومتعهم كلهم بالحور والقصور والشباب المقيم ، ولسان حالهِ يقول ما ضرّ ربَّك ان يُسكِن مخلوقاته كلها هذه الجنات ، وهل تسعكم وحدكم وتضيق عنهم هذه السموات ؟ ياضيقيّ العطَن ، وناشري الإِحَن ،

انتقاد الشعر وكتب الادب وغيره وتقريظها عادة قديمة في الامم نرى حديثها في تواريخ اليونان والرومان ، واما عندنا نحن العرب فيصعد ذلك على ما وصل الينا ، الى حكاية حوليات زُهير والمعلقات ومساجلات ابي نواس وصريع الغواني وابي العتاهية وابن الجهم وبشار بن برد ، ثم الى ما روي عن قول ابي تمام للبحتري عند ما قرأ عليه شعره « نعيتَ اليَّ نفسي يا فتى » ، ومثل ذلك عند الفرنسويين وغيرهم من الاعاجم الى اليوم ، فانه قل ان يوجد بين ادبائهم بل علمائهم من يؤلف كتاباً دون ان يطلع عليه احد اصحابه من العلماء ، واكثر تلك الكتب تُطبع مصدّرة بمقدمة ـ ممن طالع ذلك التأليف ـ في تقريظ الكتاب .

قلنا ولما كان تقريظ رسالة ابن القارح حتماً على ابي العلاء ، صوَّرهُ في شكل حلمٍ كأنه يقول لابن القارح ولمطالعي رسالته ان جزاءَ مَن يلتزم هذه الحدود كما قال صاحبي هو هذا الحلم الذهبي ، ثم لم يشأ ان يجعل هذا التقريظ كله مزاحاً او مداعبة وهو الفيلسوف الزاهد المتقشف رهين المحبسين ، فملأهُ فوائد وتحقيقات شعرية كانت محور اداب القوم في عصره ، مع اشارات وتلميحات علمية كقوله « وبيني وبينهُ مسيرة الوف اعوام للشمس التي عرفت سرعة سيرها في العاجلة » والاشارة بها الى القياس بسرعة النور

وتنظر الى نفسها جماعات جماعات، وتتواثب الى الاتحاد، شأن الامم في اوائل انتباهها، تجمعها لغة واحدة، نظرت الى قديمها في العلوم والاداب فلم تجد لها شاعراً غير دانتى طبع بطابع اللغة الطليانية كثيراً من احداثها، بل جعل تلك اللغة العامية ذات قواعد مكنته من نظم تلك القصيدة الطويلة الشاملة، فكان في عيون الامة الطليانية محيي آثارها، ومؤسس لغتها وركن فخارها، وقد طالعت ما انتابه من الرزايا وما عاناه في سبيل الرجوع الى وطنه، فانصرفت الانظار عن جملة ما في الالعوبة من العيوب، ونظرت الى ناظمها نظر الحليم المسامح بل نظر المحب الى المحبوب، فقالت مع شاعرنا ومن اين للوجه المليح ذنوب.

وآخر القول اذا كان انشاء المرء مرآة عقله، واختيار اللبيب دليل ذوقه، فلا ريب انهما مرآة قلبه وصورة عواطفه ومتجلى اخلاقه وادابه، واذا رمنا ان نستشف من انتقاد رسالة الغفران والالعوبة الالهية مدى عقلي صاحبيهما، وجلية عواطفهما واخلاقهما لكي نفي هذه الموازنة حقها من الانصاف، نرى البون بينهما شاسعاً، فان رجاحة عقل المعري واضحة على كل صفحة من صفحات الرسالة، وذلك انه لما كانت رسالة ابن القارح في تقيّل الشرع والتزام حدوده ليست من معتقده وكان تقريظها حتماً عليه، اذ

ونعود الان الى ذكر الرأي العمّي فهو يجرف الرأي القصري"(١) كما تجرف الامواج عند اشتدادها كل ما امامها ، وقد وقع في التأريخ وغيره من العلوم اغلاطٌ لجماعةٍ من كبار العلمآء ، كان منشاؤها تيار الرأي العمي ، فمنهم من تنبه الى غلطه فاصلحه بعد حين اي بعد السكون ، ومنهم من سُجِّل عليه غلطه اذ عاجلته قبل التنبه عليه المنون ، وتفصيل ما يعرض لامثال هولآء من العقلاء حتى تراهم عند تلاطم التيار ينقادون للرأي العمي بغير انتقاد ، فيضيّع الحازم حزمه والحليم رزانته ، مما تكلم فيه كثير من الفلاسفة ولاسيما فلاسفة علم النفس ، وليس هذا محل الافاضة فيه ، فنقتصر على الاشارة اليه فقط ، للبرهان على ما كان من تهافت كثير من العلمآء والناقدين في رفع دانتى الى المنزلة التي احلّهُ فيها العامة وكان من حتمهم او من حق النقد عليهم ان يكونوا اكثر تثبتاً ، واوفر انتقاداً وتدقيقاً ، واشد اخلاصاً للعلم .

ومن اظهر الاسباب في شيوع الالعوبة الالهية ورفع ناظمها الى العرش الثالث لملوك الشعر عند جميع الامم الفرنجية ، هو موت اللغة اللاتينية وانتشار اللغة العامية بين سائر طبقات الامة الطليانية اذ ان هذه لما بدأت تتنبه من رقادها وتتحرر من قيود الاستبداد

(١) نسبةً الى الخاصة كأنهُ مقصور عليهم .

شفةٍ تبتسم عن رجاء ، وويلٌ يومئذٍ للمتّهمين اذ لا طهور لهم من تلك الاوزار في شرع تلك المحاكم بغير الزيت والنار .

فهل يُعقل ان يُتغنّى في مثل تلك البلاد الشقية بغير هذه الاغاني ؟ ولاسيما ان الحكّام فيها لم يكن يروق لهم سماع سواها ، وهم وعمّالهم المسيطرون يومئذٍ على اعمال الناس وحركاتهم والناشرون فوق الرؤوس سحب التهويل والكآبة والارهاب ، فلا بدع في انتشار الالعوبة انتشاراً يضمن لها الاثر الخالد بين قوم كانوا لا يرون الحياة في هذه الدنيا سوى النوح وقرع الصدور ، لنيل الغفران او النجاة من أئمّةٍ ظَلَمة تناهوا في الفحشآء والشرور .

ومنها ان هوى الجمهور مع المظلوم في كل حين ، او مع من ادّعى المظلمة وان كان هو البادىء ، فهم ينظرون اليه في حال شقآئه وذله ، ويسددون سهام قدحهم نحو خصمه ، وقد مرّ بنا ما نزل بدانتي من البلاء ، فلا بدع ان يكون ذلك من اعظم البواعث على الشفقة عليه ، وعلى بعد شهرته ، وهذا في التأريخ ولاسيما في تأريخ الاداب اشهر من ان نقيم عليه الدليل ، وحسبك ما ذكره اكثر نقاد فيكتور هوغو من ان نفيه بامر الامبراطور ناپوليون الثالث ، كان من اعون الاسباب على زيادة شهرته ، وادّعاء مريديه له بالزعامة الشعرية في عصره ، بل غلوّ بعضهم الى ابعد من ذلك .

ولعل ذلك يرجع الى اسباب منها شدة تعصبهم الديني ، ومنها التيار الجارف تيار العُمّي(١)، وقد مرّ لنا قبل هذا في ترجمة دانتي ما كان من ظهور دُعاة له بعد موته بمدة طويلة وكيف انه كلما بعد زمن وفاته ، كان يزيد الراوون خرافات في اخباره من معجزات الصقوها به وزادت في عدد شيعته ، واكثرهم من العامة الاغمار وهم كثيرون في كل مصر وعصر ولاسيما في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

ومنها ان الالعوبة وهي أغنيات كانت باللغة العامية يومئذ كما علمت ، واين لغة فيرجيل من هولآء وهم لا يفقهون منها لفظاً ؟

ومنها انها تبتدىء في جهنم وفي التفصيل عن سراديبها ومغاورها وسلاليمها وكهوفها ، واعوجاجاتها ودياميسها ، وابالستها وظلماتها ، ونيرانها القائمة المحرقه ، ووحوشها المرعبة الغريبة ، وعذاباتها التي لم تخطر على قلب عاقل ، الى تهويل بالوصف ينزل الهلع والرهبة على اعظم القلوب شجاعةً ، وينشر الغمّ والكآبة على اوضح الوجوه بشراً ، يوم كانت سيوف محاكم التفتيش مجرّدة فوق الاعناق في هاتيك الاقطار ، ورسل تلك المحاكم الظالمة البربرية تجوس خلال تلك الديار ، لاستراق لفظ يشف عن راحة او هناء ، ومباغتة

(١) نسبة الى العامة .

وهو احد افراد الدنيا ذكآءً وعلماً، قد اعتراه الوسواس كما اثبت ذلك غير واحدٍ من مترجميه، بل زعم بعض المحققين الناقدين ان بعض الانبيآء كان يعتريهم الصرع او الوسواس، ويسمى الموسوسون بالفرنسوية Les hallucinés .

ومن اعجب العجب ما يبدو للمطالع البصير بل مما يحار له الناقد اذ يرى اكثر الذين قلّبوا الطرف في الالعوبة الالهية من الشرّاح والعلمآء والنقاد الالبآء، اجمعوا على انها آية الآيات في ما تضمنتهُ من الفصاحة والفنون وانها معجزة لم يدرك شاؤها من جآءَ بعده من الشعرآء.

نعم اشار بعض الشرّاح من الناقدين الى ان دانتى لم يكن من المبتدعين بل من المقلدين غير ان الجماهير وفيهم اكثر شراحه وناقديه من جميع الامم كانوا ينظرون الى الالعوبة الالهية بعيون كليلةٍ عن نقد ما فيها من العيوب، او كأن رهبتهم مما ذكره في جحيمه ملكت عليهم انفاسهم فلم تجرِ اقلامهم بغير الاطرآء والاعجاب، واكثر اولئك ممن كانوا ينظرون اليها بطرف الخشوع كانها من الكتب السماوية، لفرط تحمسهم الديني، وهو كما تعلم ُيعمي وُيصمّ، حتى انهم كانوا اذا مروا بكلمةٍ او جملة تنافي تعاليم الكنيسة نفسها، قالوا ان فيها نظراً كانهم يرددون ان من الشعر لحكماً.

من الصلابة في دينه ، ثم في استدعائه ملكاً غريباً لاكتساح بلاده معما ذكرنا من شدة وطنيته ، ثم فيما يرويه عن مشهوداته في جهنم والمطهر والفردوس ، روايةً صادرةً عن يقينٍ تام برؤية ذلك كله رأيَ العين ، واخيراً تصريحه بان روح الله حلّت فيه .

على ان الظلمات التي ردّد ذكرها كثيراً في الالعوبة ليست الا نتيجةً طبيعية للسوداء التي كانت تصاحبه ، فضلاً عن فعل تيّار عصرهِ المظلم وقد مرَّ بك فعل التيار الجارف باعظم الناس حصافةً ، وما داتى باول موسوس نظم فاعجب سامعيه ، فان الروايات عن موسوسي الشعراء عند العرب كثيرة واشهرهم الموسوس الذي يقول :

حجبوها عنِ الرياحِ لاني قلتُ يا ريحُ بلّغيها السلاما
لو رضوا بالحجابِ هانَ ولكنْ منعوها لكيدِهمْ أنْ تناما

ثم الملقب بالمجنون مجنون ليلى ، وممن يُقال انه بُلي بالصرع او الوسواس الشيخ عمر الفارضي وقالوا دخل عليه احد اصحابهِ فرآه يدور حول بركة الجامع ويقول وهو يصفق بيديه

ستّي متّي من حقّا إي والله حقّاً حقا

وفي بعض ابيات التائية الكبرى من الخلط ما يرجّح هذه الرواية ، ولا نطيل في تعداد الموسوسين او المصابين بالصرع من الشعراء والكتّاب والعلماء فهم عند جميع الامم ، وحسبك ان بسكال

بحرٌ تعوَّدَ ان يَذُمَّ لاهلهِ   تتفرقانِ بهِ وتلتقيانِ
وحشاهُ عاديةٌ بغيرِ قوادمٍ   تحتَ الحسانِ مرابضُ الغزلانِ
تأتي بما سَبَت الخيولُ كأنها   من دهرهِ وطوارقِ الحدَثانِ

فهذا الشعر هو من اعلى طبقات النظم، والوصف فيه معجز المباراة، غير انه تنقصه حلقات الاتصال لتأتلف مبانيه وتظهر معانيه، ولكننا اذا حللناه الى الان الى نثرٍ بدا لنا خلط موسوس او هذيان محموم لما فيه من التخليط.

وعندنا ان دانتي عند نظمه الالعوبة كان قد اعتراه الوسواس اي الصرع، لما توالى عليه من مصائب الدهر واولها خذلان حزبهِ ثم ضيعةُ مطامعهِ ثم خيبة اماله ثم نفيه من بلدته والحكم عليه آخر الامر بالقتل، كما تقدم البيان، فخرج من وطنه طريداً شريداً لا يملك فلساً فلا عجب بعد كل هذا الهوان، اذا ما أبتلي بدآء الصرع او الوسواس ولاسيما اذا كان في غريزتهِ لذلك شيء من الاستعداد.

واذا صح ما نزعمه - ولا نراه الا صحيحاً - زال الاشكال في وقوع الخلط الكثير الذي رأيناه في الالعوبة ولاسيما عند الجمل الكثيرة التي لا يُستخرج لها معنى، ثم عند التبصر في اللعنات التي صبها على الاساقفة والباباوات، واقرارهم في جهنم مع ما كان عليه

حللناهُ الى كلام منثور وجدناه غير معقول وغير مفهوم، وانما هو خلط موسوس او هذيان محموم.

وان قيل كيف تجتمع البلاغة الشعرية وبراعة الوصف اللتين ملك بهما دانتي ثالث عرش لملوك الشعر عند الامم الفرنجية مع ما اوضحناه هنا من عيوب الالعوبة ؟ نجيب عن ذلك بمثال بل ببرهان يدفع عنا تهمة التعصب لفيلسوف شعرائنا بالحط من منزلة دانتي العالمية فما علوُّ قدره بمنزل ابي العلاء عن مرتبته السامية عند عارفيه، ولا شمس المعري كاسفة انوار دانتي عند اقوامهِ ومريديه، ومعاذ الله ان نقف غير وقوف الانصاف في الموازنة والنقد، او ان تكون خدمتنا العلمية غير الحقيقة ورائدنا غير الاخلاص في القصد.

ودونك برهان البلاغة الشعرية وبراعة السبك مع فقدان سواها من المزايا قال الشاعر

وجاوزوا ارسناساً معصمينَ بهِ قبل المجوسِ الى ذا اليومِ تضطرمُ
نِتاجُ رأيكَ في وقتٍ على عجلٍ قد أُفسدَ القولُ حتى أُحمِدَ الصَمَمُ
دُهمٌ فوارسها كتّابُ ابطِنها وسمهريتهُ في وجههِ عَلَمُ
عبرتَ تقدمُهمْ فيهِ وفي بلدٍ انَّ الكرامَ باسخاهم يداً خُتموا

او كقولهِ

والماءُ بينَ عجاجتينِ مخلّصٌ عُقْمَ البطونِ حوالكَ الالوانِ

الابالسة فيلحقونه ثم يعترضهم آخر ليحول بينهم وبين رفيقه الهارب الى آخر هذه القصة الغثيثة . (من الاغنية الثانية والعشرين)

أيكون في جهنم لعب بين المغضوب عليهم والشياطين ؟ وتكون هناك بحيرة نارية مظلمة ويلعب حولها اهل النار ؟ - وهي تلك الارواح التي تُرى ولا تُرى - واين اللعب من اناس يحترقون ويُعَذَّبون على النحو الشنيع الفظيع الذي يصفه لنا هو نفسه ؟ وكيف يقوى المعذّب المحترق الضعيف المنهوك ، على قوة الشيطان الرجيم سلطان الجحيم فيمسك بساعديه ؟ وكيف يهرب من وجهه والى اين ؟ .

ان في الالعوبة كثيراً من امثال هذه الحكاية التافهة ، مما يخالف المعقول والمفهوم ، فان قيل انها وضعت شعراً لانها للخاصة من الناس ، قلنا كيف تكون للخاصة وهي مما لا يسلك في عقول صغار الاولاد ، وان قيل انها للعامة على ما كان شائعاً بينهم يومئذ ، قلنا انه لم يشع في عصر من عصور الجهل المظلمة امثال هذه الخرافات التي اطال واشبع فيها التدقيق والتفصيل ، وهي كما علمت من الشعر الذي انحنت لديه رؤوس شعراء الامم الفرنجية لما اشتمل عليه من الفصاحة والتنميق ، ومثل هذا لا يكون نظمه للعامة ، على انه اذا تجرد من الفصاحة الشعرية وحسن السبك ، وبعبارة اجلى اذا

به وعلى يديه لا عربدة في الجنان انما يُعرف ذلك في الدار الفانية بين السَفِلة والهِجاج وانك يا ابا ليلى لَمُتترّع .

فاذا نظر الناقد البصير في لطافة هذا الوصف يراه لا يخرج في شيء عن المشهور والمفهوم عند عامة الخلق فضلاً عن خاصتهم فانه لم يجعل شراب اهل الفردوس شراباً موهوماً ، بل خمراً سائلا ورحيقاً مشموماً ، وجعله انهاراً لشغف العرب به ، واجراها في الجنة امام المتنادمين ، وذكر الطاسات والاكواز والاباريق وهي مألوفة عند العرب ولاسيما عند وصف الشراب وصوّرها من الذهب وذلك لا يخرج عن المألوف عند الامرآء والاكابر في الدار العاجلة فلا بدع ان تكون في الجنة كذلك او ابهى واغلى ، ولما ختم الوصف بعربدة النابغة على الشراب كعادتهِ المشهورة في حياته قال فضربهُ بكوز من ذهب .. وكل ذلك معقول يشربهُ الذهن دون تكلف او اجهاد .

اما دانتى فانه لما اغار على هذا الوصف وسرق معانيه ، عمد اول شيء الى التخليط لاخفآء مواضع المسروق ومنابعهِ ، واقصاء نظر الناقد عن مطالعهِ ومشارعهِ . فصور لعبة بين اناس من اهل لومبارديا وتوسكانا على بحيرةٍ نارية وبينهم مَن يمسك بساعدي احد الشياطين ، ليوقفهُ عن جلد رفيقهِ ثم يهرب من وجوه

وقد سبق لنا بيان شيء مما ذكرناه للدلالة على مخالفته للتخييل الشعري وافضنا هنا في ذكر ما تقدم للبرهان على مخالفته للمعقول ، واليك مقابلة تظهر البون الشاسع بين لطف تصور الاعمى وذكائهِ وبعد مداركهِ ، وبين خشونة تصور البصير ونظره المحدود الضيق مع مخالفته للمنطق السليم .

صوّر ابو العلاء جهنم صورةً لا تتجاوز معقول السامعين ، فجعل ابن القارح ينظر من علٍ الى اسفل جهنم عند تلاعنهِ وابليس كما مر بك وقول الزبانية لابليس حينما امرهم بجذب ابن القارح « لا سبيل الى ذلك يا ابا زوبعة » اي لا نستطيع الصعود الى مقام ابن القارح لانه المقام الاعلى مقام الصالحين في الفردوس ، وهو جوابٌ مقبول معقول عند من يتصور ان جهنم هي في وادٍ او هوّةٍ متناهية في العمق ، وان الجنة فوق ارفع ما تصل اليه الابصار من الافق ، وهو تصور الجمهور .

ثم انه لما صور ابن القارح يتنادم في الجنة مع جماعة من الشعرآء قال بعد وصفهِ خمور الجنة وذكره الانية الذهبية . . وتَهَشُّ نفوسهم لِلَعِب فيقذفون تلك الانية في انهار الرحيق . . . ثم انه لما ذكر عربدة النابغة والاعشى قال وَيثبُ نابغة بني جعدةَ على ابي بصير فيضربه بكوز من ذهب فيقول ـ الضمير لابن القارح ـ اصلح الله

او عقيدةً بين بعض معاصريه ، لا أنه يعتقده ويقرره ُ كقاعدةٍ علمية او مسئلة حسابية ، بل بالعكس من ذلك ، فان في معاريض كلامهِ بل في كل صفحة من رسالته ما يُشعر باستبعادهِ امكان ما يشير اليه من الغرائب ، بل في كثير من جُمله ما لا يترك لدى القارىء البصير سبيلاً للريب في هزلهِ وممازحته .

واين داتى منه ، فان اللغات التي رشق بها خصومه واعدآءه ، حتى بعض الاساقفة بل البابوات ، لم تكن عقيدةً من عقائد امته او عصره ، وان ما عقده في جهنم من الجسور والقناطر مما تنطس بذكره مع الزوايا والمربّعات الهندسية في القصور ذوات الابواب السبعة ، لم يكن من معتقدات اهل عصره الى كثير من مثلهِ ، وانه طوّف بجهنم ذلك التطواف وعرّج على الفردوس ذلك التعريج ، ورأى ما ذكره وفصّله لم يكن الا دعوى منه ، بل زعمه ان روح الله حلّت فيه ، كل ذلك يصفه وصفاً دقيقاً ويذكره ُ لا كمتهكمٍ او كمستبعد امكان ذلك ، بل كواصف يروي حقائق لا يخامرها مزحٌ او شك .

وهب ان بعضها او اكثرها من معتقدات اهل عصره ـ مما نكرر انكاره ـ فهو يرويها على علاّتها ، متيقناً كل اليقين منها ويزيدها من عنده تفاصيل واختراعات كما تقدم البيان .

يُدرَك ، ثم انه كان يجول في تلك النيران الجهنمية بلحمه وعظامه وثيابه بل يزعم انه كان يقف مخاطباً فلاناً ثم يسير لمحادثة ذاك كانه في رائعة النهار في شارع من شوارع بلدته ، ولا نطيل بهذا فالالعوبة كلها على هذا النحو .

واذا نظرنا الى ما بين المعري ودانتى في التخييل ، نجد في تخيّل المعري شيئاً من شبه الامكان وآخراً من شبه المعقول ، واما في تخيل دانتى اوتخييله لنا ما لا نستطيع له تصويراً ولا تخييلاً ، مع انه يكتب منظوماً ولكننا نشعر انه يموّه اكاذيب يلفقها وغرائب ينمّقها ، تنظمها قريحته ويصورها قلمه ليظهر براعة اختراع الموهومات .

وإن قلت ان كليهما يصف او يلفق اوهاماً وخيالات ، قلنا ان من شروط التصنيف ان لا يكون بعيداً عن المعقول كل البعد اي ممتنع الادراك كقولنا زيدٌ حديد البصر شديد العمى ، او انه كان يلتهب جسمه احتراقاً في المآء البارد ، او انه كان يفر من برده في اتون النار ، وهذا او نحوه عين ما ورد في اغلب الالعوبة .

نعم قد جآء في كلام ابي العلاء شيء مما يخالف المعقول كقوله تنشق كل جوزةٍ عن اربع جوارٍ . . . ـ اشارة الى اربع اقسام الجوزة ـ وامثال هذا ، الا انه في ذكره ذلك يردد ما كان شائعاً

وان خرج ببعضها ، اذ اول ما يتبادر الى ذهن السامع من هذا الوصف ، ان جسم هذه الحسناء بضٌّ لطيف ذو بشَرةٍ تحاكي الشمع الشفّاف او اللؤلؤ المكنون ، وان اعطافها قد لانَت حتى كادت تكون من الاوهام والظنون ، وان محاسن قَسَماتها مما كان شاهدهُ مرةً في بعض الصوَر ، او عاين مثله في بعض الدُمى من العاج او المرمر ، وان الناظر الى جملة محاسنها ينادي حاشا لله ما هذا بشَر ، وينصرف الفكر عن قوله « تركب من عنصر الهوآء » لان القارىء او السامع يستطيع ان يتصور حال سمعهِ هذا الوصف صورةً وجسماً ، وبعكس هذا ما في الالعوبة ، فان كل ما فيها من التخييل يفرّ من المعقول ، اذ ان صاحبها اول ما يصور لنا حكايته يصورها في ظلمة مدلهمّة ومن اين لنا ان نعاين المنظورات في تلك الظلمات؟ بل أنّى لنا ان نشاهد الموهومات؟ كقولهِ بحيراتٌ ذوات مياه نارية ، او نيران مائية قاتمة ، ثم يصف لنا اناساً عرفهم وعرفوه واخرين ممن سمعنا باسمآئهم في التواريخ المتغلغلة في القدم ، ولكنه يقول عاينهم ارواحاً لا اجسام لهم وذلك كله في تلك الظلمات الحالكات ، وانت لم تبصر حياتك كلها روحاً في نورٍ او ظلمةٍ ، بل ان الروح التي يُقال لك منذ صغرك انها فيك ، لا تُنظر ولا تُكيّف ولا تُحدَّد ولا تُعرف ، وانما هي لفظ موضوع يُردَّد ولا

٨

اما تسميته ُ اياها بالالعوبة Comedia فهو مأخوذ من الاشتقاق الاصلي اللاتيني لهذا اللفظ ، ومعناه ُ أغنية او اغانٍ باليونانية ، ولعلهم اشتقوا من هذا اللفظ ايضاً لفظ Comique اي مضحك او مضحكات وهذا مشتق من الاصل اليوناني Comus وهو اسم آله الولائم عند اليونان .

ومن هذا الاشتقاق الاصلي يتضح لنا ان غرض دانتى لم يكن نظم العوبةٍ للتفكه او التشخيص بل أغنيات ُيتغنى بها في البيوت او الكنائس ايام الاحاد والاعياد على مثال تغنيهم بمزامير داوُد ، وان يُبَجَّل اسم ناظمها ويُعدّ في جماعة القديسين ، لانهُ عرج قبل موته - في دعواه - على جهنم والمطهر والفردوس وخاطب الله ، بل حلّت فيه روح الله القدوس .

ومن اظهر عيوبها ُبعدها عن المعقولات اي مخالفتها المنطق ، ولا ينفي ذلك ما قدمناه من ان اعظم اركان الشعر هو التخيل لاننا اذا جردنا التخيل من المعقول لا يبقى ثَمّتْ تخيل ولا شيء ُيسمى بشيء ، مثال ذلك ان يتخيل الشاعر فيقول ان جسم محبوبته - او الحسناء التي يصفها - شفّاف تركّب من عنصر الهوآء ، وحاز اشكالاً تعجز عن وصفها السن الشعرآء ، لا يخرج عن المعقول بجملته

حتى انه يقذف بنبيٍ دعا الوثنيين وهداهم الى عبادة آله داتى نفسه وليست دعواه بالنبوءة دون دعاوي سواه من الانبياء الوافري العدد .

بقي القول ان داتى اراد ان يحول رسالة الغفران ، من رسالة دعاء كما فهمها من ظاهر لفظها العربي ، او من ترجمتها اللاتينية ، الى افكوهةٍ شعرية ، او العوبةٍ تمثيلية ولذلك دعاها بالالعوبة .

غير ان تسميتها بالالعوبة Comedia لا يعني انه وضعها كما وضع بعده شكسبير وموليير وراصين وغيرهم العوباتهم للتشخيص في دور التمثيل والملاعب ، لان مراده منها ينافي هذا الغرضِ كل المنافاة لاسبابٍ ، منها انها مما لا يمكن تمثيلها في ليلة واحدة بل ولا ليلتين ، وطريقة التشخيص المتتابع ليست مألوفة في اوربا الى اليوم ، ومنها وهو الاهم ان كل ما صورهُ في جهنمهِ ومطهرهِ ـ وهو الجزء الاعظم من الالعوبة ـ صورهُ وصفاً في ظلماتٍ مدلهمات ورياح منتنة ومياهٍ نارية سود ، وذلك كله مما يستحيل مشاهدته او تصويره بغير اللفظ ولا يمكن احتمال شمه في مكان .

ومنها وهو من اهم ما يستدعي انتباه الناقد ان داتى لم يكن ليرضى بتمثيل الفردوس وارواح القديسين والقديسات والملائكة بل الله جل جلاله ، على مسرح في ملعب وقد ذكرنا غير مرة فرط تحمسه الديني .

الوطن من قومه من لم يكن من حزبه ، وعدو الدين من لم يقل بقوله السياسي ولو كان اسقفاً بل البابا نفسه ، وساقطو المرؤة اولئك الذين لم يعاونوه على نيل مطامعه ، بل يتجاوز الى الطعن على امة باجمعها وشتمها ، لان ملكها لم يسعف مطلب اميره او حزبه ، كما شتم الامة الفرنسوية في غير موضع من العوبته ، وهو لا يأبى اغرآء ملك غريب باكتساح بلاده وانزال اشد العقوبات باهل وطنه .

ومن عيوبها الاثيمة ذهاب صاحبها الى ابعد ما يتصوره الفكر الانساني من الحقد والضغن وحب الانتقام ، فانه لم يكتف باغرآء امبراطور المانيا باكتساح بلاده وصب البلاء على اهل وطنه بل تتبّعهم الى جهنم ، ولم يروِ غليله احتراقهم بتلك النيران التي وصفها وبما كانوا يقاسونه من نهش الافاعي وضرب المقامع النارية على ما وصفها مما ترتعد من ذكره فرائص اعظم الشجعان ، بل كان يتلذذ بمشاهدتهم كما يقول - او تصور مشاهدتهم - في تلك العذابات ويقول لأبالستهم زيدوهم حرقاً وتعذيباً ، بل يخاطبهم قائلاً ذوقوا لذائذ هذه الجحيم فانكم فيها خالدون .

ومن اشد عمى تعصبه انه يقذف في جهنمه بكل من يمرّ في باله او تحت رأس قلمه ، من مخالفيه في الرأي او في الدين كما ذكرنا

في تعييبه بما يُعاب عليه سواه .

ومن عيوب الانشآء الفاضحة تكرار الالفاظ والمعاني وقد اجمع على ذلك علمآء الفصاحة والبيان في اللغات الافرنجية كعلمآء اللغة العربية وتشددوا في ذلك على الشعرآء فوق تشددهم على الكتاب لما هو مطلوب في صناعة الشعر من البلاغة والجزالة ولاستقلال بيت الشعر بالمعنى وان تجاوز فالى بيتين والعرب بمحاسن الشعر ابصر الامم بلا مدافع .

فالتكرار في العوبة داتنى مما يبلي بالسأم وهو غير مقصور على الالفاظ ، بل المعنى هو هو في كل اغنية من الاربع والثلاثين اغنية من اغانيه في جهنم ، ومثل ذلك في المطهر والسماء ، لا يختلف الا بوصف السرداب او الدرج او القوس المنحنية او المضّلعة ، او الوحش الناري الغريب الصورة ، او الشيطان ذي الرؤوس او الافواه المتعددة ، او اسم رجل مجهول كان من جيرانه او بعض معارفه ، وكم من ذلك ؟ او حادثة مكانية تافهة ، او قال لي ابي ، وقلت لأبي وابي لي وانا لابي الى غير ذلك من الحقير المُبرِم المُضجِر .

ومن عيوبها الواضحة انها لم تتجرد عن السفليات ، ولم يظهر لنا صاحبها في مظهر من الاخلاص ، وانما هي مشبعةٌ انانيةً ، فالخائن فيها مَن لا يرى رأي داتنى ، او من خالف مذهبهُ ، وعدو

الواضح في العوبة دانتي عليه ؟ فانه جعل نفسه بطل روايته الطويلة المملة واكثر فيها من مدح ذاته والمفاخرة بنظمها ، وهو مما عبناه نحن على شاعرنا المتنبي وقد كان يفاخر مزاحميه عند سيف الدولة ملك حلب من شعرآء عصره ولعل له عذراً في ذلك ، وهو انه كان يحرص على تلك المنزلة الرفيعة وعلى ما كان يناله من صلات الملك المتناهية في الجود ، وعلى اعجاب الملك بشعره وهو من نقدة الشعر ومن اكابر الشعرآء ، ولم يكن دانتي في مثل تلك الحال ولا ما يشبهها عند مباهاته في مواضع كثيرة من الالعوبة .

وقال المتنبي مفاخراً

ما نالَ اهلُ الجاهليةِ كُلُّهمْ شعري ولا سَمِعتْ بسحري بابلُ

وهو في شعرهِ هذا ينطق بلغتهم وقد جاء بالرشيق الفصيح من اللفظ والسهل الممتنع في الغزل والنسيب والمدح والوصف والقصة والحكمة والفخر بما لم يأتِ بمثله شاعر قبله ، اما دانتي فقد جآء بالالعوبة الالهية التي فاخر بها وعدها معجزة المعجزات ، وهي اول ما يُنعى عليها انها لم تكن باللغة اللاتينية الفصحى لغة مَن تقدمه بل كانت يومئذٍ لغةً عامية لغة الاغاني وفيها من العيوب ما نحن في نقده وتعداده ، وما يُفرَض على الناقد المنصف ان لا يغضي عليه ، ولسنا نرى وجهاً لتسامح الشرّاح والنقّادين الافرنج

اشتملت على عموم حادثة تاريخية سرد فيها بترتيب واتقان كل ما يتعلق بتلك الحادثة ، وهي في صناعة الشعر من باب الشعر القصصي تنتقل فيها من واقعة الى واقعة ومن بلد الى بلد فتشهد الحوادث مصورةً باللفظ وليس فيها للشاعر غير الرواية ، اي سبك الجمل واعتبار الالفاظ واجادة النظم وانسجامه اي خلوّه من الغموض والتعقيد ، وتصوير المعاني في قوالب من اللفظ بحيث تتمثل اشخاص القصة للعيان ، وتحل ارواحهم في ذلك البيان ، وتسيغ النظم في ذهن القاري ، سوغ الماء الزلال في فم الظمآن .

وقل مثل ذلك في شعر فيرجيل فانه لا يتباعد عن موضوعه الا بمقدار ما يلجئه التشبيه او الوصف بحيث لا يتيه ذهن المطالع في صحارى الاشارات والالغاز او يغرق في بحارٍ من قواعد العلوم المختلفة والمسائل المتباينة . كتسمية آله النصارى جوبيتر آله اليونانيين كما فعل دانتي فيضل القارىء والسامع الغرض الاصلي وهو موضوع القصة .

ومن العيوب التي عدّها نقادو الافرنج على الشعر العربي ، ان الشاعر الجاهلي هو بطل روايته فلا يكاد يخرج عن نفسه ، وهو في ذلك على نقيض مما ذكرناه من حسنات ملحمة هوميروس ، ولعلهم في ذلك على هدىً ، فما بالهم تغاضوا عن عدّ هذا العيب

ـ وهم في النيران ـ وسواهم قد كُسيت اجسادهم ثياباً من القروح يكشطونها باظفار نارية ليلا نهاراً ؟ الخ الخ .

لعمري ان هذا الباب من ابواب الشعر لم يخطر في مخيلة شاعر عربي ولا احسبهُ يدخل في ابواب الشعر الاعجمية ، وحسبنا برهاناً على ذلك ان الالياذة المنسوبة الى هوميروس وهو المعدود باجماعهم شيخ شعرآء الدنيا لم تُعدّ في الطبقة الاولى من الشعر عندهم ، الا لما اشتملت عليه من وصف الوقائع الحربية وآلاتها ومآثر السلف واخبارهم في سلمهم وحروبهم وما يتداخل ذلك من مصارع الغرام ولوعات الفراق ولذائذ اللقآء واكرام الضيف الى غير ذلك من الحالات المألوفة في المجتمع الانساني ولاسيما حقائق احوال الامة اليونانية وما جاورها من الامم في تلك القرون الخالية ، وقل مثل ذلك في شعر فيرجيل وكله شعور لطيف متناه في الرقة قد بلغ غاية التمام من الاحسان حتى لتكاد تشربهُ الاذان ولا تملّ من تكرار قرآءته النفوس .

فاذا عُلم هذا تفرع عنه الترتيب والتبويب فانهما شرطان اساسيان من شروط التأليف وحسن الانشآء ، لا في النثر فقط بل في الشعر ايضاً كما اشرنا الى ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب ولذلك عدّوا ملحمة هوميروس في رأس الشعر عندهم لانها

الذي يناسب مقام الغنآء ومقامات السامعين ، وبعد ذلك كله فاذا تمَّ هذا جميعهُ لمغنٍ ، الا أنهُ خلط النهاوند بالسيكاه ، والعراق بالدوكاه ، والحجاز بالعجم ، والنوى بالصبا ، لاستنكرت الاذان اغانيه ولو سُمي ابرهيم ، او اسحق النديم .

فاذا كان هذا هو الشأن في فن الموسيقى او الغنآء وركنهما حسن الصوت ومناسبة الايقاع ، فما القول في الشعر وركنه الاول جمال التخيل والمناسبة في التركيب .

ومما تقدم ايضاحه ومما سيأتي يظهر بديهةً ان الخلط في الالعوبة الالهية ، هو عيب من افحش عيوبها ولا يعدّه حسنة الا من قصر باعهُ في فنون الشعر ، وقل بصره في فن النقد .

واذا تقرر ان جمال التخيل اعظم اركان الشعر ، وان اعذب التخييل ما اجتمع فيه الحسن بانواعه مما تتعشقهُ النواظر والمسامع اذ كان بذلك سرور النفس وملاذّها او تسلّيها وعزآؤها ، فايّ سرور لها في ذكر الوحوش والاحناش ووصف اشكالها القبيحة وشراسة افتراسها ونهشها الاجساد البشرية على ضروب لم تمرّ في خاطر عاقل ؟ وايّ لذةٍ او تسلية في وصف النيران والسموم ولواذع الجليد ونتن الرياح الهوج وتصوير اناس قُطع نصف جسمهم طولاً وباتت امعآؤهم وقلوبهم واكبادهم تسيل منها الدمآء

وقد زعم بعض فطيري الرأي انها لم تنل ما نالتهُ من الشهرة البعيدة، ولم يُعدّ مؤلفها ثالث شعرآء الدنيا، الا لما نعدّهُ هنا عيباً، ونحن نقول في الجواب على هذا ان الموازنة تتقاضانا ان نشفع الاعتراض عند ردّه بالبرهان وصواب الانتقاد بالحجة المنطقية واليك البيان.

٧

من المعلوم ان الشعر ليس هو الفاظٌ مجموعة، تُركَّب على اوزان موضوعة، وقواف مصنوعة وكفى، بل هو صناعة كصناعة الاوتار والالحان، لا تنال حظها في الاذان، ما لم تستكمل شروطها من حسن التدرج والتنقل في الابراج بحيث لا يقع بينها تنافر او تناكر، وان يكون النقر على الاوتار او النفخ في المزمار نِسبياً اي موقّعاً ومقطعاً توقيعاً وتقطيعاً يناسبان المقام فليست موسيقى الحرب واثارة الشجاعة في النفوس، كموسيقى الصفو والهنآء بين خلانٍ عكفوا على الراح، وتبادلوا عتيقها بالطاسات والاقداح، في روضة قد فُتّحت ازهارها وترقرق مآء سواقيها وراقت انهارها، كما ان حسن الصوت وحده لا تستلذه الاسماع ما لم يصحبه احسان الصناعة في التلحين، وهذا لا يستجمع شروط الجودة ما لم يستكمل حسن اللفظ وفصاحة الالقاء واختيار الشعر العالي والمعنى البليغ

كما توقع بعد وفاته ، ثم ان شهرة فيرجيل وهو ابن امته كانت كما هو معلوم قد طبقت الخافقين ، فرأى ان يستظل باسمهِ وفي ذلك غاية الشرف له وابعد مجال التضليل في اصل الالعوبة ، ومع هذا فلعل داتى كان اكثر انصافاً من كثير من علمآء عصره وقد كانوا ينسبون الى انفسهم كثيراً من كتب علومنا التي ترجمت الى لغتهم اللاتينية كما مرّ قبل هذا .

بقي ان نشير في هذه الخاتمة الى ما يعرض للناقد من الدهشة والحيرة بل من الدُوار عقب مطالعة الالعوبة الالهية والتبصر فيما اشتملت عليه من شتى الاغراض ، وتباعد مناحيها عن الموضوع الذي قصد له المؤلف ، حتى بات كل واحد من هذه الاغراض غريباً في مكانه بعيداً عن بيئته ، وحتى باتت الالعوبة الالهية جديرة بان تسمى كناشية حكايات بيتية ، واخبار بلدية ، او مجموعة من شتى الحوادث ، او كشكولاً حوى معجماً صغيراً من الاسمآء المشهورة والمجهولة ، ومن مبادىء بعض العلوم ، فمنازعات قومية ، وارآء سياسية وفلسفية وشرعية ودينية وتأريخية وعلمية وشعرية ولغوية وشيء من علمي النبات والحيوان ومن عجائب المخلوقات بل اوهام وتخيلات وحماسة ، وكله متداخل بعضه في بعض بنظم شعري .

خاتمة

فاذا نظر الناقد البصير بعين لا تطرفها اذيال العصبية، وروح تجردت من درن الشعوبية، فيما بسطناه في هذه الموازنة من البراهين واجملناه من الادلة الناصعة، قضى معنا قضاء لا مردود له، ان الالعوبة الالهية هي بنت رسالة الغفران، لا يسترها ما القاهُ دانتى عليها من جلاليب الظلمات، وما لحفها بهِ من السحب الكثاف المدلّهمات، ولا يواريها عن الاعين البصيرة النقّادة كثرة المنخفضات والمنعرجات، ولا الاقواس الهندسية والاشارات الفلكية ولا ما ادمجهُ فيها من كثرة الاسماء الاعجمية والآلهة اليونانية ولا تبديل العنوان ولا الحلة الشعرية ولله در القائل

مَن رامَ طمسَ الشمسِ عمداً اخطا
ألشمسُ بالتطيينِ لا تُغطَّى

وكان الاجدر به لو انصف ان يسمي ابا العلاء قائدهُ ومرشده لا فيرجيل فهذا لا يد له في هذه الحكاية، وان قيل أنَّ ابا العلاء كان غريباً عنهُ في اللغة والدين، قلنا ان فيرجيل لم يكن فيهما اقرب اليه، ولكن أنّى له ان يشير الى اسم المعري وفي ذكرهِ اسرع تنبيه الى فضيحة الالعوبة، وهي التي كان يرى في نشرها اعلاء شأنه وخلود اسمه، على انه ان كان قد فاته المجد في حياته، فقد نال خلود الاسم

الفردوس بكتابهِ كذا وذاك برسالتهِ كذا والآخر بمؤلفه التأملات كذا كتوما الاكويني واوغسطينوس وكراتيانس ودومينيكوس وغيرهم كثيرين . . . وهو عين ما ذكر في رسالة الغفران باختلاف في الاسمآء عن شعرآء الجاهلية ، وفيما يأتي بعدهـا من الاغاني الفردوسية يذكر شجرةً تحيا بمائها وتثمر دائماً ولا يسقط ورقها ، اما اثمارها فارواح سعيدة كان لها شهرة على الارض قبل ان ترتفع الى السماء . . . والحقيقة انها هي شجرة ابن القارح في الجنة تنفض من الجوز عدداً لا يحصيه الا الله تنشق كل جوزة عن اربع جوارٍ يرقصن على ابيات الخليل . . . ويزعم انه يخاطب النسر في الفردوس والنسر يجاوبه ، كما هو الشأن مع ابن القارح في مخاطبتهِ الاسد وركوبهِ بعض دواب الجنة الى كثير من امثالهِ ، وآخر ما يسمعنا في فردوسهِ صورة ايمانهِ ، وهي ليست من الشعر في شيء ، ولا من عجائب السماء ، ولا من الحوادث النادرة ، بل لعلهُ نظر فيما ذكر عما رأى في الفردوس ، وخاف عاقبة سرقاتهِ من رسالة الغفران اذ ليس في معتقد النصارى من اهل ملته شيء مما ذكره عن الاشجار والحيوانات والحور والرقص الخ . وكان شديد التمسك بدينهِ كما ذكرنا غير مرة ، فرأى ان يختم اغانيه بصورة ايمانه ، كأن لسان حالهِ يقول : هذا معتقدي لا سواه مما هرفت به .

وكأن داتي اعاد قرآءة رسالة الغفران ووجد انه لم يشر في العوبته الى حكاية قصيدة ابن القارح في مدح رضوان (عند دخول داتي مع فيرجيل الى جهنم ومخاطبتهما البواب هناك) فاستدرك ذكر ذلك وجعله مع بواب المطهر، وجوابهُ له: لا حاجة بي الى مجاملتك ومديحك الخ. أوَ لا يقول الناقد البصير عند هذا البرهان الناصع وامثاله مما تقدم لنا ذكره ما اشبه الليلة بالبارحة، وقد برح الخفآء بالحجة الواضحة؟

في الفردوس

في الاغنية الخامسة وقد انتقل الى الطبقة الثانية من طبقات الفردوس او السماء، «يرى نفسه مع بياتريس مع نسوةٍ حسان نورانياتٍ يدُرنَ حوله وحول بياتريس راقصات يغنينَهُ حتى تكاد بياتريس تسكر معه من انوارهنَّ وغنائهن» وكأنه يعيد بهذا المشهد عودة ابن القارح الى قصره في الجنة وقد حفت الحور بسريره الخ.

وفي الاغنية العاشرة وما بعدها تسأله بياتريس او روح اخرى ـ وتلك الارواح تظهر له دائماً بصور نسآءٍ حسان نورانيات ـ أتريد ان تعلم ما هي الازهار التي تزين هذه الهالة التي تراها حول الامرأة النورانية (بياتريس)؟ ثم تبدأ فتسمي له علماء ورهباناً وقديسين وشهدآء باسمآئهم وتقول له ان هذا استحق

اليها في الخاتمة وفي الاغنية الثامنة عشرة يذكر جسراً قديماً (في جهنم) وقف عليه مع مرشده ورأى عدداً عظيما من اهل النار، يتبعهم الزبانية متسلحين باسواط لامعة وهم يجلدونهم بها جلداً متناهياً في القساوة والغضب وبينهم شيخ عظيم الهيكل لا يظهر عليه اثر للألم...

فكانهُ يعيد ما ذكره المعري عن بشار بن برد، بلفظ مختلف واسماء اعجمية. وفي الاغنية الرابعة والعشرين يذكر وصوله مع قائدهِ الى جسر ساقط متهدم وان قائدهُ رفعه الى قمة صخرةٍ وقال له تمسك بكل قواك بهذه البقية الباقية، ولكن تحققوا اولاً من متانتها الخ الخ.. وهي حكاية السراط في رسالة الغفران، ولكنها مسرودة هنا بصورةٍ فقيرة واسلوب غثيث.

في المطهر

يقول انه يجد عند باب المطهر شيخاً هو بواب المطهر يمنعه الدخول (قصة رضوان المعري) ويكرر فيرجيل حكايتهُ له عن امرأة نزلت من السماء وطلبت اليه ان يأخذ دانتى في ظل حمايته.. ثم يقول له البواب: ان كان ثمت امرأة سموية تحببك وتشجعك فلا حاجة بي الى مجاملتك ومديحك بل يكفيني ان تخاطبني باسم الامرأة التي ارسلتك.

نبت نضير رطب ... ثم يجتمع بطوائف من فلاسفة اليونان والرومان يذكر اسمآءهم واسم الرئيس ابن سينا وابن رشد واسمآء بعض القياصرة وبينهم اسم صلاح الدين الايوبي . (الاغنية الرابعة من جهنم)

بيد ان هذا الاجتماع وان كان قد حصل في جهنم ، فقد كان في قصر فخم منيف تحف به رياضٌ وانهار ... (ونترك الكلام الان على امثال هذا الخلط الى الخاتمة) .

وكما صوّر المعري تلاعن ابن القارح والشيطان ، وتناشد ابليس الزبانية ان يجذبوا ابن القارح الى اعماق جهنم وجوابهم له ليس لنا يا ابا زوبعة على اهل الجنة سبيل ... فان دانتى يقول في الاغنية السابعة ... وصاح بلوتسْ بصوتٍ اجشّ يا ابتِ ابليس يا ابتِ ابليس اجذبهُ ، ولكن قائدي الكريم قال لي لكي يعيد الشجاعة الى نفسي لا تخف شيئاً فانه مهما بلغ سلطانه لن يمنعك عن النزول الى هذه المنطقة ثم التفت نحو هذا الشيطان وصاح به اخرس ياذئب اللعنة ، وانشق انت نفسك من غيظك فاننا لسنا ندخل دون غرض الى جهنم فانه هكذا ُيراد هناك ، حيث ميخائيل جازى الكبريآء القبيحة الخ الخ .

وقد اورد مثل هذا في الاغنية الثانية والعشرين ولعلنا نلمح

الأبدي ، وانتَ ايها الانسان الحي مَن هم الذين اتوا بكَ الى هنا ؟ ابعد عن الاموات الخ. حينئذٍ قال له قائدي ـ اي فيرجل ـ ياكارون لا تدافع ، هكذا يريدون هناك حيث يقدرون على كل ما يريدون ، فلا تسل شيئاً فوق هذا .

أما هيَ قصة ابن القارح مع رضوان والزهرآء وجاريتها بعينها ؟ هذه حكاها ابو العلاء عنه في الفردوس، وداتي يرويها بلسان فيرجيل عما جرى لهما في جهنم والاسمآء مختلفة فقط ، وكما اجتمع ابن القارح في الفردوس مع جماعة من الشعرآء الزنادقة ، فان داتي يجتمع في جهنم مع اعاظم الشعرآء الوثنيين وهم هوميروس وهوراس واوْفيد ولوُكان او (لوكانس) ، ولكن لم يجتمع بهم ليسألهم ان ينشدوه اشعارهم للتحقيق عما نقل عنهم في كتب الادب او التأريخ ، بل ليعترفوا له بالفخر الذي هو به جدير ، ويعدّوهُ سادسهم (وان كان لم يذكر اسم الخامس فهو لا شك يريد به فيرجيل) وانه مشى معهم حيناً نحو ذلك النور الساطع (في ظلمات جهنم) وانهم قد تحادثوا بما يحسن السكوت عنه في هذا الوقت . . . وقد وجدنا انفسنا قرب قصر منيف احيط بسبعة اسوار يجري تحته نهر سلسبيل غير عميق قطعناه بسهولةٍ ، ثم دخلنا الى ذلك القصر من سبعة ابواب ـ حكاية عدد السبعة ـ حتى وصلنا الى روضةٍ رصعها

ثم جهنم كما مر بك .

ثم ان ابن القارح وقف في باب الجنة يستأذن رضوان في الدخول فطلب منه جوازاً ولما لم يكن بيده جواز رشاهُ بقصيدةٍ لم تفعل شيئاً في نفس رضوان . . ثم وقف عند الصراط واستشفع بالزهرآء فامرت احدى جواريها باجازته كما مرت بك القصة .

٦

اما دانتي فقد صب هذه الحكاية في القالب الاتي : قال في اغنيتهِ الاولى من جهنم انه سأل فيرجيل كيف كان حضوره اليه في الغابة المهلكة وفي ذلك المقام المخيف ، فاجابه فيرجيل ان بياتريس - وهو اسم معشوقته كما تعلم - قد استدعته من مقرهِ واستحلفتهُ ان يذهب وينجد محبوبها ويسعف ملتمسه ، وان شفقتها على محبوبها هي عذرها في التماسها هذا منه وانها وعدتهُ بالثناء عليه عند عودتها الى سيدها (ربها) الاغنية الثانية من جهنم .

وفي الاغنية الثالثة يقول : ولما وصلنا - هو وفيرجيل - الى ساحل ذلك البحر الجهنمي ظهر لنا شيخ معمم (عمه الشيب) على سفينة وصاح بنا الويل لكنّ ايتها الانفس الشريرة لا ترجينَ البتة في الرجوع الى رؤية السماء ها انا آتٍ لاحملكنّ الى الشط الاخر في منطقة الظلمات والى وسط النيران المضطرمة والجليد

ـادـاً – لم يسبق لاحد ممن عرجوا – في زعمهم – على جهنم او على السماء ان رأى احداً من اصحابه او اعاديه ، او انه خاطبهم وخاطبوه وعاتبهم وعاتبوه ، الا ما صوره لنا المعري في تمنياته لابن القارح ، ثم مشى على اثاره داتي في العوبته فاحتذى عين مثاله ونسج على منواله .

على ان داتي وان كان قد تصرف في بعض المسروق تصرفاً بعيداً وفي بعضه الاخر لم يزد على ان قدم وأخر وابدل الاسماء ، فان الناقد المنصف يعترف معنا بصراحة السرقة ، اذ كل ما خلطه في العوبته من الاشارات الى علوم الهيئة والهندسة والتأريخ واللاهوت وايات من التوراة والانجيل والمعتقدات واساطير اليونان والعادات القومية والامثال العامية ، والاحزاب السياسية المحلية والضغائن القومية وغير ذلك مما تعرض له – في غير محله كما سنبينه بعد هذا – لم يكن ليستر سرقته هذه عن اعين الناقد البصير ولله در القائل

ثوبُ الرياءِ يشفُّ عما تحتهُ فاذا التحفتَ به فانك عارِ

فاول ما فعل انه عاكس ما فعله ابو العلاء فانه نزل الى جهنم اولاً ثم طلع الى المطهر ثم منه الى السماء ، وانت تعلم ان ابا العلاء طاف بابن القارح على الفردوس اولاً ثم على جنة العفاريت ثم المطهر

يقول بقوله اللعن على مَن لعنَهُ ، وأنْ يُقال إنْ هذا الا وحيٌ يوحى ، وانه اخذ كل فصاحة فيرجيل وحكمته ، وعلى الجملة لينتصروا لرأيهِ فقد كان مملوءاً انانيةً ، كثير التطلع الى المجد ، وهذا لا ينفي ما ثبت من تحمسهِ في دينه .

خامساً - انه جعل جهنمهُ في اسفل الطبقات الارضية حسبما كان يذهب عامة اهل عصره ، وان المطهر اعلى منها طبقاتٍ ، وان فردوسهُ فوق ارفع جبال الارض ، فلم يرتفع عن سمتهم برأيٍ سميّ او مذهب عليّ ، لاسيما وانه شاعر ، ثم قسم جهنم الى طبقات بحسب الآثام وهي عنده سبعة او هي رؤوس الخطايا ولا نطيل بهذا ، ولكن لا بد لنا من توثيق مدّعانا عليه التشبه بانبياء اليهود ، وانزاله نفسه منزلتهم ، ببينة لا تدحض وذلك من اغنيتهِ التاسعة في الفردوس اذ يصور نفسه في محادثة مع الله ، وان روح الله حلّت بجملته وامتزجت بذاته فتنبأ عن طوفان دم يحدث ببلدة پادو(١) لعصيان اهلها واستنزل النقمة باسقفها - الجاحد - في زعمهِ وانها ستبكي طويلاً جنايتها الفظيعة الخ الخ . وكل ذلك لان الاسقف المذكور لم يكن من حزبهِ او حزب جماعته ، وانه اخبر عنهم او وشى بهم فهلكوا .

---
(١) Padoue

تُعرف اسمآؤها اليوم الا من العوبته او عن رافين وهي المدينة التي قضى بها آخر حياته ، وان تجاوزت هذه النواحي فالى رومة وهي مقر العرش البابوي ، واغلب محادثاته مع اهل النار تدور حول حوادث ايامه السياسية في تلك الناحية الصغيرة من ايطاليا ، ولعلها اصبحت اليوم مما يبحث عنها المؤرخ الراغب في التنقير عن الاحداث المحلية في هاتين المدينتين او ما يليهما في معاجم البلدان ، وانما ذكره ذلك كله في تلك الملحمة الطويلة وقد استحضر لمساعدته فيها روح فيرجيل اشعر شعرآء الرومان وخلطه فيها كثيرين من آلهة اليونان وابطالهم كان على نحو قولهم تمخض الجبل فولد فأرة ، فتراه اذا صور مضيقاً من مضايق جهنمه التي لا يُحدّ اتساعها ، او معبراً ، او جبلاً ، او غير ذلك ورام تشبيههُ بشيء من نوعه على وجه الارض ، فلا يذكر في الاكثر الا ما كان في بلدته او نواحيها ، كما تفعل العجوز التي تروم تلهية الاطفال بحكايات تقرب من اذهانهم فهمها فتقول : كان بيت السلطان في رأس الحارة وكان له بستان اكبر من جنينتي . ولعل جنينتها لا تزيد على بضعة اذرع ، وهذا يدلنا على ان غرض دانتى في كل بيت من العوبته كان الانتقام من خصومه في بلدته او نواحيها ، وكان جلّ قصده ان يقف اولئك الاعدآء على ما يقول فيهم ، وان يردد اصحابه ومن

حتى اظفارهم والقروح التي كانت منتشرةً فوق اجسادهم ووجوههم الهوائية، وحكهم باظفارهم تلك القروح الى كثير من امثال هذا الوصف الذي تقشعر منه الجلود، ولم يستكّ مثله في المسامع. ثم يحكي ركوبه مع ابيه فيرجيل متن فُلْكٍ اسود في بحيرةٍ مأوٰها اسود في دَركاتٍ مدلهمات وظلمات غامضات، ويصف ميل الفلك بهما لثقل جسمه المادي وخفة فيرجيل وهو روح، ثم يتنطس بذكر الخطوط المستقيمة والمنحرفة والزوايا والحنايا والاشكال البيضوية والمحدودبة والمتقوسة ونصف الزاوية والمربعات والمثلثات ودائرة البروج، كانما هو يملي على ابناء مدرسةٍ كل ما وعاه من اقوال طاليس وفيثاغورس واقليدس، ولم تفت بصرهُ الالوان المختلفة التي زعم مشاهدتها في جهنم في تلك المهاوي والمنحدرات، تحت اقصى اسافل الطبقات، في معترك عمى تلك الظلمات.

كل ذلك وهوَ هوَ بلحمهِ وعظمه وروحه ومادته وكامل ثيابه لم يُصب باذى النار، وهو يتنقل ويتخطر في ذلك الاخدود الجهنمي ويتنسم تلك الارياح وذلك الأوار، تصورات متناقضات وطوائف متضادات، بل هو خلط منظوم، او هذيان محموم.

رابعاً – ان اكثر تشبيهاته وتصوراته فقيرة محدودة لا تبعد كثيراً عن فيورنسا مسقط رأسه، او ما حولها من القرى التي لا

لو علم بها لانكرها عليه كما انكرها بعض مشاهير عصره ، وان كان يريد بفيرجيل سمو المعاني ، فليس في الهبوط الى جهنم ومشاهدة ما ذكره كبير معنى ، وقد الهب دماغه واتعب واسأمَ نقاديه وفيهم كاتب هذه السطور ، وذلك بما ابتدعه في جحيمهِ من التلال ، والاودية والجبال ، والحصون والاسوار ، والبحيرات والانهار ، والمهاوي والفلوات ، والمضايق والاعوجاجات ، والمخابىء والدهاليز والجسور ، والمنافذ والسواديط والقبور ، واناس بثلاثة ارؤس على كل كتف رأس ، واناس بثلاثة افواه وكل فم كفم تمساح وظلمات مدلهمات لم يحلم بها حالم ولا يدركها اشدّ العميان عمىً ، وكان يتهاوى في زعمهِ فيها تارةً وطوراً يسير بطيئاً وحيناً يقف يحادث من يريد في النار من اهل النار ، وهم يتضرمون ويتوجعون ويدورون دورة الرحى بسرعة البرق تنهشهم الافاعي وتلذعهم الحرور الجهنمية او هم يتخبطون على جبال من نار ، او يسبحون في بحار من الماء المدلهم ، او هو بُخار النار ، ولكنها مياهٌ سود قاتمة ذات ريح خبيثة لا تحكيها في فسادها ريح من رياح الارض ، ومنهم من كانت تقذف بهم تلك الامواج الجهنمية على الدوام بين صعود وهبوط ، وهم ارواح لا تُنظَر ولا تلمس كالهوآء ، ومع ذلك فانه كان يشاهد - بزعمهِ - كل حركة من حركاتهم ، ويعاين جميع ملامحهم

من شقاوتهم الخ. هو وحده غرضه من العوبته ومعراجهِ المزعوم بل للفخر ومباهاة شعرآء عصره قسط كبير، ولعلهُ قد تنبأ عن نفسه اصدق النبؤة بهذه الدعوى فقط، فان اكثر ارباب العلم في اروبا قد اجمعوا على انه ثالث شعرائهم كما ذكرنا ولعل ذلك كان في القرن الثامن عشر.

على انه لو لم يكن الى تلك الشهرة طموحه، ولهذا العز الاقعس جنوحه، ألم يكن الاجدر به ان يطلب من معشوقتهِ بياتريس (وتعريبها الغبطة) اوكما دعاها في بعض شعرهِ (الغبطة الالهية) ان تبعث اليه بملَكٍ من الفردوس يكون دليلهُ في تلك الظلمات الحالكات، او بسادنٍ من سدنة جهنمه عارفٍ مَن فيها، من اتخاذهِ فيرجيل دليلاً وهادياً؟ ولعله كان يريح القارىء من تكرار لفظ انا لأبي وابي اليَّ يريد قلت لأبي وقال لي ابي واجابني ابي مراتٍ عديدة في كل صفحة من الالعوبة، وان قيل انه اراد بهذا التكرار ايضاح استعانتهِ بروح فيرجيل ليوحي اليه ما نظمه، فنجيب عن ذلك انه ان كان يرجو منه ان يوحي اليه بعلم العروض والقوافي، فالشعر وجد عند الرومان قبل فيرجيل وهو يعلم ذلك وفيرجيل لم يكن واضع هذا العلم، وان كان اراد ان فيرجيل كان يوحي اليه اللفظ والتركيب، فهو كان ينظم بغير لغة فيرجيل، بل

وقد ذكرنا قبل هذا ان دانتي كان صلباً في دينهِ ، شديداً في مذهبهِ ويقينه ، فلم يكن ليدور في خلدهِ شكٌّ في جل ما قرأه او وصل اليه من اساطير الاولين ، بل من الخرافات التي كان يتناقلها معاصروه عن معجزات ينكرها اليوم عقلاء المتدينين ، وكان نقد شيء من ذلك بعيداً عنه بعد الارض من الجوزآء ، وان اقصى ما اوحاه اليه خاطره عند نظمهِ شمل الالعوبة ـ ان ينتزع الاحيآء من شقآئهم في هذه الدنيا ويقودهم الى السعادة الخالدة ـ كما روى هو عن نفسه ، ولكنه وإن كان صافي السريرة بهذه الدعوى ، فقد كان يطمح ببصره الى المجد وان جعل وسيلته العلويات ، وفي نفسه من الحقد والعداوة وغيرها من خسائس الارضيات ، ما اتخذ لها الهبوط والعروج اسبابا ، ومهد للولوج فيها طرقاً وفتح ابوابا ، فطرح في جهنم من شآء من اعاديه وخصومه ، ثم من خالفه في مذهبهِ السياسي وارآئه في الدين ، وجعل اسم فيرجيل عوذةً له يدفع بها اعتراض المعارضين في طريقتهِ الشعرية باللغة الطليانية بديل الرومانية ، ليوهم العامة من القرآء انه كان يوحى اليه بشعرهِ هذا من فيرجيل فيُعظِّم اسمه وتذيع شهرته بتكرارهِ يا أبتِ وجواب فيرجيل يا بُني ، وقد صرح في الاغنية الرابعة يعدّ نفسه سادس شعرآء الدنيا ، ومن ذلك تتحقق ان ليس « انتزاع الاحيآء

ثالثاً - ان هوميروس اشعر شعرآء اليونان ، وفيرجيل اشعر الرومان ، قد سلكا في اشعارهما على نقل الحوادث التأريخية وروايتها ، ولم نعثر على كثرة ما بين ايدينا من كتب الافرنج وغيرهم ، على الطريقة التي جرى عليها المعري في رفع مخاطَبِهِ الى الفردوس العلوي ، وارآئتهِ من اعاليه مشهداً من الجحيم ، وتنقيلهِ صاحبه (وهو ابن القارح) في عَرَصات الجنان ، ومكالمته مَن بها من الانس والجان ، والقآئهِ على قدماء الشعرآء وغيرهم من الجن اسئلةً اجاب عنها بلسانهم ، مفصحاً عن رأيهِ ومذهبه الى اغراض كثيرة في طي ذلك .

وكأن دانتي لفرط ما اعجبتهُ ، ولم يكن لديهِ صديق كابن القارح يثق به ، رأى ان يكون هو نفسه ابن قارح عصره وهو الاشبه بما يرويهِ ، ولكن لما لم يرَ اباعلائنا ولا هو ممن يلائمه اختار فيرجيل دليلاً وهادياً في تلك الهاويات المظلمات ، والهابطات العاتمات ، وكأني به اخذ كلام ابي العلاء على ظاهره ، ففهم ان ذلك عروج تقوى وخشوع ، وانّى له ان يتبطن ما ورآء ظاهر اللفظ من المغامز وهو ليس ابن اللغة المتمكن منها ، او ان يجسر المترجم الى نقد ما هنالك او الاشارة اليه - ان كان قد زكن شيئاً منه - وهو في بحبوحة القرون المتوسطة وتحت ظل محاكم التفتيش ؟

على السماء كالقديس ساتوُ والقديس باربَتوُ والقديسة كاترينا وغيرهم ، او عن المطهر كالقديس باتريس ، او عن جهنم فقط كما رووا عن سواه ، ولم ينفرد عن كل هذه الجماعة الا راهب واحد يدعى البيريك ، ولدى تقصينا البحث عن موقع دير هذا الراهب ، علمنا انه مدينة كاسينو بايطاليا ، ووجدنا فيها دار كتب حوت اربعين الف كتاب بينهما خمسمائة كتاب مخطوط من اندر الكتب ومنها نسخة خطية من الالعوبة الالهية وفي هذه الدار صورة دانتي الاصلية ، فقد يكون الراهب المذكور البيريك ـ وكانت الرهبان في القرون المتوسطة خَزنَة العلوم ، وسدنة المنثور والمنظوم ـ او يكون دانتي نفسه ، او كلاهما طالع رسالة الغفران العربية او المترجمة بين تلك الكتب المخطوطة النادرة وهو ما لا يشك فيه الناقد .

ثانياً ـ ان جميع العارجين والهابطين ، قد احتذى متأخرهم على مثال المتقدم ، فكان مجمل كلامهم عن الفردوس لا يتعدى ما عاينوه في زعمهم من الاعاجيب ، ووصف لذاذات الارواح في ذلك النعيم ، وتفصيل انواع التعذيب وضروب الآلام التي يُجزى بها الاشرار في الجحيم ، على اختلاف في اللفظ وطرق الوصف والتعبير ، واتفاق في وحدة الصورة وان اختلفت الوان التصوير ، إذن دانتي لم يذهب الى محاكاة هولآء .

مليوناً من البشر او يزيدون ، بل قل اوروبا باسرها واضف اليها اميركا واليابان ولا تخف غلوّاً في هذا القول ، فحسبك ما قالوه يوم اليوبيل العظيم على مرور ستمائة سنة لوفاة مؤلفها دانتي ، واعترافهم بالاجماع انه ثالث شعرآء الدنيا منذ خلق الناس ـ خلا شعرآء العرب ، اذ لم نجد للامم الفرنجية الى اليوم مَن استطاع ان يقدر الشعر العربي حق قدره من جميع المستشرقين ، ولا مَن نظم بيتاً بالعربية ، فهم اذا تكلموا عن الشعر والشعرآء كان كلامهم عن اللغات اليونانية واللاتينية والسكسونية وسائر لغات اوروبا ، وان هم قالوا عامة اللغات او عموم الامم ـ نقول ان اعترافهم بتلك العبقرية ، وتفاخرهم بالالعوبة الالهية يعود في الحقيقة الى المبدع المبتكر الحقيقي وهو ابو العلاء المعري صاحب رسالة الغفران واليك الدلائل والبرهانات الآتية :

٥

اولاً ـ ان كل من تقدم دانتي من كتاب الفرنجة وشعرآئها ، لم يروِ عن احدٍ من اولئك الابرار الذين نسبوا اليهم العروج الى السماء او الهبوط الى الجحيم ، انه هو نفسه عرج او هبط ، وهذا اقدمهم بولس الرسول يحكي عن السماء فقط ثم بعده يوحنا لا يتكلم عن سواها واما مَن جاء بعدهما ، فاما ان يحكي عن عروجه

حكمة ينظمها الشاعر بلفظ انيق ، او وصف شيء من مظاهر الكون او غيرها مما تنبسط له النفس كالحسن والحب ، واما وصف الفردوس بما لا يخرج عما ذكرته كتب الاديان وبما رُوي عن بولس الرسول او بما ذكره يوحنا في رؤياه وبما روي عن غيرهما على مرّ ثلاثة عشر قرناً الى عصر دانتى ، كل ذلك لم يبقِ وصفاً لواصف على ذلك النحو او زيادة لمستزيد ، فما عسى ان يقول دانتى بعدهم او يجيد ؟

فاذا انعم الناقد النظر فيما بسطناه ، لم يرَ بُداً من القول معنا ان دانتى قرأ رسالة الغفران العربية او ترجمتها ورأى ان يقلدها على سجيته ، ولاسيما ان قرآء العربية بل اللاتينية نفسها لم يكونوا لعهده الا جماعة قليلة العدد ، واقل منهم من كان يقرأ الكتب المترجمة عن العربية او العبرية .

وليس قصدنا في هذه الموازنة الحطّ من قدر دانتى ببيان سرقتهِ الموضوع من شاعرنا المعري الفيلسوف ، فقد سرق شعرآؤنا وغيرهم قبل دانتى وبعدهُ وسيسرقون الى يوم الدين ، وهو نفسهُ لم يكن مبتكراً كما ذكرنا غير مرة ، ولكن لنُعلمَ نفراً يجهلون مدى اداب لغتنا ويكفرون بنوابغنا ، ان انفس ما خلدتهُ عبقرية القرائح من الصناعات البديعة ، وهو الالعوبة الالهية التي يفاخر بها ثمانون

لعهد دانتى عن عروج بعض القديسين في الاعصر الأُول للمسيحية على السماء او اختطافهم اليها وهبوط بعض منهم الى جهنم ، وكلها من الخرافات الموضوعة التي كان يتناولها السُذَّجُ والعجائز البله في اول شيوعها للتيمّن والارهاب ، ثم ما فتئت تتجسم منذ القرن الثامن قرناً فقرناً حتى بلغت في القرن الثالث عشر من جسامة الوصف والارهاب والتهويل عن العذابات التي تصيب اهل الجحيم ما لا يحيط به وصف ، وان هذا ما دعا دانتى الى نظم العوبته . وقد يكون في ذلك شيءٌ من الحقيقة ، لما يراه الناقد من اطالته في اوصاف التعذيب في جحيمه وتنويعها وتبويبها ، فالهب دماغهُ باختراع وحوشٍ وافاعٍ وصنوف نيران قاتمة مظلمة سامة محرقة ، واهويةٍ نارية جليدية ، الى ما لم يسبقه اليه سابق ، وقد لا يلحقه فيه لاحق ، الا ان احتذآء اولئك الراوين والمؤلفين يقف به عند هذا الحد من وصف مشاهدة العذاب والغبطة ، اذ ليس فيه سوى روايات واقاصيص عما عاين اولئك المزعوم صلاحهم في السماء او في جهنم ، وليس فيه تخييل شعري ولاسيما في جهنم ، بل ان وصف العذاب والنيران مما تستك من سمعهِ الاذان ، وان ما يتناقله الناس في اي قطر من الاقطار حتى يمسي مبتذلاً ترويه عجائز الحمى ، ليس بالذي يُتهافت على نظمه شعراً ، ولاسيما اذا لم ينطوِ على

اعتقاده ان تُخلَّد في عذاب النار وان ينادي صاحبها يا ابي ويا مرشدي وان تصعد معه في معراجه على المطهر وهو مكان الابرار الصالحين يمكثون فيه برهة من الدهر ريثما يتطهرون فيه من الاوزار ، وكيف وفّق في منطقه بين تلك المقدمة وهذه النتيجة ؟

على ان دانتي لم يكن مبتكراً كما ذكرنا غير مرة ، وكما اجمع رأي الناقدين البصيرين في كتاباته ، بل كان التقليد سجيةً من سجاياه ، ولذلك نراه يسمي كويدي كونيجيلي المشترع من اهل بولون ابي ايضاً ، وهو سابقهُ في الطريقة التي دُعيت لعصره بالانشآء الحلو الجديد ، ومثل ذلك يدعو فيرجيل اباه يريد بذلك ان يسميه اهل عصره ابن فيرجيل او خَلَف فيرجيل ، لشهرته البعيدة في الشعر اللاتيني ، ولشعره هو في الانشآء الحلو الجديد ، كما كانت تسمى يومئذٍ اللغة الطليانية .

وقد يُقال انهُ كرّر كثيراً قرآءة سفر الرؤيا المعروف برؤيا يوحنا ورغب في محاكاته ، ولكن ينفي هذا الزعم ما تحقق من صلابته في دينه وذهابه فيه الى اقصى حدود الغلو ، فلا يُعقل انه يتحرى محاكاة سفر من اسفار التوراة او الانجيل .

وزعم بعض شرّاحه ومنتقديه — ولا علم لهم برسالة الغفران ولا باسم ابي العلاء — ان الروايات كانت شائعة في تلك الاقطار

من الارآء العلمية ، والمعتقدات الدينية ، والمذاهب الفلسفية ، والحوادث التأريخية ، واحوال المجتمع لعصره في قطره . مما خلّد اسمهُ في تأريخ الامم الغربية حتى عدّوه اشعر شعرآء الطليان وأحد افراد شعرآء الدنيا . غير انه لم يسلم من ايدي النقاد ، ولا بدع فالكمال لم يُقسم لاحد من البشر الى يومنا هذا ، ولو شئنا ان ننتقد ما ضرب عنه صفحاً كثير من نقّاديه لطال بنا مجال القول ، ولاسيما اننا لا نتعرض في هذه الموازنة الا لما بين الالعوبة الالهية وبين رسالة الغفران من القرابة والصلة ، ولما بين صاحبيهما من التفاوت في الاخلاق والحياة العملية ولمكانهما في المجتمع الانساني بل في وطنيهما ، وبين قوميهما لعصريهما .

وحسبك ان تعلم ان دانتى استعان في هبوطهِ الى جهنم وفي معراجهِ على المطهر ، بروح فيرجيل شاعر اللاتين وهو في مذهبهِ من اهل النار لانه كان وثنياً كما تعلم ، بل انه يدعوه ياأبتِ ويا ابي الحبيب ويامعلمي ويامرشدي الحكيم ، ويسأله ان يلهمه الثبات والصبر والشجاعة ، والعقل والفصاحة ، ولا يخفى ما في ذلك من التناقض ، اذ كيف يجوز له وهو النصراني الكاثوليكي المتحمس الى اقصى غايات التحمس الديني ، ان يصاحب ويستعين ويسترشد بروحٍ ملعونةٍ خبيثةٍ هي روح فيرجيل الوثني التي قُضي عليها في

من شعره في ألعوبته ليس عليها مسحة من لهجة انبيآء اليهود في اسفار التوراة ، ولهذا قلنا في ما تقدم انه كان يجنح الى محاكاة الانبيآء ، واليك قولهُ في بعضها ، اذ هو في المطهر يخاطب وطنه بلدة فلورنسا ـ في الاغنية السادسة ـ :

« كم من مرة ـ منذ العهد الذي تعلمينهُ ـ بدّلتِ شرائعكِ ومذاهبكِ وعاداتكِ ، انكِ تتذكرين ذلك حق الذكرى ولستِ عميآء وستجدين ذاتكِ كتلك المريضة التي لم تكن تجد راحةً الا بآلامها في تقلبها على جراحها » .. ودونك قول السيد المسيح : « اورشليم اورشليم ياقاتلة الانبيآء وراجمة المرسلين اليها ، كم من مرةٍ اردتُ ان اجمع اولادكِ فيكِ كما تجمع الدجاجة فراخها » ومثل ذلك قول ارميا واشعيا قبله .

ويفتتح اغنيته الاولى من السماء هكذا : « المجد لمحرك الاشيآء كلها ، من يملاء الاكوان وينير بعضها على درجات متفاوتة ، في السماء التي تنال اعظم نصيب من نورهِ كنتُ وعاينتُ اشيآء لا يستطيع ان يكرر ذكرها النازل من الاعالي » أما هذه لهجة انبياء اليهود ؟ ولا عجب في ذلك فان غرض داتى من تأليف الالعوبة ـ كما صرح هو بذلك ـ « ان ينتزع الاحياء من شقائهم في هذه الحياة الدنيا وان يقودهم الى الحياة الخالدة » وقد ضمّنها كثيراً

اكثر فكّر بوكاچّه في جمع ترجمته ، فقد سافر كثيراً وتنقل بعد نفيه ولا يعلم على التحقيق كم قضى من الزمن في البلاد التي تنقل فيها ولا ُعرفت اسمآؤها بلداً بلداً .

وهب انه لم يدرس العربية ـ وهو ما لنا عليه غير ما تقدم من الادلة على سرقة رسالة الغفران ـ أما اوضحنا كيف كانت تُتَرجم كتب العلوم وادابها من العربية الى اللاتينية بشهادة مؤرخي تلك القرون ؟ فهل ُيعقل ان دانتى لم يقف على كثير من تلك الكتب ومن جملتها هذه الرسالة الشعرية المعاني وهو اشعر شعرآء الطليان ؟

اما الالعوبة فهي الملحمة التي اشتغل بتأليفها كل المدة الاخيرة من حياته ، وقد ابتدأ بنظمها ، فيما ظهر للمحققين ، سنة ١٣١٠ وقد يكون نظم كثيراً منها قبل ذلك التأريخ ، وهو لم يسمها الالعوبة الالهية بل الألعوبة ، وانما نعتُها بالالهية كان بعد موته ِ ـ واظن بعد موته بزمن طويل ـ ولم اعلم مَن هو اول مَن نعتها بالالهية .

واقبل دانتى على دراسة اكثر علوم عصره ولاسيما الفلسفة الا انه جعل فلسفته خاضعةً لعلم اللاهوت او مزيجاً منه ، او هي علم الكلام عند المسلمين ، وكان متشبعاً من قرآءة التوراة وغيره من كتب الدين ، وكان شديد العصبية للغته ِ الطليانية ، شديد التحمس في دينه ، قوي الاعتصام به ، حتى انك قلّ ان تجد قصيدة

نريد ان ننظر ونقول في ما لم يقولوه ، اي في احتذآئهِ اسلوب شاعرنا المعري في رسالة الغفران ، بل سرقة موضوعه وتخلفه عنه في السمو والبيان .

وقد بسطنا قبيل هذا شأن رواج العلوم واستبحار المعارف عند العرب في الشرق والغرب قبل ان يولد دانتى ، وما قاله مؤرخو الافرنج انفسهم عن كثافة سحب الجهل عندهم في تلك القرون ، وان مَن كان يريد التعمق في العلوم عندهم ، كان يتحتم عليه ان يقصد مدرسة قرطبة ، فلا عجب بعد هذه الشهادة اذا ما قصدها دانتى ودرس العربية فيها ، وان كان لم يقل بذلك احدٌ من مترجميه ، اذ جميع الذين ترجموه نقلوا عن بوْكاچّه (١) ، وهذا لم يعلم من امر دانتى شيئاً الا بعد وفاتهِ في هجرته بسنين كثيرة ، اذ كان منتهى بحثهِ عن احوالهِ في زوايا دور الكتب ، ودكاكين باعة الكتب ، وسؤال من كان حياً من عارفيه بعد وفاتهِ بثلاثين سنة على اقل تقدير ، ومثل هذا البحث في مثل ذلك العصر لا يُعوَّل كثيراً عليه عند الناقد النزيه ، اذ يظهر منه دليل واضح على ان الرجل قبل وفاته بعدة سنين ، لم تكن له شهرة كافية لان يُردَّد اسمهُ او شعره في فلورنسا او غيرها من البلاد ، وانهُ بعد موته بثلاثين سنة او

(١) Boccage

تختمر فيهم ملكة المعارف ، وعدد ادعياء الادب اضعاف العدد الضعيف من الراسخين في العلم ، فكم بيننا من يتفاصح اليوم بامثال امررتُ مخصرتي ، واستنهض القريحة ، وارفض القلب ، وحبذوه وحبذناه ، وغضب الطبيعة الحانقة ، والقامة المسهبة المسرفة في النمآء ، الى مئات من امثال هذا الهذيان والخلط ، وكم بيننا من يقلد هولآء ، ومن يتمنى ان يكتب على هذا المثال المضحك السقيم ، اي ان يكتب ما لا يفهمه هو نفسه ، ولا يستطيع تعبيره اذا سُئل فك معمّاه ، وانما هو عاشق التخييل او الوهم او المجاز مفهوماً او غير مفهوم ، ولكنه يهرب من الوضوح ولا يحب الحقيقة ، او كانهُ يخشاها وهو نفسه لا يدري اسباب ذلك ، وهذا ايضاً سرٌّ من اسرار هؤلاء الكتبة واشياعهم يحار فيه الناقد ، ولعلهُ نتيجة ظلمة قرائحهم ، وزعم بعضهم انه دليل على غرائز تتجنب الصدق ولله في خلقه شؤون . ونرجع الى موضوع كلامنا .

وترتسم الصنعة على شعر داتني الغزليّ كله ، حتى ليُرى انه يتعمد التلبس بلباس الهائمين كل الهيام ، ولهذا قال كثيرون من ناقدي شعره ، انه كان يحتذي طريقة بعض الشعرآء المشهورين لعهده او مَن تقدمهم ، وانه لم يلج العشق فؤاده ، ولعل هذا الحكم جائر ، ونحن في نقدنا هذا لا نروم ان ننظر في كل ما قالهُ نقادوه ، بل

وكانوا يعدّونها اسمى انواع الشعر ، وكانت طريقتهم في الغزليات شبيهة بغزل المتصوفة عند العرب ، الا انهم كانوا يصرحون بروحانية المحبوب وقدسيته فكان شعر الصوفيين عندنا في صفة المحبوب وصفاً لبس من ثياب الغرام البشري جلبابا ، واتخذ له من ستور الظنون وبراقع الخيال حجابا ، وهو افعل في النفوس واحب الى القلوب واطرب في المسامع من شعرهم ذاك المصبوغ بصبغة العبادة ، بل هو لحن ديني لا يطرق السمع حتى تحسب نفسك قائماً في احدى الكنائس ، بين الشموع والمباخر والقلانس والبرانس . واليك تعريب بيت لشاعر من معاصري دانتى « ايها الوجه المَلَكي الآتي من السماء لنشر السلام وَمن طَبَع عليه آلهُ الحب كلّ فضيلةٍ » .

وكانوا يقسمون العشق الى مراتب ، ويطرقون في وصفهِ ابواب الفلسفة وغيرها من العلوم ، وينحون في تبويبهِ وتقسيمهِ نحو الالفيات النحوية وغيرها من الاراجيز العلمية .

وكانت اغاني دانتى في اول امرهِ غزليةً اي مصبوغة بصبغة العشق البشري ثم نحا تدريجاً نحو التعبد ، وشرح بكتيبٍ نثري اغانيه ، فكان شرحهُ هذا الغازاً ومعمياتٍ مُغلقة ، بيد انه نال بها شهرة لم ينلها بكل اناشيده ، وليس ذلك بالمستغرب بين قومٍ لم

مضض البلاء وهل يدفع البلاءَ تجلّد او جَلَد؟ الى ان دعاهُ احد علماء النحو (اللاتيني) من مدينة بُولُونيا للقدوم اليها سنة ١٣١٨ ليعقد على رأسهِ الأكليل الشعري، ولكنه كان يتمنى ان ينالهُ في وطنه، فلم يُقسَم له ذلك، اذ قضى في الرابع عشر من شهر ايلول للسنة الحادية والعشرين بعد الثلثمائة والالف في بلدة رافين وهو في السادسة والخمسين من العمر.

هذا مجملُ ما وقف عليهِ المؤرخون، وانتخلهُ المحققون والنقادون، من ترجمة هذا الشاعر الكبير، وهي ادنى ان تكون قصة قائد جيش او وزير، طمح ببصره الى الرئاسة، وجنحت به نفسه الى منازع السياسة، بل تاقت الى التشبه بالاولياء، ومحاكاة الفلاسفة والانبياء، وسنورد بعد هذا ما يؤيد قولنا.

على انه وان عُدَّ اشعر شعراء الطليان، فلم يكن مبتدعاً بل كان في كل ما كتبه مقلداً مَن تقدمهُ، طابعاً بمعانيه على غرار من سلفه وانما عُدَّ اشعر شعراء الطليان لانهم لم يكونوا ينظمون الشعر العالي الطبقة عندهم الا باللاتينية.

وكان اول ما نظمهُ الاغاني وذلك باللغة الطليانية، وهي لعهده اللغة العامية في توسكانا ولومبارديا وسائر شيشيليا، وكانت الاغاني في القرن الثالث عشر عندهم احب شعر لدى جماعات الاكابر،

ثم انتقل الى مدينة بادوا ووجد له عملاً عند احد امرآئها ، اما رحيله الى باريس ، فاكثر المنقّبين على انه في نحو تلك المدة اي سنة ١٣١٠ ومنذ ذلك التأريخ نزع عن السياسة كما يرى الناقد في تتبّع أُغنيّاته لذلك العهد ، واقلع عن الطعن في وطنه بعد ان كان يهجو من حكم في نفيهِ عنه ، وصار يحنّ اليهِ اشد الحنين ، والسبب في ذلك انه كان مشتغلاً يومئذٍ بالمطالعة والدرس المتواصلين ، وقد ساعده على التفرغ لهما اكتسابه عطف وصداقة احد العظماء ، ثم حدث في ذلك التأريخ بعض الاحداث السياسية مما انعش فؤاد دانتى وجدّد في نفسه امل العودة الى وطنه ، ولكن لم يكد يهب نسيم ذلك الامل حتى جرت الرياح بما ابدل منه الرجاء بالخيبة وقطع اوصال تلك الامال فاستعاذ باليأس فاوحى اليه قصيدة هجا بها وطنهُ وسكانه وتوعدهم بنقمة امبراطور المانيا هنري السابع ، وشفعها بثانيةٍ حرّض بها الامبراطور على اكتساح فلورنسا ، واستنزل صواعق غضبه عليها وعلى مَن فيها قتلاً ونفياً وتعذيباً ، غير ان الامبراطور ارتد عنها بالفشل ومات على اثر جراحهِ حزيناً غريباً ، فرشقت حكومة فلورنسا دانتى واولاده بحكم القتل جواباً على قصيدته .

وراح بعد ذلك يتنقل من بلد الى بلد ، وهو يتجلد على

وتوغلوا في الاستقصآء، فاماطوا الاستار عن كثير من احوال الرجل، ومزّقوا براقع الخرافات التي نسبها اليه الرواة، حتى عدّهُ العامة بعد وفاته ببضع سنوات في مصاف الاولياآء، وجعلهُ بعضهم في منزلة الشياطين.

وجملة خبرهِ انه من أسرة لها في وطنها مقام معروف، وانْ لم تكن عريقة في المجد، وقيل انه تجند سنة ١٢٨٨ للدفاع عن وطنه وحارب فيمن حارب من قومه، واهم حوادث شبابه، كان عشقه الذي خلد تذكاره في شعره المعنون بـ «الحياة الجديدة»، وفي سنة ١٢٩٥ تزوج وولد لهُ ولدان وبنتان في سبع سنوات، وعقيب زواجهِ اشتغل بالسياسة ووجه اليها كل قواه، تابعاً حزب اسلافه، ولم ينل منصباً عالياً كما جاء في الروايات التي تحلت بها ترجمته السائرة.

ووقع في مدينة فلورنسا منذ سنة ١٣٠٠ حتى سنة ١٣٠٣ اختلافات سياسية عقبها اضطراب وثورات اهلية، نفي في إثرها دانتى في جملة ستمائة رجل من مواطنيه وُحكم على كثير منهم بالقتل.

وعقب هذه الحادثات كان يتنقل شريداً من مدينةٍ الى أخرى لا يملك نقيراً وهو يترقب العود الى وطنه ترقب الصائم هلال العيد، وقد اتيح له اول ملجأ لجأ اليه عند رجل من كبرآء لمبارديا،

بعض متنصرة اليهود . . . وقال بعد ذلك فقد رأيتَ كم كانت انوار المعارف التي انارت شديدة الضياء ، وان ما وصل منها الى عالمنا الغربي لم يكن الا شفقاً من ذلك النور ، اذ انه لم يصل الينا ، الا عند تراجع العرب وانحطاطهم واضمحلال دولهم . (انتهى محصل ما ورد في الموسوعات المذكورة) .

اقول عوداً على ما سبق فاذا علمتَ ذلك كله لن يبقى في نفسك سبيل الى الشك في ترجمة رسالة الغفران في جملة الكتب الى اللاتينية ، وقبل ان نرى في الموازنة بين رسالة الغفران والالعوبة المشهورة بالالعوبة الالهية لدانتي شاعر الطليان ، يجدر بنا ان نلمَّ شيئاً من ترجمته كما فعلنا ببسط شيء من ترجمة المعري للموازنة بينهما .

٤

ولد دانتي (او دانتهْ) الليّجْيِيري في مدينة فلوْرِنسا سنة ١٢٦٥ اي بعد وفاة ابي العلاء المعري بمئتين وثمان سنين ومات سنة ١٣٢١ في السادسة والخمسين من عمره ، ولم يكن مرّ على وفاته خمسون سنة حتى تداخلت ترجمته الخرافات ، وتعاورتها السن الجماعات ، ثم لم تزل تتلففُ وتتكاثف ككرة الثلج الساقطة من جبال الثلج على وادٍ حتى اواخر القرن الخامس عشر .

على ان ذلك لم يقف في طريق المحققين ، فقد بحثوا ودققوا

التي طبّقت شهرتها الافاق ، قد تخطت بغاية السرعة جبال الپيرينِه فسار اليها احد الشمامسة من اهالي اوڤير وهو المدعو جيربير ، فاخذ العلوم عن الاسلام ولم يكن ذلك ليصدّهُ عن الارتقاء الى البابوية باسم سيلِفستر الثاني، ثم قام بعدهُ بثلاثة قرون باكون احد مشاهير العلماء في القرون المتوسطة فنصح مزيد النصح بتعلم اللغة العربية بعد ان درسها هو ، ومن اقواله المأثورة ان الله يهب الحكمة لمن يشاء ولم يرَ ان يهبها للّاتين ، وان الفلسفة لم تكن منذ اقدم العصور الا على دفعات ثلاث، وذلك عند العبرانيين فاليونان ثم العرب ، وقال ايضاً ثم قام بعده ـ اي بعد البابا سيلفستر ـ ببرهة من الزمن البابا اكليمنضوس الخامس فامر بتدريس العربية في مدارس باريس واوكسفورد وبولونيا وسلامنك ، ومما لاريب فيه انه كان قد تُرجم كثير من الكتب العربية وانما الضعف اخذ بمخنقها فتعاورتها الاغلاط ، لانها تُرجمت عن اصلها ترجمةً حرفية دون تضلع من العلم او خبرةٍ في النقد ، وذلك بان يضع المترجم الكلمة اللاتينية تحت اللفظ العربي، وعند ما كان يفوته فهم الاصل العربي كان يدعه دون ترجمة ، وكم من كتاب نُشر باسم استاذ في احدى المدارس يومئذٍ ولم يكن له فيه غير الاسم ، بيد انه وُجدت كتب اخرى كان حظها من ضبط الترجمة اوفر ، وتلك باقلام

من العلمآء المتفننين ابو بكر محمد بن طُفيل احد فلاسفة المسلمين قرأ على جماعة من المتحققين بعلم الفلسفة منهم ابو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه . . . ولم يزل ابو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الاقطار . . . وهو الذي نبَّهَهُ على ابي الوليد محمد بن رشد . . . »

فاذا علمت ذلك وأنَّ مؤلفاته ومؤلفات من سبقه وتأخر عنه من كبار فلاسفة العرب قد ترجمها الى اللاتينية او الى العبرانية ومنها الى اللاتينية علمآء اليهود من العرب في الاندلس ، وان الاندلس كانت منذ وفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٩١٢ مسيحية (٣٥٠ هجرية) منتجع العلوم ومحط رحال العلمآء من كل صقع ، وكان لا يظهر كتاب علم او ديوان شعر لنابغة من نوابغ العرب في المشرق الا تهاداهُ اكابر الاندلس وعلمآؤهُ واستنسخوه وتداولوه ، واذا علمت ان الامم الافرنجية كانت تأخذ العلوم عن اسلام الاندلس منذ القرن العاشر ، اي قبل وفاة ابي العلاء بخمسين سنة ، قال في موسوعات العلوم الفرنسوية الكبيرة ما تعريبه :

قد عرف امم اوروبا يومئذٍ (اي عند مخالطتهم عرب الاندلس) انَّ من كانوا يزعمونهم بربراً ، هم ارقى كعباً في المعارف من اوروبا المسيحية ، وانه يجب الاقرار طوعاً او كرهاً بان العرب كانوا يعرفون فنون السلم كمعرفتهم فنون الحرب ، وان مدرسة قرطبة

والفنون والاستقصآء في شاذ اللغة وغريبها ، والتبحر في عقباتها ورحيبها ، طائفة وافرة وفوائد باهرة ، فلا تكاد تنتهي من حسن حتى يبدو لك ما هو احسن ، ولا تمرّ بفكاهةٍ حتى تقع على ما هو اطيب منها وافكه ، ولا بغريبة حتى تقرأ ما هو منها اغرب ، فلا بدع اذا ما تناقلها الركبان ، وتهاداها اهل كل زمان ، وباتت حَليَ الاذان في كل مكان .

ولا ريب في شيعوعة رسالة الغفران منذ عهد مؤلفها وتداولها بين اهل المغرب ، ولا سيما اهل الاندلس ، وكان يحكمها لذلك العهد ملوك الفضل وبدور السعد بنو عبّاد ، ثم حكمها بعدهم يوسف بن تاشفين ، قال التميمي في تاريخهِ « فانقطع الى امير المسلمين من الجزيرة من اهل كل علم فحولُهُ حتى اشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار » وذكر اسمآء طائفة كبيرة من الاعلام .

ثم حكمها بنو عبد المؤمن قال التّميمي ايضاً في كلامه عن ابي يعقوب بن عبد المؤمن « ولم يزل يجمع الكتب من اقطار الاندلس والمغرب ويبحث عن العلمآء وخاصة اهل علم النظر الى ان اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملكٍ قبله من ملوك المغرب ، وكان ممن صحبه

خلال الجملة مما يفقد الكلام كثيراً من فكاهته، على اننا ننتقد الرجل صنعته ونحن في القرن العشرين وبيننا وبينهُ عشرة قرون، وانت لست تجهل ان لكل عصر طريقةً من التعبير وضروباً من الانشآء يألفها اهله، كما اوضحنا ذلك في غير هذا البحث (١)، ثم ان الرسالة أُنشِئَتْ لغرض مخصوص فلا يُنكر على منشئها اغرابهُ فيها وكلها عجيب في عجيب، وكانهُ قصد فيها المشاكلة التامة، اذ لما كانت المخاطبة في اغلبها مع شعرآء الجاهلية فقد لا يخطىء الظن اذا قلنا انه اراد ان لا يكون لفظهُ بعيداً عن الفاظهم، لاننا نرى شعرهُ في سقط الزند بل في نفس اللزوميات، من اكثر شعر ذلك العصر وضوحاً، مع انه مقيد بالوزن والقافية ولزوم ما لا يلزم وحصر المعاني في جُملٍ محدودة، وقد يكون اراد الافادة بذكر الكلم العويص وتفسير اكثرهِ كما فعل، وانت تعلم ان معاجم اللغة (وقد كانت لعهدهِ قليلة جداً) وكتب علومها لم تكن متيسرة لاكثر محبي العلم وطلابه في تلك القرون.

وعلى الجملة فان الرسالة قد جمعت من بدائع الابتكار وبدائه التخيّل ودقائق التصور وغرائب التشخيص ومحاسن التصوير ولطائف الانتقال وروائع المنظوم، واشارات الى كثير من العلوم

(١) الجزء الاول من كتابنا هذا.

من جزيرة العرب شقّ ذلك على الجالين ، فيقالُ ان رجلاً من يهود خيبر يعرف بسُمَير بن ادكن قال في ذلك

يصول ابو حفصٍ علينا بدرّه[١] رويدَكَ ان المالَ يطفو ويرسبْ
كأنك لم تتبع حمولةَ ماقطٍ[٢] لتشبعَ انَّ الزادَ شيءٌ مُحبَّبُ
فلو كانَ موسى صادقاً ما ظهرتمُ علينا ولكن دولةٌ ثمَّ تذهبُ
ونحن سبقناكمْ الى المينِ فاعرفوا لنا رتبةَ البادي الذي هو اكذبُ
مشيتمْ على اثارنا في طَريقِنا وبغيتُكمْ في أنْ تسودوا وتُرهبوا

وكقوله بعد ذلك : واما غيظهُ على الزنادقة والملحدين فآجرهُ الله عليه كما آجرهُ على الظمأ في طريق مكة ، واصطلاء الشمس بعَرفَة ، ومبيتهِ بالمزدلفة ... وكثير مثله قبله وبعده .

فاذا نظر الناقد فيما تقدم بعين لا يطرفها الرياء ، وحكَّم رأياً لا تتجاذبهُ الاهوآء ، يجد لا مندوحة للقول معنا في مذهب الشيخين وقد ورد في الامثال السائرة « من احب شيئاً اكثر من ذكره » ، وهذا شأن ابي العلاء في هذه الرسالة وسواها .

ولنرجع الى الكلام عن الرسالة : فان اهم ما ينتقَدُ عليه فيها حشوها بلفظ كثير من غريب اللغة وعويصها حتى ليحتاج العالم معه الى مراجعة المعاجم الكبيرة ، وقد يفسر بعض الالفاظ في

[١] الدَرُّ اللبن يريد هنا بكثرة مالهِ اي غنمه . [٢] الجمل الهزيل .

٣

ولما كنت اوضحت اعتقادي في الشيخ ابن القارح ايضاً فلا باس من تعزيزه في هذا المقام.

قال ابو العلاء في تضاعيف جوابه: واما شكواهُ اليَّ فانني واياه لكما قيل في المثل «والثكلى تعين الثكلى» كلانا بحمد الله مُضِلّ، فعلى مَن نحمل وعلى من ندلّ... ثم انه لم يترك اسم ملحد او زنديق في المخضرمين والاسلام الا ذكره له مع ابيات او قصائد هي ابلغ ما قالوه في عقيدة كفرهم وإلحادهم، ثم قال بعد ذلك: ولم يزل الالحاد في بني آدم على مر الدهور... وبعض العلماء يقول ان سادات قريش كانوا زنادقة، وما اجدرهم بذلك وقال شاعرهم يرثي قتلى بدر

اَلمّتْ بالتحيةِ امُّ بكرٍ فحيوا امَّ بكرٍ بالسلامِ

الى ان يقول

الا مَن مبلغ الرحمان عني بأني تاركٌ شهرَ الصيامِ
أيوعدنا ابنُ كبشةَ ان سنحيا وكيف حياةُ اصداءٍ وهامِ
أتتركُ ان تردَّ الموتَ عني وتُحييني اذا بَليتْ عظامي

ثم يقول: ولما اجلى عمر بن الخطاب ـ رحمة الله عليه ـ اهل الذمة

ذلك لانه دلَّ على اقامة في الوطن ، وفي قربه الفرحة لاهل الفطن ... وهو يعرف حكاية الخليل عن العرب ، اذا بلغ الرجل الستين فاياهُ والشوابّ(١) ولا خير عند التوابّ(٢) ، ولكن النَصَف ممن يوصف ... الى ان يقول له ولو نشط لهذه المأربة(٣) لتنافست فيه العُجُز(٤) والمكتهلات ، وعلت خِطَبهُ المُتهبّلات(٥).

فانظر ما اضحك هذا الوصف وما الطف هذه الممازحة ، لانهُ كما علمت يخاطب شيخاً جاوز الستين .

ثم يزيد على ذلك فيقول له : فليس باول من طلب نجوزا(٦) فتزوج على السن عجوزا ، وما زالت العرب تحمد الحيزبون(٧) والشهلة(٨) ، ولا تكره مع الشرخ(٩) الكهلة ... الى ان يقول : واما حججهُ الخمس فهو انشاء الله يستغني في المحشر بالاولى منهنَّ وينظر في المتأخرين من اهل العلم فلا ريب انه يجد فيهم مَن لم يحج فيتصدق عليهم بالاربع ، وكأني به وعمائم الحجيج ، يرفعون التلبية بالعجيج ، وهو يفكر بتلبيات ...

وفيما اثبتُ من كلامه شاهد مقنع على ما صدرتُ به هذا النقد من الكلام عن مذهبه .

(١) الشابات . (٢) العجائز جمع عجوز . (٣) الحاجة . (٤) جمع عجوز . (٥) اللواتي فقدنَ اعز اولادهن . (٦) حاضراً مهيئاً . (٧) العجوز السيئة الخلق . (٨) التي في سواد عينيها زرقة . (٩) الشباب .

يتمنى ان يُقبض اساعته على شرط ان يضمن له ضامن تحقيق تلك الرواية بل خيال خيالها عاد الى الجواب عن الرسالة فقال :

ونعود الان الى الاجابة عن الرسالة . . . وهنا طفق يُعدّد له جماعةً من المتألهين(١) والزنادقة والملحدين واصحاب البدع من المتقدمين والمتأخرين ويذكر طائفة من اشعارهم واقوالهم ونحلهم واهوآئهم ، ينتقدها انتقاد الصيرفي الدينار ، ويمحصها محص الصائغ الفضة في النار ، وبين ذلك يقول : وقد تجد الرجل حاذقاً في الصناعة بليغاً في النظر والحجة فاذا رجع الى الديانة أُلفي كأنهُ عيرٌ(٢) مُقتاد ، وانما يتبع ما اعتاد ، والتألهُ موجود في الغرائز ، يُحسب من الالجاء الحرائز(٣) ، ويُلقنُ الطفل الناشىء ما سمعهُ من الاكابر ، فيلبث معه في الدهر الغابر(٤) ، واذا المجتهد نكّب عن التقليد ، فما ينطق بغير التبليد(٥) ، واذا المعقول جُعل هاديا ، نقع بريّه صاديا(٦) ، ولكن اين من يصبر على احكام العقل ، ويصقل فهمهُ ابلغ صقل . . ورُبّ زارٍ بالجهالة على اهل ملة ، وعلتهُ ادهى علة .

ثم عاد الى ممازحته فقال : وقد تحدّث بعض طلاب الادب ادام الله تزيين المحافل بحضوره ذكر التزويج يريد الخدمة فسرني

(١) المتحيرين . (٢) حمار . (٣) الحصون . (٤) الغابر من الاضداد يعني الماضي ويعني الحاضر . (٥) التحير . (٦) روى الظمآن .

النجم . . . وكلٌّ من غُفرَ له من الرجاز ، فيقول صدق الحديث ان الله يحب معالي الامور ويكرهُ سفاسفها وان الرجز لمن سفاسف القريض ، قصرتم ايها النفرُ فقُصِّر بكم .

ويتكىء على مفرش من السندس ويأمر الحور العين ان يحملنَ ذلك المفرش فيضعنه على سرير من سُرُر الجنة وانما هو زبرجد او عسجد ، فيكوّن البارئ فيه حَلَقاً من الذهب تطيف به من كل جوانبه حتى يأخذ كل واحد من الغلمان ، وكل واحدة من تلك الجواري المشبهة بالجمان ، واحدةً من تلك الحَلَق فيُحمَل (الشيخ علي ابن القارح) على تلك الحال الى محلهِ المشيد بدار الخلود فكلما مرَّ بشجرةٍ نضحتهُ اغصانها بماء الورد قد خُلط بماء الكافور ، وبمسكٍ ما جُنيَ من دماء الغور ، وتناديه الثمرات من كل اوب وهو مستلقٍ على الظهر « هل لكَ يا ابا الحسن هل لكَ » فاذا اراد عنقوداً من العنب او غيرهِ انقضب من الشجرة بمشيئةِ الله وحملتهُ القدرةُ الى فيهِ واهل الجنة يلقونه باصناف التحية وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين .

ولما انتهى بابن القارح الى قصرهِ في الفردوس واتكأهُ على مفرش من رائع الديباج الاسنى فوق سرير من الذهب او الزبرجد بين الحور والغلمان على ما اتى من ذلك الوصف البديع ، حتى تركه

اهل الجنة سبيل، فاذا سمع ـ اسمعه الله محابَّهُ ما يقول ابليس ـ اخذ في شتمهِ واعنه واظهار الشماتة به ، فيقول عليه اللعنةُ الم تُنهوا عن الشمات يا بني آدم ولكنكم بحمد الله ما زُجرتم عن شيء الا وركبتموه فيقول، واصل الله الاحسان اليه، انت بدأت آدم بالشماتة والباديء اظلم .

العودة الى الجنة

ويملّ من خطاب اهل النار فينصرف الى قصرهِ المشيد . . . ويلقى آدم عليه السلام فيقول يا ابانا صلى الله عليك قد رُوي لنا عنك شعر . . . فيقول ولكني لم اسمع به حتى الساعة فيقول لعلك يا ابانا قلتهُ ثم نسيت فقد علمت ان النسيان متسرع اليك وحسبك شهيداً الآية المتلوة في قرآن محمد (صلعم) فيقول آدم (صلعم) ابيتم الا عقوقاً واذيةً ، انما كنت اتكلم بالعربية وانا في الجنة فلما هبطت الى الارض نُقل لساني الى السريانية فلم انطق بغيرها الى ان هلكت ، فلما ردني الله الى الجنة عادت عليَّ العربية فايَّ حين نظمت هذا الشعر . . . ثم يضرب سائراً في الفردوس . . .

مرورهُ بجزيرة الرُجَّز

ويمرُّ بابيات ليس لها سَوقُ ابيات الجنة فيسأل عنها فيقال هذه جنة الرُجَّز يكون فيها اغلب بني عجلٍ والعجاج ورؤبة وابو

يسمعك ، فيقول يا أبا هند انّ رُواة البغداديين ينشدون قفانبكِ . . . وينظر فاذا عنترة العبسي متلدّد في السعير . . . فليت شعري ما فعل عمرو بن كلثوم ؟ فيقال ها هوذا من تحتك إن شئت ان تحاوره فحاوره . . ويرى رجلاً في النار لا يميزه من غيره فيقول من انت ايها الشقي ؟ فيقول انا ابو كبير الهُذلي . . . واذا هو برجل يتضور فيقول من هذا فيقال الاخطل التغلبي فيقول له ما زالت صفتك الخمر ، حتى غادرتْك اكلاً للجمر ، فيزفر الاخطل زفرة تعجب لها الزبانية فيقول آه على ايام يزيد ، اسوف عنده عنبرا ، ولا اعدم لديه سيسنبرا(١) وامزح معه مزح خليل ، فيحتملني احتمال جليل . . فيقول جعل الله اوقاته كلها سعيدة عليك البهَلَة قد ذهلتِ الشعراء من اهل الجنة والنار عن المدح والنسيب وما شُدِهتَ عن كفرك ولا اساءتك وابليس يسمع ذلك الخطاب كله .

تلاعُنُ ابليس وابن القارح

فيقول ابليس للزبانية ما رأيت اعجز منكم اخوان مالك ، ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه ، قد شغلكم وشغل غيركم عما هو فيه ، فلو أنّ فيكم صاحب نحيزة(٢) قوية لوثب وثبة حتى يلحق به فيجتذبهُ الى سقر ، فيقولون لم تصنع شيئاً يا ابا زوبعة ، ليس لنا على

(١) ريحان وهو فيما زعموا معرّب . . (٢) مروءة .

طوافه حول جهنم

فيطلع فيرى ابليس ـ لعنهُ الله ـ وهو يضطرب في الاغلال والسلاسل ومقامع الحديد تأخذه من ايدي الزبانية(١) فيقول الحمد لله الذي امكن منك يا عدو الله وعدو اؤليائه لقد اهلكت من بني آدم طوائف لا يعلم عددها الا الله ، فيقول مَن الرجل ، فيقول انا فلان من اهل حلب . . . فيقول ابليس اسألك عن شيء تخبرنيه : ان الخمرَ حرّمت عليكم في الدنيا وأُحلّت لكم في الاخرة ، فهل يفعل اهل الجنة . . . ويقول ابليس ايضاً ان في الجنة لأَشرِبةً كثيرة غير الخمر ، فما فعل بشار بن برد ، فان له عندي يداً ليست لغيره من ولد آدم كان يفضلني دون الشعرآء وهو القائل

ابليسُ افضلُ من ابيكم آدمٍ فتبينوا يا معشرَ الاشرارِ
النارُ عنصرهُ وآدمُ طينةٌ والطينُ لا يسمو سموَّ النارِ

لقد قال الحق ولم يزل قائلهُ من الممقوتين ، فلا يسكت من كلامه الا ورجل في اصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا يرى الى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار ، واذا هو بشار بن برد قد أُعطى عينين بعد الكمه ِ لينظر الى ما نزل به من النكال .

ويسأل عن امريءِ القيسِ بن حجر فيقال ها هو ذا بحيث

(١) الموكول اليهم تعذيب اهل النار .

اقصى الجنة

وكأنهُ المطهر عند النصارى

فاذا هو ببيت في اقصى الجنة كأنهُ حِفْشٌ(١) أمة راعية ، وفيه رجل ليس عليه نور سكّان الجنة ، وعنده شجرة قميئة(٢) ثمرها ليس بزاكٍ فيقول يا عبد الله لقد رضيتَ بحقير شَقِن(٣) فيقول والله ما وصلت اليه الا بعد هياطٍ ومياط(٤) وعرق من شقاء وشفاعةٍ من قريش وددت انها لم تكن ، فيقول من انت فيقول انا الحطيئة العبسيّ فيقول بما وصلتَ الى الشفاعة ؟ فيقول بالصدق فيقول في أيّ شيء ؟ فيقول في قولي

ابت شفتاي اليوم أن تتكلما ... بهُجرٍ فلا ادري لمن انا قائلُهْ

أرى ليَ وجهاً قبَّحَ الله خلقَهُ ... فقُبِّحَ من وجهٍ وقُبِّحَ حاملُهْ

ويمضي ابن القارح فاذا هو بامرأةٍ في اقصى الجنة قريبة من المُطّلَع الى النار ، فيقول من انتِ فتقول انا الخنسآء السُلّمية احببتُ ان انظر الى صخر فاطلعت فرأيته كالجبل الشامخ والنار تضطرم في رأسه فقال لي لقد صحّ مزعمكِ فيَّ يعني قولي

وأَنَّ صخراً لَتأتَمُّ الهداةُ بهِ ... كأنهُ علمٌ في رأسهِ نارُ

(١) البيت الصغير الحقير . (٢) ذليلة صغيرة . (٣) تافه قليل جداً . (٤) مجيء وذهاب وتعب شديد .

مكّةُ أقوتْ من بني الدردبيسْ		فما لجنّيٍ بها من حسيسْ

ومنها وكم عروسٍ بات خرّانُها		لجُرهمٍ في عزها او جديسْ

غُرتْ عليها فتخلّجتُها		بواشكِ الصرعةِ قبلَ المسيسْ

لا انتهي عن غرضي بالرُقى		اذا انتهى الضيغمُ دونَ الفريسْ

وادلجُ الظلماءَ في فتيةٍ		مِلجنٍ فوقَ الماحلِ العربسيسْ

ومنها تحملنا في الجنحِ خيلٌ لها		اجنحةٌ ليست نخيلِ الانيسْ

ومنها لا نُسكَ في ايامِنا عندَنا		بل نكِسَ الدينُ فما ان نكيسْ

فالاحدُ الاعظمُ والسبتُ كالا		ثنينِ والجمعةُ مثلُ الخميسْ

لا مُجُسٌ نحنُ ولا هُوَّدٌ		ولا نصارى يبتغونَ الكنيسْ

يريد ان ليس جنٌّ في اعتقاد اهل هذه الاديان

نمزّقُ التوراةَ من هونِها		ونحطمُ الصلبانَ حطمَ اليبيسْ

نحاربُ اللهَ جنوداً لإبليـ		سَ اخي الرأيِ الغبينِ النجيسْ

ونخدعُ القسيسَ في فصحهِ		من بعدِ ما مُلّيَّ بالانقليسْ

ثُمَّتَ آمنتْ ومَن يُرزَقِ الا		يمانَ يظفر بالخطيرِ النفيسْ

والقصيدة كلها على هذا النسق الانيق .

ثم يقول : فيعجب لا زال في الغبطة والسرور لما سمعه من ذلك الجنيّ ويكره الاطالة عنده فيودعه ويذهب في كل سبيل .

فاذا هو باسدٍ يفترس من صيران الجنة وحسيلها(١) فلا تكفيه هنيدة ولا هند(٢) فيقول في نفسه لقد كان الاسد يفترس الشاة العجفاء(٣) فيقيم عليها الايام لا يطعم سواها شيئاً ، فيلهم الله الاسد ان يتكلم وقد عرف ما في نفسه ، فيقول يا عبد الله أليس احدكم في الجنة تُقدَّم له الصحفة وفيها البط والطريم(٤) مع النهيدة فيأكل منها مثل عمر السموات والارض يلتذّ بما اصاب فلا هو مكتفٍ ولا هي الفانية ، وكذلك انا افترس ما شاء الله فلا تأذى الفريسة بظفر ولا ناب ولكن تجد من اللذة ما اجد بلطف ربها العزيز ، أتدري من انا ايها البزيع ، انا اسد القاصرة . . . وأدخلتُ الجنة بما فعلت . . .

ومن بديع ما يرويه عن الجني الخيتعور : فيقول له ما كنيتك لأكرمك بالتكنية ، فيقول ابو هَدْرَش ولقد لقيتُ من بني ادم شراً ولقوا مني كذلك . . . فيقول يا ابا هدرش اخبرني وانت الخبير هل كان رجم النجوم في الجاهلية فان بعض الناس يقول انه حدث في الاسلام فيقول هيهات ولكن الرجم زاد في اوان المبعث وان التخرص لكثير في الانس والجن وان الصدق المعوز قليل وهنيئاً في العاقبة للصادقين وفي قصة الرجم اقول :

(١) السمكات المملوحة واولاد البقر . (٢) مائة ولا مئاتان . (٣) الهزيلة . (٤) الارز باللبن والسمن ، والطريم = العسل ، والنهيدة = الزبدة .

الخبير ، فيقول يا رازق المشرقة سناها ، ومبلغ السائله مُناها ، والذي فعل ما اعجز وهال ، ودعا الى الحلم الجهال ، اسألك ان تقصر بَوص(١) هذه الحورية على ميل في ميل ، فقد جاز بها قدرُك حدَّ التأميل .

٢
جَنَّةُ العفاريت

ثم يطوف ابن القارح في جنة العفاريت ، او يطوف بهِ عليها ابو العلاء واليك ما يقول : فيركب ـ اي الشيخ ابن القارح ـ بعض دواب الجنة ويسير فاذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنة ، ولا عليها النور الشعشعاني وهي ذات ادحال(٢) وغماليل(٣)... فيقول ما اسمك ايها الشيخ فيقول انا الخيتعور احد بني الشيصبان ولست من ولد ابليس ولكنا من الجن الذين يسكنون الارض قبل ولد آدم (صلعم) فيقول اخبرني عن اشعار الجن فقد جمع منها المعروف بالمرزباني قطعة صالحة ، فيقول ذلك الشيخ انما ذلك هذيان لا يعتمد عليه ، وهل يعرف البشَرُ من النظيم الا كما تعرف البقر من علم مساحة الارض ... وان لنا لألآف اوزان ما سمع بها الانس.

فيعجب ، لازال في الغبطة والسرور ، لما سمعهُ من ذلك الجني ..

(١) ردف . (٢) حفرٌ غامضة ضيقة الاعلى واسعة الاسفل شديدة الغم . (٣) جمع غملول الوادي الضيق الكثير النبت الملتف .

كفر طاب(١) ؟

صلحت حالتي الى الخلف حتى   صرتُ امشي الى الورى زَقَفونَهْ

قالت ما سمعت بزقفونه ولا كفر طاب الا الساعة فتحملني وتجوز كالبرق، الى آخر ما ذكر هناك ... ومن هذا الباب ايضاً عربدة بني جعدة والاعشى ومنها: ويَثِبُ نابغة بني جعدة على ابي بصير فيضربه بكوز من ذهب فيقول اصلح الله به وعلى يديه لا عربدة في الجنان انما يُعرف ذلك في الدار الفانية بين السفلة والهجاهج(٢) وانك يا ابا ليلى لَمُتَترع(٣).

ومن بديع مفاكهاته: فيأخذ ـ الشيخ ابن القارح ـ سفرجلةً او رمانة او تفاحة او ما شآء من الثمار فيكسرها فتخرجِ منها جاريةٌ حورآء عينآء تبرق لحسنها حوريات الجنان فتقول مَن انتَ يا عبد الله؟ فيقول انا فلان ابن فلان من اهل حلب، فتقول انيّ أُمنَّى بلقائك قبل ان يخلق الله الدنيا باربعة الاف سنة ... ويخطر في نفسه وهو ساجد ان تلك الجارية على حسنها ضاوية(٤) فيرفع رأسه من السجود وقد صار من ورآئها ردف يضاهي كثبان عالج وانقآء الدهنآء ورملة يبرين وبني سعد(٥) فيهالُ من قدرة الله اللطيف

(١) قرية من قرى حلب والجلجول شاعر مشهور منها. (٢) الحمقى اهل الشر. (٣) اي متسرّع الى الشر. (٤) نحيفة. (٥) اسماء تلال من الرمل كالجبال الصغيرة مشهورة عند العرب.

ذلك المجلس بعد ان اقاموا فيه كعمر الدنيا اضعافاً كثيرة .

ومن هزله فيها : وبينما هو - اي الشيخ علي القارح - يطوف في رياض الجنة لقيه خمسةُ نفرٍ فيقول ما رأيت احسن من عيونكم من اهل الجنان فمن انتم خلد عليكم النعيم ؟ فيقولون نحن عوران قيس ...

ومن هذا الباب طلب رضوان جوازاً منه ليدخله الجنة ونظمه قصيدة الى آخر هذه الحكاية البديعة ...

وابدع من ذلك واغرب قصصه على لسان ابن القارح كيف حشر وحوسب الى ان يقول : فلما خلصتُ من تلك الطموش(١) قيل هذا السراط فاعبر عليه ، فوجدته خالياً لا عريب(٢) عنده فبلوتُ(٣) نفسي في العبور فوجدتني لا استمسك فقالت الزهرآء - صلى الله عليها - لجاريةٍ من جواريها يا فلانةُ اجيزيه ، فجعلت تمارسني(٤) وانا اتساقط عن يمين وشمال فقلتُ يا هذهِ ان اردتِ سلامتي فاستعملي معي قول القائل

سِتِّ ان اعياكِ امري فاحمليني زَقَفُونَهْ

قالت وما زَقَفونَهْ ؟ قلتُ ان يطرح الانسان يديه على كتفي الآخر ويمسك بيديه ويحملهُ وبطنهُ الى ظهره أما سمعتِ الجلجول من

(١) البلايا والمصاعب . (٢) اي لا احد . (٣) جرّبت . (٤) تلاعبني .

كيف بصرُك اليوم فيقول اني لأكون في مغارب الجنة فالمح الصديق من اصدقائي وهو بمشارقها وبيني وبينهُ مسيرة الوف اعوام للشمس التي عرفت سرعة مسيرها في العاجلة .... ثم يخطر له حديث شيء يسمى النزهة في الدار الفانية فيركب نجيباً من نجبآء الجنة خلق من ياقوت ودر ، في سجسج بعُدَ عن الحرّ والقر ... ثم يصنع مأدبة في الجنان يجمع فيها ما امكن من الشعرآء ، ويعدد فيها من ضروب الماعون العسجدية ، والخون الذهبية ، والفواثير(١) من اللجين والصحاف العجيبة والاقداح والكؤوس ذوات التصاوير والاباريق والزجاجات ، والبواطي والطاسات ، من اشكال الجواهر وانواع الاطعمة ، واجناس الطير والحيوان ، وكل طُهاة حلب منذ عمرت الى ما بعد البعث ، وجميع المغنّين والمغنيات تخدم بين ايديهم جوارٍ من الحور العين وغلمانٌ كأنهم اللؤلؤ المكنون ، وينشيء الله بحكمته شجرة جوز تنفض عدداً لا يحصيه الا الله ، تنشق كل جوزة عن اربع جوارٍ يرقصنَ على ابيات الخليل فتهتز ارجآء الجنة .. ثم يرى بين من يخاطبهم من الشعرآء عُبيداً فيقول السلام عليك يا اخا بني اسد فيقول وعليك السلام ... ثم يساجل الشعرآء ويحضر مهاترتهم وتشاتمهم ويفترق اهل

(١) الفاثور خوانٌ من رخامٍ او فضةٍ وقد يسمون الجفان او البواطي او الجامات او المائدة او البسط كل ذلك باسم الفاثور .

١

الطواف في الجنة

قال بعد وصفه خمور الجنة : فاما الانهار الخمرية ، فتلعب فيها سِماكٌ هي على صور السمك بحرية ونهرية ، وما يسكن منه في العيون النبعية ، ويظفر بضروب النبت المرعية ، الا انه من الذهب والفضة وصنوف الجواهر ، المقابلة بالنور الباهر ، فاذا مدّ المؤمن يده الى واحدة من ذلك السمك شرب من فيها عذباً لو وقعت منه الجرعة في البحر الذي لا يستطيع ماءهُ الشارب ، لجلت منه اسافل وغوارب ... وكأني بهِ ادام الله الجمال ببقآئه اذا استحق تلك الرتبة بيقين التوبة ، وقد اصطفى له ندامى من ادبآء الفردوس كأخي ثُمالة واخي دوس ، ويونس بن حبيب الضبي ... وهو أيد الله العلم بحياته معهم كما قال البكري

نازعتهم قضب الريحان مرتفقاً   وقهوة مزَّةً راووقُها خَضِلُ

وابو عبيدة يذكرهم بوقائع العرب ... وتهشّ نفوسهم للعب فيقذفون تلك الآنية في انهار الرحيق ...

ثم يرينا الشيخ علي بن منصور وهو ابن القارح نفسه يتنقل في امصار الجنة فيسألُ حُميد بن ثور وهو الذي يقول

ارى بصري قد رابني بعدَ صحةٍ   وحسبك دآءً أنْ تصحَّ وتسلما

او بيت فيه وصية صالحة، يريد ان كتاب ابن القارح « في تقيل الشرع » سيكون سبب الغفران له ودخوله الجنة كامثاله من الزنادقة، وهو برهان لما ذكرناه من ان ابن القارح ايضاً كان من الزنادقة وان كتابه لا ينبىء عن اعتقاده، وان ابا العلاء رام ممازحته في مضمون الكلام والثنآء عليه في ظاهره، ولعل تصدي ابن القارح لتأليف تلك الرسالة في تقيل الشرع اي لزوم حدوده، معما كان عليه من الزندقة التي كان يبوح بها لأبي العلاء في خلواتهما، هو الذي وحى الى المعري موضوع رسالة الغفران وابتكاره، فكان آية في الهزل صورته الجد، وثوب تقريظ سداهُ الفضل ولحمته الحمد.

وقد آن لي ان اذكر جملاً منها توضح لكَ غرضه في الانتقاد، طيّ ثوب الاعتقاد، وهزلاً يُضحك الثاكل والمتفجع، ويشغل عن الراضع المرضع، وتهويلاً ترتعش لهُ المفاصل، وترتعد منهُ الخصائل، في بيان يعجز المصور عن تصويره بعد دقيق اللحظ، بابدع وصف وابرع لفظ، وقائلهُ لم يرَ نوراً ولا تصويراً، منذ كان طفلاً صغيراً.

الى آخر ما ذكر عن هذه الرسالة مما لا اراهُ فيها الا هازلاً منتقداً، لاجاداً معتقداً، وحسبك قوله « وانما اذكرها لانهُ قد يجوز ان يقرأ هذا الهذيان ناشىء لم يبلغه ذلك ».

واما ظاهر ما فيها من الفاظ التقوى فليس بحجة على نفي ما اقول واليك عبارته عن المتنبي : واذا رُجع الى الحقائق فنطقُ اللسان لا ينبىء عن اعتقاد الانسان لان العالم مجبول على الكذب والنفاق ويُحتمَل ان يظهر الرجل تديّناً ، وانما يجعل ذلك تزيّناً . . الى آخر ما ذكر هناك .

ولم يكن ابو العلاء ممن يحسب لفظ الزنديق شتماً او تحقيراً وانما هو وصف يراد بهِ ان الموصوف بهذا اللفظ لا يدين بمذهب من المذاهب ، وهو المعبّر عنه في كتب اللغة ، وقد وصف بهِ كثيرين ممن ذكرهم في رسالة الغفران لا تحقيراً بل بياناً وتمييزاً .

واما اختيارهُ تسمية هذه الرسالة « برسالة الغفران » فلا أدري اهو اسماها ام ابن القارح ام سواهما ، على ان الارجح ان يكون هو المسمّي ، ولعلهُ استحب لها اسم الغفران لطلاوة وقعهِ في الاذان وقد يُراد به التفاؤل لصاحبهِ بالغفران اسوةً بمن ذكرهم من الزنادقة والملاحدة والكفار ، الذين سيراهم في الجنة راتعين وقد نجوا من عذاب النار ، وغفر الله لهم لكلمة خيرٍ قالوها

لان رسالة الغفران قد كُتبت اليه فقط، بل لانها جواب على رسالته التي لا اخالها تضرب الا على هذا الوتر - وان لم يكن ذلك صراحةً - لقول المعري في اوائل رسالته: وقد وصلت الرسالة التي بحرها بالحكم مسجور، ومَن قرأها لا شك مأجور، اذ كانت تأمر بتقيل الشرع، وتَعيب مَن ترك اصلاً الى فرع:

ألم يجد ابن القارح من طلاب العلم وغيرهم من محبي العلوم الشرعية في حلب يومئذٍ، من كان جديراً بتعلم الشرع وحدوده، سوى ابي العلاء المعري؟ وهو بحر العلوم الزاخر، ولاسيما وانْ المفهوم من جواب ابي العلاء انها تتضمن اغراضاً اخرى وان عنونها بغير ذلك كما ذكر في اول رسالة الغفران.

وعلى الجملة فلا شك انهُ لم يقصد برسالته تلك الا مذاكرة المعري في معنى كلاهما عليهِ متفقان واليهِ قاصدان، وحسبك من ذلك ان رسالة ابن القارح هي في تقيّل الشرع، فبدلاً من ان يجيبه المعري عليها بما يتعلق بذلك، او بالاعتراض على شيءٍ منها او يشرح ما يعن له في ذلك كله، نراهُ يدعو لهُ بالجنة ويحدّثه عما فيها وفي الجحيم من الغرائب ويقول له - ومثلها شفع ونفع، وقرّب عند الله ورفع، والفيتُها مُفتتَحةً بتمجيد، صدر من بليغ مجيد، وفي قدرة ربنا جلّت عظمته ان يجعل كل حرف منها شبح نور ... -

يتمحلوا له صدق الاعتقاد درعاً يتقون بها الوشايات ، ووسيلة يتوسلون بها لنشر مؤلفاته وتناقلها ، ولست القي القول على عواهنه فحسبك من قوله في لزومياته امثال ما يأتي

اذا رجعَ اللبيبُ الى حجاهُ تهاونَ بالمذاهبِ وازدَراها
فخُذْ منها بما ادّاهُ لبٌّ ولا يغمسكَ جهلٌ في صراها
وهَتْ اديانُهم من كلِّ وجهٍ فهل عقلٌ يُشَدُّ بهِ عُراها

وقوله

وجائتنا شرائعُ كُلِّ قومٍ على اثارِ شيءٍ رتَّبوهُ
وغيَّر بعضُهم اقوالَ بعضٍ وابطلتِ النُهى ما اوجبوهُ

وقوله

هفتِ النصارى والحنيفةُ ما اهتدتْ
ويهودُ حارتْ والمجوس مُضلّلَهْ
اثنانِ اهلُ الارضِ ذو عقلٍ بلا
دينٍ وآخرُ ديّنٌ لا عقلَ لَهْ

وكثير مثله في كتبه مما لا يحتمل التأويل .

ولستُ اراهُ اراد برسالة الغفران الا الانتقاد على ما ذكره فيها ، وقد قلت قبيل هذا اني احسب ابن القارح على مذهبه ، لا

جاوز الثمانين عفيفاً لم يدنس لهُ عرض ، وحرّض على الفضائل ولزمها ، وذمّ الدنيا واعرض عنها ، حرّم ذبح الحيوان قبل الاربعين من عمره فمكث خمساً واربعين سنة لم يذق لحماً ، سمى نفسه رهين المحبسين لفقد بصره ولزومه منزله فمكث اثنتين وخمسين سنة بعد عودته من بغداد في بيته ، وهو لم يكن يعتقد بدين من الاديان ، لا كما تمحل له اصحابه والمتشيعون لفضله ، زعماً منهم ان القول بذلك مما يحط من قدره ، وقد علموا ان اكثر فلاسفة اليونان والرومان وغيرهم من الامم الخالية ، لم يكونوا على دين ، وان منهم من كان على الوثنية والمجوسية ، ومثلهم من الشعراء النوابغ لم يقدح ذلك في علمهم عند امةٍ من الامم ، بيد ان عصور المتشيعين للمعري لم يكن يباح فيها لعالم ان يعالن بمدح زنديق وان بلغ من العلم والفضيلة ما بلغه المعري ، ولم يكن اولئك المتشيعون بالعدد القليل منذ كان حياً ، فقد بلغ مرتبةً من تجلّة الناس ووقارهم لم يروِها تأريخ من تواريخ الارض كلها عن عالم او فيلسوف او ملك ، فقد روى الحافظ السلفي قال جلس على قبر ابي العلاء المعري عند دفنهِ نحو من مائة وثمانين شاعراً ورثاهُ اربعة وثمانون شاعراً ، منهم فقهاء ومنهم محدّثون ومنهم صوفية وترجمهم باسمآئهم .

فلا بدع بعد ذلك اذا ما رأى اولئك الفضلاء وامثالهم ان

العرب كلهم مَن طابق بين قوله وفعله سواه ، فهذا الرئيس ابن سينا على فضله ورسوخ قدمه في العلوم الفلسفية ، كان نهماً شديد الشَبَق ، وكان هو وابوهُ يتقلدان الاعمال للسلطان في الدولة السامانية ، وقيل انه مات في السجن وقال فيه كمال الدين بن يونس

رأيتُ ابن سينا يعادي الرجالَ   وفي الحبس ماتَ اخسَّ المماتِ
فلم يشفَ ما نالهُ بالشفا   ولم ينجُ من موتهِ بالنجاةِ(١)

اما ابن الصائغ وابو بكر بن الطفيل وابو الوليد بن رشد ، فكلهم ممن اشتغل مع العلم بالسياسة ، ولم تصرفه الفلسفة عن الرئاسة ، بل ان اكابر فلاسفة اليونان قبلهم لم يحصلوا على منزلة المعري العالية ، فان ديوجينوس المشهور بالكلبي قد اشتغل في صباه مع ابيه الصراف بالتزوير والتزييف ، ونفي من وطنه بعد التحقير والتعنيف ، ورسطاليس نُسب اليه عقوق استاذه افلاطون ، واشياءَ ان صدق راووها الصقت بهِ العار على مرِ القرون ، بل ان افلاطون نفسه اشتغل بالسياسة وحام حولها ، ونُسبت اليهِ افعال لم يُجزم بصحتها ولم يُقطع بتكذيبها .

واين من هولآء كلهم ابو العلاء فقد اجمع حساده وخصومه على زهدهِ ونسكه ، وعظ بالعفاف ونهى عن الدنس ومات وقد

(١) الشفاء والنجاة من اشهر كتب ابن سينا .

فاذا علم هذا فلننظر اولاً نظرة ناقد في رسالة الغفران هذه ، ففي بدء ما يُنعى عليها طولها وهي رسالة من صديق الى صديقهِ ، ويُعتذَر عن ذلك بان رسائلهم لذلك العهد كانت طويلة لعسر وسائل النقل وبعد المسافات ، معما كانت عليهِ حالة الطرق في تلك العصور من فقد الامن ، ولم تكن البُرُد الا لحاجات الحكومات ، فاذا ما هَمَّ القريب او الصديق بالكتابة لم يكن له بد من البحث عن مسافر امين يودع بين يديه رسالته ، وهذا لم يكن ميسوراً ، ولذلك كانت رسائلهم طويلة ، الا ان المسافة بين حلب ومعرة النعمان ليست الا ساعات على القافلة فلا ينطبق عليها ما ينطبق على الرسائل التي تقتضي خوض البحار وقطع المسافات الشاسعة في الصحاري والقفار ، ثم ان هذه وان كانت جواباً عن رسالةٍ وردت ابا العلاء من صديقهِ ابن القارح ، فلم تكن رسالة اخوانية اذ طولها وما فيها من الاغراض التي لا احسب المعري الا قصد لها وتوخاها ، يخرجها عن الاخوانيات وينزلها منزلة مُعجَم لعويص كلام العرب وغريب اشعارهم في ظاهرها ، وانما هي في الحقيقة مفاكهة بين صديقين ، في الاعتقاد متبادلين ، ولا احسب الشيخ ابن القارح الا على مذهب الفلاسفة الزنادقة وسيأتيك الدليل فيما يجيء . اما ابو العلاء فقد كان فيلسوفاً قولاً وفعلاً ، لانه لم يكن بين فلاسفة

فطنته وحذقه وسُئل ما معنى ما قال لك فذكر للسامعين حكايته معه في بغداد وقوله له انت اشعر مَن بالعراق وانه عرفه الان بنفسه بعد مرور كل هذه السنين فعطف على عبارته تلك بقوله ِ ومَن بالشام.

وامثال هذه الروايات عن ابي العلاء كثيرة ولم ارد بذكر ما اوردته منها اثبات المنقول او نفيه فلذلك مقام آخر ، وانما اوردت ذلك تمهيداً لما سيأتي في هذه الموازنة .

وانت تعلم انه قلما نبغ شاعر في فنون المنظوم ، او جآء عالم برأيٍ جديد في علم من العلوم ، الا وقام له من الخصوم والحساد ، او المساجلين والنقّاد، قوم تدفعهم غرائزهم للتعريض به والطعن عليه وقد يكون بينهم افراد لا غرض لهم الا تمحيص الحقائق ، وقليل ما هم ، هذا شأن البشر في كل عصر ، ولاسيما في تلك القرون السحيقة ، يوم كانت الاديان في الشرق والغرب ، تجارة يتزلف بها العلمآء وكثير من ذوي الريآء ، الى مستبدي الحكام والامرآء ، بعضهم للتمسك بالرَمق، وبعضهم للتكسب كيفما اتفق، وآلة قاطعة في ايدي الملوك والحكام توصلاً لمطامعهم السياسية واهوآئهم النفسانية ، ولهذا لم يكن بدٌّ للفلاسفة والعلمآء من إلباس ما يكتبون في ايّ علم غير علوم الدين ، ثوباً من التدين والورع ليأمنوا غائلة عدوّ ٍ يقدح او حسود يشي بهم وينمّ .

ذلك انه كان قاعداً يوماً في دكان يهوديٍ ببغداد واتفق ان جاءهُ خصم له وتكلما بالعبرانية ، ثم مرت على ذلك ايام تحاكما بعدها الى القاضي فقال للمدعي هل عندك شاهدان على ما تقتالهُ ، فقال عندي رجل يهودي وثانٍ مسلم اعمى ، فاحضرهما القاضي ولما سأل ابي العلاء شهادته ، قال اني اعرف احدهما بصوته ولعلي اعرف الثاني ايضاً بصوته وهما قد تكلما في حضوري بالعبرانية ولم افهم منهما شيئاً ولكني احفظ ما قالاه او ما قاله احدهما واعاد العبارة بالعبرية وهو لا يفهم ما يقول وكان في شهادته ربح الدعوى انقلها باختصار.

ومما اشتهر عنه انه اذ كان في بغداد سنة ٣٩٩ انشده احد الشعراء قصيدة ـ ولعلهُ ابو الخطّاب الجيلي ـ قال ابن الاثير في الكامل في حوادث سنة تسع وثلاثين واربعمائة ، وفيها مات ابو الخطاب الجيلي الشاعر ومضى الى الشام ولقي المعري وعاد ضريراً ومن شعره

ما حكَمَ الحبُّ فهوَ مُمتَثَلُ   وما جناهُ الحبيبُ مُحتَملُ
تهوى وتشكو الضنى وكلُّ هوىً   لا ينحلُ الجسمَ فهو مُنتَحَلُ

فلما اتى على آخر القصيدة قال له «انت اشعر مَن بالعراق» ثم عاد ابو العلاء الى الشام ولزم بيتهُ في معرة النعمان وبعد خمس عشرة سنة من ذلك التاريخ جاءهُ شاعرٌ فانشدهُ قصيدة ولم يذكر اسمه له ، فلما اتى على آخرها قال ابو العلاء «ومَن بالشام» فعجب الشاعر من

ذلك من الانحطاط في عموم احوال الامة في مثل تلك الخطوب، وغموض كثير من شؤون المؤلفين المذكورين.

غير اننا لم نزل نتحيّن الفرص حتى وفّق الله الوصول الى هذه البغية منذ احدى عشرة سنة فرأينا ان نضم الان هذه الموازنة الى هذا الجزء من منهل الوراد لتكون امثولةً في يد المطالع لبعض ما ذكرناه في ابواب النقد الادبي.

* * *

اجمع المؤرخون على ان مولد ابي العلاء المعري كان في السنة الثالثة والستين بعد الثلثمائة للهجرة وكانت وفاته في التاسعة والاربعين بعد الاربعمائة اي نحو سنة ١٠٥٧ مسيحية، ومنزلته من علوم اللغة والصناعة الشعرية فوق ان تحتاج الى بيان، ومكانهُ بين امرآء الكلام فوق ان يُعزّز ببرهان، وكان له وقوف على سائر علوم عصره ولاسيما العلوم الفلسفية والدينية، اما ذكاؤهُ وحفظهُ فمما يُعَدّ من الخوارق، ولولا ما لدينا من كتبهِ وشعره مع ثبوت فقده البصر منذ الرابعة من عمره، لكان ما نُقل الينا من ذلك الى التكذيب اقرب منه الى التصديق، بيد ان من كان يحفظ ذلك المقدار الجزيل من غريب اللغة وشتيتها ومن الشعر والعلوم ويتكلم بما تكلم بهِ نثراً ونظماً، ويخوض في موضوعات سائر شؤون عصره وعلومه، لحقيق بان يُصدّق ما نُقل الينا عنه. فمن

الموازنة

بين الألعوبة الالهية ورسالة الغفران

وبين ابي العلآء المعرّي ودانتي شاعر الطليان

تمهيد

كنا منذ ثلاثين سنة خلت اول من نبّه – فيما نظن – على اقتباس دانتي الشاعر المشهور العوبته الالهية، عن رسالة الغفران لابي العلاء المعري، وذلك عندما وقعت الينا هذه الرسالة اي قبل ان تطبع الطبعة الاولى، ثم منذ ذلك الحين لم يزل يحيك في صدرنا ان نوازن بين الرسالة والالعوبة ونمنحهما حقهما من النقد تدقيقاً وتحقيقاً لما لمؤلف الرسالة عند عارفي اللغة العربية من الشهرة البعيدة، ولمؤلف الالعوبة عند الامم الفرنجية من المقام السامي بين شعرآئهم المتقدمين والمتأخرين. وكان يعترضنا من الشؤون ما يحول دون هذه الامنية، لما يستدعي التفرغ لذلك من البحث الدقيق والمطالعات والمراجعات مما يدركه المطلعون على ما بين العربية واللغات اللاتينية من الفروق، عدا بُعد زمن المنقودين عنا وظهورهما في عصرين متناسبين في قهقرة دولتيهما وما يتبع

بتصفيق استحسان كثير منَ الجمهور ، خرج من المحفل وهو يقول في نفسه عسى ان لا اكون اضعت وقتي وتعبي ، فاذا استوقفه واحد او اثنان من اهل العلم واقبلا عليهِ يهنآنهِ بخطابهِ هذا ويثنيانِ عليه ، سرّهُ هذا اضعاف اضعاف ما سمع من تصفيق واستحسان ذلك الجمهور الغفير ، والسبب في ذلك ان المادح او المادحَين من اهل العلم قد قدرا اعتناءهُ وتعبه وعرفا مواضع احسانه ، ومواقع براعته وبيانه ، ولا يدرك الفضل الا ذووه ، فكان سروره لا لمدحهما بل لنتيجة مدحهما وهي انهُ احسن بخطابه ونال رضى اهل العلم .

ومما تقدم تتحقق ان الفنون عندنا بعيدة عن الاختمار ، وان اداب النفوس لم يزل اكثرها مَعدّياً من عصبيةٍ جديرة بالهجر والاستنكار .

على ان اصحابنا بل اخواننا المعاصرين ، لو تجرّدوا من هذه العصبية ونظروا بعين الحلم والانصاف الى انفسهم ، لوجدوا ان هذه الخطة بعيدة عن الحكمة وليس فيها شيء من حب الحرية التي جعلوها لهم شعاراً ، اذ ان نقد الناقد ينقسم الى قسمين لا ثالث لهما فاما ان يكون نقدهُ صواباً ، او ان يكون اخطأ في انتقاده ، فان كان الاول فقد افاد الكاتب المنقود كلامه ومطالعي ذلك الكتاب اذ ليس بين العقلاء من يستغني عن فوائد العلم او يعتقد ان الصواب جميعه وقف على كلامه كما تقدم قبيل هذا ، وان كان الثاني فهو في بحبوحةٍ من امره ، ان شآء اجاب ، وان سكت لم يكن مغلوباً على مرامه ، فتعرّض المعترضين في الحالين مضرّ بالمنقود الذي ناصروه وعثرة في سبيل الانتقاد النزيه .

واين هذا كله من التحلم الذي نراه لافاضل الغرب منذ عهد بعيد ، فقد يثني الناقد على صاحب الكتاب في ابواب كثيرة ، ويخطئهُ في مثلها وقل ان يعترض المنقود ، ولكنهُ في جميع الاحوال يحسب ثنآء الناقد عليه يستوجب مزيد حمده ، وما ذلك الا لانهم يخدمون العلم حباً بالعلم لا للشهرة والانتفاخ ولا للتكسب ، ومَثَلهم في ذلك مَثل خطيب (او محاضر) يتأنق في انشا خطبته ساعات ، فاذا القاها في محفل وقوطع (كالعادة) في خلال القائها

لا يأذنون بان يُنشر عنها شيء الا ان يكون مدحاً ».

ولم يقتصر ذلك على المصريين ، بل شاركهم في هذه العصبية كثير من السوريين بمزاعم شالت في موازين الصواب ، اذ لم يكن الدافع اليها حب الانتصار للعلم ، بل لعل حب الشهرة والانتفاخ هو قائدُ تلك العصابة .

ومثل هذا ما نشر في بعض الصحف السورية من غضبة غضبها جماعةٌ من الادبآء لانتقادٍ نُشر عن ركاكة انشآء جبران خليل جبران او اغلاطه او لهجته البالية لهجة انبيآء اليهود ، او كل ذلك ، وحجتهم في غضبهم ان جبران ابن قريتهم او بلدهم وانه مات غريباً كئيباً ، هذه هي الحجج اوما يقرب منها ، ويقول بعض الناس ان اولئك المواطنين الاعزآء يرون ان انتقاد اللغة العربية او قواعدها اولى من التطاول الى انتقاد جبران .

والمطالع المنصف يرى مما تقدم بسطه ، ومثله كثير في هذين القطرين العربيين ، وهما ارقى الاقطار العربية علماً ومدنيةً ، ان سعة الخلق والتحلم عن الناقد لم ينتشر لهما عَلَمٌ في الامصار العربية ، ولم يُتَحْ فيها لهاتين الخلّتين حظٌ الى اليوم ، وان اصحابنا لم يسمحوا لانفسهم بالابتعاد عن هذه العصبية التي لم تبتعد عن البداوة وليس فيها شيءٌ من خمرة العلم والحضارة .

جاوزت اقصى اماله فانقض يقبل يديه ، وفاضت من فرحته دموع عينيه ، وأتاه عقب ذلك بقصيدة عنونها « بامير الشعرآء » ، وقيل بل لقبه بذلك في احدى الجرائد الضائعة ، وقيل بل كانت ممازحة بينه وبين اصحابه على الشراب لبيت شنيع نظمه ، ثم تكرر قولهم له ذلك على سبيل التهكم والمزاح ، يا امير الشعرآء ، حتى بات يُسَرّ بهذا النعت ، فتسابق عشاق بنت كرمته ـ واكثرهم من الوضيعين المداهنين ـ الى مناداته بهذا النعت ـ وقيل أنّ بعضهم من سكان مصيف كان يتردد اليه عندما تموّل ـ حتى غلب عليه ، والعصر عصر انتفاخ ومداهنة ، فلم يعد يروق له ان يُلقَّب بغير ذلك ، وداخَلَ الرجل غرور كثير وعجب بنفسه حتى لم يعد في طاقة احدٍ من عشرائه المملقين ان يذكر امامه اسم شاعر ، من المتنبي فنازلاً او فصاعداً ، وكبر عليه ان يُنتَقَدَ بل كبر على كثير من ناشئة بلده ذلك اما لعصبية صبيانية ، او باشارة منه لاصحابهِ خفية واتخذهم جُنّةً له يتقي بهم كلّ نقد اذ صاروا يعدّون من ينتقد شيئاً من منظومه كمن هجا كل اهل بلده بل كل اهل المملكة . وامامنا ونحن نكتب هذا عدد من جريدة السياسة بتأريخ ٢٢ (ديسمبر) لـ ١ سنة ٩٣١ يقول فيها احد الافاضل عند انتقاده رواية قمبيز في حياة مؤلفها « وجاءني لفيف من اخواني يشكون اليّ ان ارباب الصحف

فللاسباب المتقدمة وسواها مما يطول شرحه وفيما تقدم منها كفاية، لم تزل اللغة العربية في دور طفوليتها او بداوتها بعيدة عن دور الاختمار وزيادة في البيان نقول:

كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر اتت القبائل فهنّأتها بذلك وصنعت الاطعمة واجتمع النسآء يلعبنَ بالمزاهر كما يصنعنَ في الاعراس، وتباشر الرجال والولدان لانهُ حمايةٌ لاعراضهم، وذَبٌّ عن احسابهم، وتخليد لمآثرهم الخ.(١)

وكان اولئك الاعراب اذا تعرض شاعر لشاعرهم فهجاه او انتقدهُ، تركوهما وشأنيهما يتعاتبان او يتهاجيان اقبح الهجآء، هذا كان لعهد الحطيئة ونُصيب اي منذ الف وثلثمائة سنة فما فوقها، اما اليوم ونحن في آخر الثلث الاول من القرن العشرين نرى اصحابنا يفعلون مثل ذلك في اكثر البلاد تقليداً او تبليداً، وهذا يدلّ دلالة واضحة على انهم اقرب الى البداوة منهم الى المدنية، ولم يعد يقنعهم ان يكون شاعر مدينتهم او احد شعرآئها نابغةً فقط، بل رأوا ان يؤمروه ـ على البارد ـ لا على بلد او عسكر، ولا بامر الحاكم او باجماع الشعرآء، بل باستحسان احد الشعرآء المعدمين، وقيل انه قصده في كرمته، وختمها بالتماس احسان فنفحه بثلاثة جنيهات

(١) منهل الوراد الجزء الثاني في الفصل الثالث عشر.

واما السبب الثالث فهو افتقارنا الى المجامع بل الى الاجتماعات الاخوانية ، ومجالس المتأدبين واندية ذوي الفضل التي يستفيد فيها المُجالِسُ ويفيد ، ويستأنس الاديب بالاديب بل الصاحب بالصاحب ويجدد الصديق عهده بالصديق ، ولاسيما الطرب باستماع مساجلة الادبآء والشعرآء ، والتأدب باخلاق اكابر المهذبين من الناس ولا سيما العلمآء ، واستراق رقةِ ادابهم ولطف شمائلهم وتحلّمهم ، شأن البلاد الاروبية بالعموم ، لا قواعد الممالك وكبار المدن فقط ، بل ان البلاد الصغيرة نفسها لا تخلو من المتاحف والاندية والاجتماعات التهذيبية بل ان دكاكين باعة الكتب عندهم هي معاهد لملاقاة الادبآء والعلمآء واجتماعهم وتواعدهم ، ولقد طفت المدن المصرية الكبيرة وفلسطين وسوريا ولم اصادف يوماً اديباً او عالماً جالساً اللهمّ الا ان يكون قصد الدكان لاشترآء كتاب ، وعلى الجملة فان اكبر مدينة عربية تسير ورآء الرقي الى المدنية ، لا تستطيع ان تجاري اصغر مدن اروبا ، لا بعدد الاندية ومجتمعات محيي الاداب والادبآء ، بل بنظامها ورقيها ودرجة معارف اهلها وحرمتهم للعلم والفنون ، وحرية ادابهم العامة ، فان دور التمثيل وهي عندهم لتهذيب الاخلاق وترقية الفنون البديعة والادب ، انقلبت في البلاد العربية التي عمدت الى محاكاتها دور رقصف وسخرية واغراض صبيانية.

الجميلة كالتصوير والنحت والنقش وتوقيع الالحان والموسيقى المنسوبة الى فيثاغورس ، وكان اليونان الاولون يعدّون من يجهل الموسيقى فقيراً من الادب ، لانهم كانوا يرون رأي فلاسفتهم فيما للموسيقى من التأثير الباهر في تقويم الاخلاق وتغذية الاداب ، ولا عجب في ذلك فان افلاطون كان يعدّ العلوم الرياضية علوم الجسد ، ويعدّ الموسيقى علم النفس ، ومنذ افلاطون الى اليوم بلغت علوم الموسيقى حداً من السمو والاتقان لا يدركه الا من توغل في البحث عن علوم الموسيقى حتى صدق فيها الوصف بانها تأنيس الارواح والنفوس الناطقة الى عالم القدس لمصاحبة النفوس العالية ، ومجاورة العوالم العلوية ، ومذاكرة العقول الروحانية ، والتلذذ بمشاهدة الذخائر النورانية ، باعين الحواس الفكرية ، بل بغيبوبة الاحساس الحيواني عن العوالم السفلية ، واستمتاعها بملاذ نغمات الافلاك السموية ، ومعاينة بل مناجاة اسمى الاشباح الذهنية .

قال الفيلسوف الفرنسوي بَرتلمي انك تستطيع ان تقدر مدى ذوقنا الموسيقي من تعدد استعمالنا لفظ الموسيقى مجازاً ، اذ اننا ننعت كل ترنم بموسيقى ونقول بمثله موسيقى العروض وموسيقى الشعر وموسيقى الرقص وموسيقى الشمائل ـ للحركات اللطيفة ـ وهلم جراً لاكثر العلوم والفنون .

كلامه الى غير ما اراد ـ ويندر وقوع ذلك ـ اجابه بنفس التجرد الذي تحلى به الناقد ، وتحلم عن نقده غاية الحلم .

وهذا التحلم او هذه السعة في الخلق ، لم تبلغ بعد الى الناطقين بالعربية وسأبسط الاسباب ثم ادعم ما اقول بالبرهان .

اما السبب الاول فهو طفوليتنا في العلوم الحديثة ، والمراد بطفوليتنا هو عدم اشتغالنا بالعلوم الحديثة(١)، اذ كل مَن طالع منا شيئاً من علم الجغرافيا او علم طبقات الارض او النبات او الحيوان او الهيئة او الطب او غير ذلك ، فانما درس او طالع ما كتبهُ علمآء اروبا اما بلغاتهم او معرّباً عنها ، وقل من اشتغل منا بعلم من هذه العلوم حباً بالعلم نفسه ، او لافادة قومهِ ، بل كان الاشتغال بها اما في المدارس او مطالعةً ، حباً بالوقوف على العلم فكأنه حب بحث وتفتيش ، وان كان قد وجد عندنا احد الّف شيئاً لم يصل الينا اسمه فهذا نادر والنادر لا حكم لهُ ، ومن ذلك يتضح للمطالع ، اننا في ذلك جميعه عيال على اروبا واننا اطفال في هذه العلوم .

واما السبب الثاني فهو جهلنا الشيء الكثير من الصناعات

(١) قلنا حديثة لان كل ما عُرّب منها من اليونانية قديماً قد زيد فيه تصحيحات اوهام وتحقيقات لعلماء اروبا فانقلبت تلك العلوم كثيراً عما وضعها المعرّب الاول ولهذا لا توجد مدرسة تُقرأ فيها اليوم كتبنا القديمة .

يطلب من سواه ان يحتذي مثاله ويخطو خطاه فهو في هذا عند قول المتنبي

ويطلب عند الناس ما عند نفسهِ   وذلك ما لا تدعيهِ الضراغم

فهو في الحقيقة من محاسن شذوذ البشر والشاذ لا يدفع القاعدة بل هو حجة للقائلين بها وفوق كل ذي علم عليم .

الباب الثامن عشر

في تحلّم المنقود عن الناقد

هذا باب لم يكتب فيه نقاد الفرنسويين حرفاً منذ اوائل القرن التاسع عشر ، وما ذاك الا لاعتبارهم واعتيادهم النقد المجرد المهذب ، وليس تحلّم المنقود عن الناقد عندهم الا دليل اختمار الفنون بينهم وتيقنهم فوائده الوافرة وعلمهم ان باب الرد مفتوح لهم كما أُشرِعَ باب النقد ، فان كان النقد صواباً ربح الكاتب المنقود كلامه ، فوائد لم يتفطن لها واصلحها في طباعة ثانية للكتاب ، او في سواهُ مما يؤلفهُ ، وكلهم يعلم انَّ ليس لعاقلٍ ان يظن العصمة وقفاً على جميع كلامه ولله در القائل

وَمن ذا الذي تُرضي سجاياهُ كلها   كفى المرءَ نُبلاً ان تُعَدَّ معايبُهْ

واما اذا رأى ان الناقد حاف عليه في الحكم او ذهب في تفسير

الطعن فيه ، اما لصداقة او لعداوة او لمنفعة مادية ، واغراض النقد كما علمت تعلو عن ذلك كله علوّاً عظيما ، ارأيت من تحدثه نفسهُ ان يتهجم على صناعة التصوير دون طلب هذا الفن ولا معرفة العمل بقواعده ؟ وقل مثل هذا عن النقش والهندسة والموسيقى وغيرها ، وما ذلك الا لان لهذه الفنون وسواها من العلوم والصناعات قواعد يجب الرجوع اليها وحدوداً يتعين على طالب العلم ان يقف عندها ، ولو تركت فوضى لما احجم عنها اهل المطامع ومحبو الشهرة والنفخ والتزيد ، بل لما قامت سوق للفنون البديعة ولضاعت هي وسائر العلوم البشرية

لا يصلحُ الناسُ فوضى لا سَرَاة لهم
ولا سرَاة اذا جُهّالهم سادوا

على ان اناتول فرانس وكان فرد الامة الفرنسوية علماً وادباً وذكآءً واطول كتابها في اول هذا القرن باعاً في سمو الانشاء ولطف الانتقاد ، بل اكتب كتاب الامم الفرنجية في هذا القرن دون منازع ، يقتدر على صواب النقد وان انكر على القائلين بلزوم قوانينه لانهُ تعمقَ في سائر فنون الادب ووقف على كثير من العلوم العصرية ، وله قريحة سميعة حلّقتْ في سمآء كلِّ ما فكّر وحبَّر ، وحافظةٌ مطيعة تقول لهُ لُبَّيك عند كل ندآء ، واما ان

« خروجه عن ذاتيته » كما يقول برونتيير (١) فهذا غلوٌ وشططٌ لا سبيل اليهما ، او ان يسير في مجاهل الانتقاد وفلواته لا يتخذ له هادياً غير الشكوك كما ينسب ذلك اناتول فرانس(٢) الى برونتيير المتقدم الذكر ، فهو ما لا يستقيم معه امر الانتقاد ولا يصح عليه الاعتماد ، وفي الوجهين المذكورين قد ناقض العلامة برونتيير نفسه في غير مقام من كلامه . واما أن لا يستنير في دياميس ضمائر المنقودين بنور قانونٍ او قاعدةٍ غير انوار ذوقه وفِراسة نظره ، وان لا يسترشد في طريق تحليل معانيهم وتورياتهم وتفنيد ما يعرض لهم من الخطأ وايضاح المغلق والصواب من كلامهم سوى برشد فطنته ودلالة مداركه كما يزعم اناتول فرانس، فهذا ما ننكرهُ اشد الانكار ، اذ لما كان الانتقاد فناً ، بل من ارفع الفنون عماداً واوسعها شُعُباً ، واصعبها مِراساً ، واوفرها احتياجاً الى دقة نظر ، وصفاء ذهنٍ وفرط تفهم ،كان لا بدّ له من قواعد كلية يرجع اليها وقوانين يقف عندها ، كغيرهِ من الفنون البديعة ، لا ان يُترَك سدىً واحكامهُ فوضى لكل مَن تحدّثهُ نفسه الانخراط في زمرة الناقدين فيركب رأسه ويأتيك بالعجب العجاب من ضروب الخلط والخبط ، ومنتهى علمهِ في فن الانتقاد تقريظ صاحب التأليف او

---

(١) Brunetière (٢) Anatole France

حتى يراها المطالع كانها ظاهرة على مِرآة مجاوِرة، فليس الامر عاماً في سائر المؤلفين، فان منهم من يقتسر قريحته على موضوع ونسق انشاء ليس له فيهما يدٌ، فاذا وقف الناقد امام ما كتب، يكاد يكذّب فراسة حكمهِ في كلامهِ عن المؤلف في انتقاده له كتاباً سابقاً، فيقول فيه غير مقالهِ المتقدم. وعند البحث والتدقيق يظهر كأن الكاتب الاول هو غير الثاني، لما يبدو للناقد في الانشآء الاخير من القهقرة في التعبير، والانحطاط في الوصف والتصوير، فلا عجب اذا وضع الناقد كاتب الكتاب الاخير في غير ما احلّه عند نقده كتابه الاول كانما هناك كاتبان متباينان، والسبب في ذلك ان المؤلف اقتسر قريحته كما تقدم القول فاذا بها تعلن وتصيح

ارادَ شريكاً في المحبة بيننا وايمانُ قلبي لا يميلُ الى الشركِ

ففضحته او انه فضح نفسه بما كلفها

يُراد منها الذي لا تستقيمُ له ولا تُكَلَّفُ نفسٌ غيرَ ما وسَعَتْ

والحقيقة التي لا ريب فيها انّ غاية ما يُطلب من تجرد الناقد ان يستفرغ مجهوده في موضوع نقده ويُخلي باله من كل شاغل سواه، فان تعرض لنقد اهوآء المؤلف وعواطفه فليبعد الشخص عن خاطره ما استطاع ليأمن الحيف او غفلة الاسترسال الى التقريظ، وهذا كلّ ما يُراد من تجرد الناقد، واما ان يُفهم من ذلك

حسب ذلك الفهم وذلك الشعور ينتقد ويحلل ، وعلى الجملة فالانتقاد والتحليل يتوقفان على مقدار فهم الناقد وشعوره ، ولله درُّ شاعرنا

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفتهُ من الفهم السقيمِ
ولـكن تأخذُ الاذانُ منهُ على قدر القريحة والعلومِ

وبعبارةٍ اوضح ان الناقد لا يحلل بانتقادهِ نفس الكاتب ، بل يحلل ويشرح الذي اثّرهُ في نفسهِ كلام الكاتب ، وحسبما وصل الى فهمهِ وادراكه كما ذكرنا آنفاً ، ولذلك لا يستطيع ان يدعي بالتجرد المرغوب في الناقد ، ولهذا السبب عينهِ لا يكون مُطالع النقد عِلى بينةٍ من مراد المؤلف ، وانما هو يتحقق ما فعل الكلام في نفس الناقد فقط .

والاعتراضان الاخيران هما حجة المعترض في زعزعة التجرد ، بل في عدم امكان الوصول اليه في زعمه ، وانت تعلم ان درجات الكتابة متفاوتة ، والبراعة فيها غريبةٌ ، وكل نفيس غريب ، والموضوعات تتعدد وتتجدد وتأخذ الواناً بحسب اختلاف العصور والقرائح والبلاد واجناس الامم ، والناقد البصير يستشف نفس الكاتب من مكتوبه ، واذا كان انشآء اكابر الكتاب يدلّ على شيء من عواطفهم ، ويستطيع ان يشير الى ذلك بعض البصيرين من النقاد ، فيحللون خفيات نفوسهم من جملهم نفسها

من الحكم .

وكيفما كان فهذا مما لا يجوز للناقد ولا يُغتفَر لهُ ، والاولى بهِ ان ينصرف عن نقد اصحابه ومن يخجل من تعقبهم ، او الاشارة الى ما راى من خطائهم ، لانه في سعة من ذلك ، ولاسيما عند الفرنسويين ، فالكتّاب في الفنون الادبية كثيرون .

وزعم بعض اساتذة النقد ، ان الناقد لدى نقده الكتاب الادبي انما ينظر بعيني نفسه فينتقد معانيه ويحللها كما يفهمها وكما يشعر بها ، اي حسبما تؤثر فيه ، ومن المعلوم ان اختلاف الفهم واختلاف الشعور واختلاف الذوق في عموم الانسان شيء عظيم ، بل العلمآء انفسهم ليسوا بنجوة من ذلك ، فمنهم من تكفيهِ اللمحة البادرة ليتنبه الى النكتة اللطيفة والتلميح البعيد المستعذَب في عروض كلام الكاتب ، ويعدّ ذلك له من قلائد كتابه ويفهمه حسبما اراد به مؤلفه ، ومنهم من يحسبها جملة جرى بها قلم الكاتب عن غير تعمّدٍ ، اذ انه يرى فيها شيئاً يشبه وجهاً محجوباً بستر صفيق ، فلا يدري ما يقول فيه أحسنٌ هو ام قبيح ، بل قد يرى شبه شيء مغطى بجلباب غليظ فلا يستشفّ ما ورآءهُ ليكون له رأي فيه ، ومنهم من يمرّ بالكلام ولو سألته ماذا اراد به كاتبه لعجب من سؤالك اذ انه لم يرَ فيه شيئاً استوقف خواطره ، وعلى

جوراً على خصيم ، ولا يغضي عن خطأ رعايةً لحرمة صديق او ذي مقام مشهور ، بل يجب ان يتوقى كل التوقي في تجرده من استرسال نفسه الى ما تحب ، كأن تميل الى الشدة والصرامة فيرمي المنقود في الرواية بالجبن او بالنذالة ، وقد خُصّ بالحلم والشفقة ويتعقب المؤلف على ذلك ، او كأن يكون ممسك اليد او يحب الامساك، فيرى في الجود اسرافاً او بالعكس، فيرمي مؤلف الرواية بقصورٍ او خطأ هو منه برآء ، الى امثال ذلك من الاسترسال الى هوى النفس ، فليكن شديد الحذر من نفسه ولله در القائل

ووضع الندى في موضعِ السيفِ بالعُلى

مُضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

ومن المستحسن للناقد المنصف ان يقطع في الحكم دون توقف او تلجلج ، وقد استدرك سانت بُوِف وهو اشهر ائمة النقد عند الفرنسويين على ديلمانِ وهو من مشاهير النقاد ـ بعد ان وفاهُ حقه من الثنآء الوافر وهو بهِ جدير ـ لاغضآئهِ عن القطع في الحكم ، او التعقب على بعض من انتقدهم احسن انتقاد ، الا انه تملص من الحكم ، فقال سانت بُوِف ان ديلمانِ كان متناهياً في الرقة واللطف ، فكان يعتريه الخجل من تصريح الحكم عند نقدهِ الاحيآء من الكتاب ولاسيما من كان من اصحابه فكان يتسلل من نقده بعد ان يتملص

فاذا منحت هذا الكلام حقهُ من التبصر علمت ان ابا الطيب قصد فيه الى اقصى غايات المدح اذ اراد ان يُفهم الممدوح انه لم يمدحه كما يمدح الشعراء كثيراً من الامراء والأكابر ، بل مدحه عن يقين في نفسه لما سمع من كثرة الاخبار عن فضائلهِ وزاد على ذلك في البرهان على صواب مدحه اذ قال انه كان يستكبر ما سمع عنه قبل مشاهدته ، فلما رآهُ صغّر العيان ، ما تردّد على الاذان ، يريد ان يقول انه نادر الوقوع في المعنويات ولاسيما في جمع المحاسن الكثيرة والفضائل الموفورة ، اذ المشهور المعلوم ان تكون الحقيقة دون الوصف في غالب الاحوال كما سبق القول للاسباب التي ذكرناها وسواها مما يشبهها .

وهذه المتلازمات والمتناقضات مما يجبُ ان يتنبه لها الناقد كيلا يفوتهُ تأثير وصف المحسوس عن تأثير وصف المعنوي فلكلٍ شأنٌ كما تقدم القول .

الباب السابع عشر

في تَجرُّد الناقد

من اهم سنن النقد تجرد الناقد ليبلغ الاصابة والافادة في نقده ، والمراد بتجرد الناقد هو ان ينزع عنه هوى النفس لكيلا يقضي

لون واحد من ابسط الطعام يسدُّ به جوعه ، فوق كل تلك الالوان الموصوفة ، وذلك لان حاجة الجسد الى الطعام في حالة الجوع لا يغني عنها وصف الواصفين ، وبعبارةٍ اخص ان الاحساس بالخلاء لا يسدّهُ غير الاحساس بالامتلاء .

ومثال الثاني اي سرور النفس بوصف المعنويات ، كما لو وصف لك احد البلغآء لطف شمائل ، او ذكاء طبعٍ ، او محاسن وجهٍ ، او فصاحة رجلٍ تقول عند سماع وصفهِ ياليتني عرفت الموصوف ، وكم اتمنى مشاهدة شخص هذه صفته ، ثم قُدَّر لك ان تراه بعد حينٍ ، فقد تجده دون الوصف ، وذلك إما لان الواصف وصف ما رآه بعينيهِ لا بعينيك ، وكان وصفه على مقدار ما اوحت اليه الجاذبية التي في الموصوف اليه لا اليك ، وإما لان الوصف قد تجاوز حقيقة الموصوف ، او لانك صورت الموصوف في مِرآة ذهنك تصويراً يتجاوز حقيقته وظننتهُ مطابقاً لما سمعت من الوصف وهو الغالب في مثل ذلك ، ولله درُّ ابي الطيب

وما زلتُ حتى قادني الشوقُ نحوَهُ
يُسايرُني في كلّ رَكبٍ له ذِكرُ
واستكبرُ الاخبارَ قبلَ لقائهِ
فلما التقينا صغَّر الخبرَ الخبرُ

ما يُريد، ومع هذا كله فان سرور نفس السامع او القاريء بمشاهدة بركةٍ مبذولة المثال، في بستان اهلي مألوف، يتسلسل اليها الماء بشحٍ، من ساقية وضيعةٍ عتيقة، وان يرى نفسه مستلقياً بجانبها تحت ظل شجيرةِ حورٍ يألف اليها احياناً بعض العصافير، مع رفقةٍ من معارفهِ، لقد يفوق انبساط نفسه وانشراح صدره على سماعه ذلك الوصف البديع لتلك الجنة الملوكية، والسبب في ذلك ليس لان حسّ العيان فوق حسّ التصور فقط، بل لان سائر اللذات الحسية اثرها في النفس فوق اللذات المعنوية، ولا يُفهم من قولنا هذا ان حديثاً تافهاً من احاديث السمر او امثالها، يفوق لذة استماع شيءٍ من قلائد العقيان او مطالعة ترجمة من يتيمة الدهر او قرآءة مقامةٍ من مقامات الحريري وامثال هذه الكتب، ولا استماع مغنٍّ من عامة المصوّتين يلذّ اكثر مما تردّده المسمعة من اغاني الشيخ سلامه واناشيد عبد الواحد واضرابهما، وانما تُقابل الاشيآء بنظائرها فكل ما هو محسوس لا تشعر النفس في وصفه بما تشعره بحقيقته، وكل ما هو معنويٌّ تشعر النفس بلذة وصفه كما لو كان محسوساً، بل قد يصغر عندها بعد المشاهدة عن الوصف، ومثال الاول فيما لو وصفت لجائعٍ الواناً كثيرة من لذائذ الاطعمة وبالغت في وصف طيبها وفكاهتها وانواع توابلها وخمرها، للذّ له

بعض الحالات ، وان اغرق الواصف في وصفه ما شاء، واليك مثالاً من ذلك في وصف جنة ٍ ملوكية للسيد قال :

والمجلس يروق كأن الشمس في افقه ، والبدر في مفرقه ، والنورُ عَبِق ، وعلى ما النهر مصطبح ومغتبق ، والدولاب يئن كناقةٍ إثر الحوار ، او كثكلى من حرّ الأُوار ، والجوّ قد غبّرت انوآؤه ، والروض قد رشته امطاره واندآؤه ، والأُسْدُ قد فغرت افواَهها ، ومجّت امواهها فقال

يا منظراً انْ نظرتُ بهجتَهُ ... اذكرني حسنَ جنةِ الخُلْدِ
تربَةُ مسكٍ وجوُّ عنبرةٍ ... وغيمُ نَدٍّ وطشُّ ما وردِ
والمآءُ كاللازوردِ قد نَظمتْ ... فيهِ اللآلئْ فواغرُ الأسدِ
كأنما جائلُ الحُبابِ بهِ ... يلعبُ في جانبيهِ بالنردِ
تخالُهُ إنْ بدا بهِ قمراً ... تمَّاً بدا في مطالعِ السعدِ
كأنما أُلبِسَتْ حدائقهُ ... ما حاز من شيمةٍ ومن مجدِ
كأنما جادها فروّضها ... بوابلٍ من يمينهِ رغدِ
لا زالَ في عزةٍ مضاعفةٍ ... مُيمَّمَ الرِفدِ واريَ الزندِ

فلا ريب في ان هذا الوصف لتلك الجنة نثراً ونظماً قد بلغ اسمى درجات البلاغة والبراعة وأنّ طالب المزيد هو كمن لا يدري

الباب السادس عشر

في تأثير الوصف وتأثير الحقيقة

لا تتأثر النفس من وصف الشيء او وصف صورته مهما بالغ وافصح الواصف، كتأثرها من النظر الى الصورة نفسها ولله درّ القائل

لَئِنْ اصبحتُ مرتحلاً بجسمي فقلبي عندكُمْ ابداً مقيمُ
ولكن للعيانِ لطيفُ معنى لهُ سألَ المعاينةَ الكليمُ

ومثل ذلك وصف النغم فلن يبلغ الواصف وان غالى بعض ما يبلغه النغم نفسهُ في النفس وان كان دون وصف الواصف، على ان بعض الموصوفات لا يتم سرور النفس بها الا باشتراك حاستين او اكثر، مثال ذلك صوت مغنية او مغنٍّ فهو لا يطربنا اذا كان من ورآ حجاب او من آلة كالمِسمعة (الفونوغراف)، كما لو كان معنا في المجلس على ان لا يكون قبيح الصورة وان كان غير حسنها، ومثل ذلك كلام الخطيب او الشاعر فانه لا يكون وقعهُ في الاذان ولا تأثيرهُ في النفوس منظوراً ومسموعاً كما لو كان مسموعاً فقط.

وقد يعجز اللفظ عن مسرّة النفس كسرورها بالعيان في

ونشرها على صفحات الجرائد السيارة يسيّرون مع شهرتهم وضعهم هذه اللغة الجديدة ، وكأنهم حسبوا انهم بمثل هـذه الطمطمانية يلبسون البدويات بدائع حلل الباريسيات

افدي ظبآءَ فلاةٍ ما عرفنَ بهـا
مضغَ الكلامِ ولا صبغَ الحواجيبِ
ولا برزنَ من الحمّام ماثلةً
اوراكهنّ صقيلاتِ العراقيبِ

او يخلعون على الخرائد الباريسيات مشملات البدويات بامثال هذه المتنافرات

غيدٌ غوانٍ ما ادّعينَ بعفةٍ
كظبآءِ رامةَ صيدُهنّ حلالُ
يحسبنَ من ادبِ الحديثِ حرائراً
وتسوقهنّ الى الهوى الاميالُ

وفي الجملة ان امثال هولآء المتعلمين او طالبي العلم من اشد اعدآء اللغة العربية ، ومن العوامل القوية في هدم اركان الفصاحة ، بما ينشرونه من مثل هذه اللغة القميئة الخلَيطى هداهم الله وكفى هذه اللغة عدوانهم .

كله لمن يكون ؟؟ (بحروفه) . . . .

ويتبع هذا الوصف مثله او اشد غرابة نحو سبعين سطراً ، وقد يظن القاريء الرزين ان المراد من هذا الكلام هو مزاح او استهزآء باحد الكتّاب المتقعرين او احد طلاب العلم المتفرنسين ، فالامر غير ذلك والرجل يكتب ويظن انهُ يجيد الكتابة العربية بهذه التراكيب الغريبة الاجنبية عن كل ذوق عربي من جاهلي ومخضرمي ومولد ومحدث ومعاصر ، ولا اريد اضاعة الوقت بنقد هذه التشبيهات البعيدة الركيكة والاستعارات التي لم يحلم بها كاتب عربي ، اللهمّ الاّ المجددين ، فقد يوجد بينهم من يحسد الكاتب على استعارتهِ ـ الاسهاب والنمآء للقوام ـ وللنظر ـ الاطلال ـ ومن العلو او من علٍ ـ من حالق ـ وعلى ما حوله ـ على ما يلابس من اخوان وصحب وما الى الاخوان والصحب من اشتات المنصرفين معه الى ما ينصرف اليه الاحيآء من صوالح ـ ولعل الشاب الكاتب يظن نفسه قد جاء بما يُعجز الفصحآء لانه كتب هذه الايات من پاريس بل من السربون نفسها (المدرسة) والحقيقة انها ليست كتابة عربية ، بل كتابة تواطأ عليها هو وجماعة من اصحابه ، اذ عجزوا عن الاتيان بما يشبه الفصيح وتوهموا انهم بمثل هذه الطمطمانية يأتون بما يأتي به نبغآء الكتاب الفرنسويين فظنوا انهم باشاعتها

ـ الكاتب في عرفي هو انسان قبل ان يكون حامل قلم ـ ثم قوله اما المنشىء فهو قليل المعاني والافكار . . .

وعلى الجملة ان من الاستخفاف بالعلم في جمع مثل هذه الكتب ونشرها ، هو الاتكال على غير الخبير ، والاسترسال الى ذوق صديق واحد في الاختيار ، او الى شهرة بعض الكتاب والشعرآء في الجرائد السيارة التي هي معرض لاقلام عامة الناس وخاصتهم، وكل ذلك بلاء شديد على العلم والمتعلمين ، واشدّ منهُ انخراط جماعة من فتيان المدارس وغيرهم في الكتابة دون مرشد او ناصح حتى صرنا نرى امثال ما يأتي، في وصف رجل، فاقرأ وتحمّلْ :

هذه القامة المسهبة المسرفة في النمآء يطل صاحبها من حالق على ما يلابس من اخوان وصحب وما الى الاخوان والصحب من اشتات المنصرفين معه الى ما ينصرف اليه الاحيآء من صوالح . وهذا الوجه المشرق الطويل النحيل الذي تزدحم عليه الوان من التنسيق حتى في صغر عينيه ، واستقامة انفه . وحدة ذقنه . وانفراج جبهته . وهذا الرداء الشرقي الذي الفناه دثار المعممين من شيوخ الازهر وقادة الريف . وتلك العمامة التي تسكب على راس صاحبها مزقة منسقة من ناصع الثلج . وتلك النظرات المسددة الى كل شيء . وهذا الصمت الذي لا تصرفه الزوبعة ولا تثلمه الاعاصير هذا

قيل هذا يُستصلح لكتابة الانشاء في ديوان الخلافة ويحسنُ اثرهُ فيه فأُحضِر وكُلِّف كتابة كتاب فأُفحِم ولم يجر لسانه في طويلة ولا قصيرة — فاتضح من قولهِ هذا ان الحريري على جلالة قدره في صناعة الكتابة لم يُرَ صالحاً لديوان الانشآء اي ان يكون بين المنشئين ، ثم قال بعد ذلك وكنتُ انشأت تقليداً الخ .. ثم قال بعده فاما التقليد الذي انشأهُ الصابي الخ . . والتقاليد كانت في الدول العربية اوسع بكثير من «الفرمانات» التي نعرفها في الدولة العثمانية ، وكانت تتضمن اوامر الخليفة ونواهيه واحساناته وانعامه ولاسيما اذا كانت في تقليد احد وزرآء الدولة او اقارب الخليفة ولايةً من الولايات البعيدة العظيمة ، فالتقليد حينئذٍ كان يشتمل على وصف الحرب وانواع الاحكام والخراج والجزية والعطآء والاعشار والصدقات والجوالي ووجوه الجنايات والحسبة الى شيءٍ كثير من مثل النفقة والمظالم والاسواق والمساحة ودور الضرب وغيرها ووصف هذا جميعه بحدوده وتعيين جائزه وممنوعه واصوله وفروعه وواجبه ومفروضه مما يقتضي علماً كثيراً وفهماً ونباهة وطلاقة ذهنٍ قل ان تجتمع لغير افراد من اكابر الكتاب العلمآء ، ومثل هولآء كان يُطلق عليهم لقب منشيء او ارباب الانشآء .

فاذا علمت هذا هان لديك تقدير قول صاحبنا المتقدم الذكر

فاطال فيه النظر ثم قال اعترف لكم بكل اخلاص انني لم افهم شيئاً ، فان كنا بعد مزاولتنا العلم دهراً طويلا ، وممارسة ذلك الاستاذ فن التعليم زمناً لم يُفتح علينا بتفهم تلك الطلاسم ، فماذا يكون امر ذلك الفتى الذي يطلب منهُ استاذه ان ينسج على منوال هذا الكاتب وامثاله ؟ بل لو سأله ان يشرح ما استطاع فهمه من تلك القطعة او التمرين لما نبس بحرف ، واليك ما يقول صاحب القطعة في الفرق بين الكاتب والمنشيء : في عرفي هو ان الكاتب انسان قبل ان يكون حامل قلم ... ثم بعد ان تقرأ لهُ ثلاث صفحات من امثال هذا السخف تستخلص منهُ انه يرى منقوده غير جدير بان ينعت بالكاتب بل بالمنشيء . ثم يقول والمنشيء قليل المعاني والافكار (كذا بحروفه) ، اما قوله ان الكاتب في عرفه هو انسان قبل ان يكون حامل قلم ، فلا نرى ان نزيد تعريفاً في سخافة هذا التعريف ، وياليت شعري هل يحمل القلم احد من غير النوع البشري ؟ فما معنى هذا التعريف ؟ وماذا يفهم منه ؟ وكيف يكون المنشيء قليل المعاني والافكار ؟.وماذا فهم من لفظ المنشيء ؟ والانشآء في اللغة هو الانشاد وهو الاحداث ايضاً ، لكنه عند علمآء المعاني تعريف لاسمى طبقات الكتابة ، قال صاحب المثل السائر — فلما حضر بيغداد (والكلام عن الحريري صاحب المقامات) وَوُقِف على مقاماته

التي يُعلَّم بها في المدارس في مصر وسورية ، وقد كنا اطلعنا في الجرائد والمجلات على وافر الثنآء عليها ، ومدح لنا بعضها اناس مشهود لهم بالعلم ، وبعض تلك الكتب لتعليم الصفوف العالية في المدارس طرق الفصاحة والانشآء ، فظهر لنا ان جامعيها لم يُرزقوا حسنَ الاختيار ، وقد تكون عاقبة عملهم التجاري رابحة ، الا انهم لم يسعدهم الحظ بسلامة الذوق في كثير مما اختاروه ، ولعل ذلك كان لرغبتهم في الاختصار حيناً ، وحيناً في تكثير عدد الاسمآء من الشعرآء والكتاب دون غربلةٍ ، حتى ظهر في كثيرٍ مما اختاروه استخفاف بالعناية المقتضاة في مثل هذه الكتب ، وغفلةٌ عن البحث الواجب في مقدار انتفاع طالب العلم منها ، وهي موضوعة في الأكثر ليحتذي الطلاب مثالها وينسجوا على منوالها . واذا نظر الناقد في بعض المقطوعات او الامثلة المجموعة في بعض تلك الكتب تملكهُ الحيرة مما يرى ، فقد تقصّينا في فهم كلام بعضهم طويلاً فما انتفعنا بشيء ، حتى كدنا نتهم نفسنا بنقص الفهم ونقول أتراهُ يكتب بلغة عربية ام هو لفظ عربي في تركيب بين الفرنسوي والانكليزي ، ام لا هذا ولا ذاك بل شيء آخر من احاجي صناعة الكتابة ؟ ولما اعيانا فهم ذلك ، وكان موضوع كلام الكاتب انتقاد كاتب ، عمدنا الى عرضهِ على احد الافاضل من المدرسين

وأَطِلْ في العلم مذاكرةً فحيـاةُ العلم مذاكرتُهْ

ومنها بالتلقين وهو تعليم النشأ الصغار .

والتعليم صناعة من اجلّ الصناعات ، لـكنهـا من ادقها علماً واصعبها مطلباً ولا تنقاد الا لمن ذكا طبعه ، واتسع صدره ، وكرم خلقه وقد عرف الشاعر العربي جلالة قدر هذه الصناعة فقال

اقدم استاذي عـــلى فضلِ والدي
وإنْ كانَ لي من وَالدي الفخرُ والشرَفْ
فذاكَ مربّي الروحِ والروحُ جوهرٌ
وذاكَ مربي الجسمِ والجسمُ من خزَفْ

ولا تسمح الحكومات بالتعلم في البلاد الغربية ، الا لمن كان في يده اجازة من مدرسة عالية يُتقّن فيها فنُ التعليم ، اذ انها على يقين من ان تلك المدارس لا تمنح اجازة بالتعليم الا لمن خبرت قويم ادبه ومحاسن اخلاقه وفطنته ومقدرته على التعليم .

واول ما يحتاج اليه الاستاذ بعد معرفة التلقين والتعليم هو الفطنة ، وهي تقوم بتمييزهِ مدى ذكاء المتعلم وفهمهِ ، وهو غرَض قصيّ لا نحسَب عندنا اي بين العرب ممن تنبّهَ لهُ الا قليلون من الاساتذة ورؤساء المدارس ، ونحن نعترف مع الاسف اننا لم نذهب الى هذا الزعم الا بعد ان وقع الينا عدد غير قليل من الكتب

والعلم هو الادراك الكلي والادراك المركب ، وتوسعوا في التعريف الفلسفي الى غير ما اشرنا اليه مما يخرج عن الغرض الذي توخيناه في هذا البحث .

والذي يتحصل من ورآء ذلك جميعه ومما نقصد اليه ، هو ان محبة او رغبة العلم غريزة من الغرائز البشرية منشاؤها حبّ وقوف المرء على ما يجهل او عما خفي عنه ، ولما كان منذ صغره يبتديء البحث عن المجهولات والتفتيش عن الخفيات ، اي في حين جهله كل شيء ، فيبتديء علمه ضئيلا جداً ، اي ان حبه المعرفة هو بنسبة طفوليته ، ثم يتدرج بما يعرفهُ يوميا في سبل الاستطلاع الى ان يقارب البلوغ ، فان كان حب تحقيق المعرفة من سجاياه ولم يكن بليداً طلب العلم ولا يزال يتقدم ويتمرن حتى يبلغ منزلة العلماء ، فان جعل صدره قبر علمه ، اي انه ُسرّ بما حصل له من المعارف والعلوم واكتفى منها بالمطالعة والمراجعة للذة نفسه فذاك هو الانانيّ بل العالم الاشل بل العاجز ، وهو اشبه شيء بالشره المتأنق في طعامه يسبل الستور دون مائدته .

اما العالم العامل فهو من يعلم ويُعَلّم ، بل هو من يعتقد انه لم يتعلم الا ليعلّم ، وللتعليم فنون ، فمنها نشر العلم بالتصنيف والتأليف ومنها التعليم بالخطابة ، ومنها بالمذاكرة ولله در الشاعر

امثال هولآء حتى ظهروا بمظهر مسخرة في اعين العقلاء وآلةً بايدي الجهلاء، يفاخر فريق بالآخر ليوهم السامعين والناظرين ان هناك براعة موسيقية وصناعة تلحين، فيكذب السامعون على انفسهم خجلاً وتمويهاً ويتظاهرون بالاعجاب.

واذا تأمل اللبيب فيما وصل اليه فن الغناء العربي على ايدي مجدديه اليوم في مصر، يُطرق خجلاً امام الامم الاروبية، اذ لا ريب في انهم عند سماعهم هذه الطمطمانية والتقليد المخزي المعيب، لا ينزلون الامم العربية كلها فوق منزلة الهمج من الزنوج كالزولوس واضرابهم.

الباب الخامس عشر

في العلم والتعليم

حبُّ العلم غريزيٌّ في كل انسان، او بلفظ اصح حب المعرفة، وبينها وبين العلم فروق، اذ أنَّ الفلاسفة اعتبروا العلم بعد المعرفة، لقولهم ان المعرفة هي الادراك المسبوق بالعدم، ونعتوا بها الادراك الثاني اذا تخلل عدمٌ بينهُ وبين الادراك الاول، والمعرفة هي الادراك الجزءي والادراك البسيط، اما العلم فهو حصول صورة الشيء عند العقل، وهو ايضاً الاعتقاد الجازم الذي يطابق الثابت،

من رُذالة الناس ، يتواجدون ويتصايحون ليخدعوا سواهم من البسطآء واما المنخدعون فهم من لا علم لهم بفن الغنآء او الموسيقي - وما اكثرهم - وبعضهم يتخادعون لما يرون من تواجد وتصايح الخبثآء المستأجرين خشية ان يُقال عنهم انهم لا يذوقون طعم الغناء والموسيقى - الجديدين الرفيعين - فيبدون امارة الاستحسان والطرب ، قلت ألا يخامرك ريبٌ في صواب هذا الحكم او الرأي ؟ قال لو كان القضآء في مسئلة ذوقية محضاً او حسية محضاً ، لما ابديت رأياً قاطعاً ولا اعلنتُ قولاً الا بعد المشورة ، فقد يستطيب الناس لوناً من الطعام تعافهُ نفسي لسبب في جوفي او في انفي ، وقد استخشن ما يستنعمه الأكثرون او بالعكس لنعومة في جلد كفي او لخشونة ، واما ان ارتاب في صدق حكمي على فساد غنآء او قبح صوت او شذوذه من اصوات البشر او الموسيقى ، فذلك مما لا يجوز لي ، اذ الامر في ذلك يخضع لقواعد فنية وذوقية ، لا ذوق طعم او لمس ، بل ذوق عقل وعلم واذن قد اعتادت استحسان مليح الاصوات واستنكار قبيحها ، ولذلك فاني ارضى بحكم كل من يذوق صناعة الغنآء العربي ، من سائر النبهآء والاذكياء الذين لا صلة بينهم وبين هذه الزعانف « وفنانيها » من اهل التجديد والانتفاخ .

فاذا نظر العاقل الى ايّ حدّ من تيه الغرور دفع الانتفاخ

والهوان ، وهذا الروح روح عبادة المال ، عبادة المنفعة ، لا حياة معهُ للعلم ، اذ قِوامُ العلم والتعليم الترفع عن غرض الكسب ، والزهد بالمال والنزاهة عن الانتفاخ ، والعبودية والاسترقاق للعلم ، والاغراق في عوالم التخيلات ، لانتزاع احاسن التصورات (١)

ولما انتهيتُ الى هنا ودعت صاحبي ومن كان هناك وعاهدتُ نفسي الا اسمع غناءً عربياً ما لم اثق بانهُ تلحين قديم .

فقلتُ لمحدثي وانا اعجب بروايته وحسن ذوقه وصدق فِراسته ووضوح برهانه ، إذن انت تظن ان كل هؤلاء مخادعون ؟ قال لا بل فيهم المخادعون والمنخدعون ، فاما المخادعون فهم عبيد المنفعة

---

(١) من احاسن الاتفاق اننا عندما اخذنا في تبييض هذا الباب وقع تحت انظارنا عنوان ـ المسرح المصري قرار وزير المعارف ـ في جريدة المقطم المشهورة بتأريخ ٦ شباط (فبراير) من هذه السنة ١٩٣٥ فقرأنا ما اثلج صدرنا وحقق عندنا انه لم يزل في بلادنا عدد كريم نقول هذا لتذكرنا قول السموأل

تُعيرنا انّا قليلٌ عديدُنا فقلتُ لها ان الكرامَ قليلُ
وما ضرنا انّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجار الاكثرين ذليلُ

وهذه صورة تقرير الوزارة :

« بما ان التمثيل المصري اصبح من سوء الحال بحيث تجب المبادرة الى النظر في شأنهِ واصلاح حالهِ في نطاق واسع يشمل تكوين الفرق واعداد الممثلين والمخرجين وايفاد البعوث ورفع مستوى التأليف والتعريب وترقية الاخراج والموسيقى والغناء المسرحي وغير ذلك مما يتصل بالتمثيل وبما ان الاقتصار على منح اعانات قليلة للفرق القائمة لم يحقق في كثير ولا قليل ما كان منشوداً من اصلاح التمثيل . وبما ان الحال تقتضي تأليف لجنة للنظر فيما يجب لترقية المسرح المصري لذلك قرر : المادة الاولى — تؤلف لجنة . . . »

او غناء، وهي في الحقيقة اول ما بدأ بها اصحابها، لم تكن الا تقليداً من جهّالٍ وسُكّارى لم يذوقوا حياتهم كلها شيئاً من طعم الموسيقى او غناء الامم الاروبية وصناعتها الساحرة، وقد راموا التجريس فلم تسعفهم قرائحهم واصواتهم الا بهذه الصورة الممقوتة المخجلة، ثم حسَّنَ بعضهم الى بعض في الجرأة على الجهر بانه غناء عربي من باب التجديد، وحاشا للهِ ان يسمى هذا من فن الغناء العربي فهو كفر بمحاسن هذا الفن. قال الراوي ثم قلت لصاحبي والتلحين والايقاع واختراع النغم في الغناء والموسيقى كل هذا بل بعضهُ يستدعي قرائح تحاكي اعجب وابدع قرائح الشعرآء النوابغ وتقتضي معارف واسعة واطلاعات كثيرة، بل الوصول الى ما ورآء الطبيعة كما عرّفَ الموسيقى شوبين هاوير بقوله ما ورآء الطبيعة بالحسّ او بعبارة اخرى ان الموسيقى هي ما ورآء الطبيعة بالحسّ لا بالنظر ولا بالفكر، ومن اين «لفنانكم» هذا بمثل شيء من المعارف التي ذُكِرَتْ؟ أليسَ هو العواد فلان؟ او الصنّاج فلان؟ وكلاهما احمق من هبنقة وان دعوهما تارة متفنناً «فناناً» واخرى استاذاً ولو انصفا نفسيهما لما تعرضا لهذا المقام العليّ، ولكنهُ جنون العصر، وحب الانتفاخ والجشع على الكسب، ولو بالنهب، او اهانة الأكابر والسب، او بالتمرغ على تراب المذلة

منكر ثم عقبه جلبة وتصفيق شديد، فقلت لصاحبي ومتى يغني صاحبك؟ قال ألا تسمع؟ قلت ماذا قال انصت فاذا بالصوت المنكر فقلت ما هذا ماذا يقول؟ فقال هو يقول قلبي لبعدك، فقلت ولماذا ينعر هذا النعير؟ قال ليحاكي النغم الفرنسوي ألا تسمع كيف يصيح قلبي، قلت لم افهم انهُ كلام عربي حتى ذكرتهُ لي، فعلى مَ يشخر بقولهِ قلبي وينعر، كأنه يستهزيء بالافرنج ويسخر؟ قال لا بل ليحاكيهم في نبراتهم وقراراتهم، قلت ان هذا التقليد اشبه بالسخرية من غنائهم البديع ولله درّ القائل

يرومون شأوي في الكلام وانما
يحاكي الفتى فيما خلا المنطقَ القردُ

وقد اذكرتني نعرات «فنانكم» هذا قول ابي الطيب ايضاً

واذا اشار محدّثاً فكأنهُ قردٌ يقهقهُ او عجوز تلطمُ

وهب ان المغني اراد محاكاتهم أيحسبُ انهُ بهذا التقليد البربري القبيح يأتي بما يُستحب او يُستحسن او يُطرب؟ قال لم اسمع من سواك تهجينَ هذا التجديد وذمّه، قلت وانا لا ارى انساناً ذا اذنٍ صحيحة يطرب للاصوات الحسنة والنغم الرخيم، بل من لهُ شبه ذوقٍ في الغناء من عربي او افرنجي، يطيق ان يسمع الى هذه المحاكاة المخزية المعيبة المضحكة المبكية، وان يطلق عليها اسم موسيقى

غرضهم وهو وضع نغمات جديدة للاغاني السفهية المبتذلة التي ينظمها ابناء الشوارع ، او اختراع موسيقى عربية جديدة ، واحتذوا بذلك على مثال المجددين في اللغة ، أوَ ليس التجديد تياراً كغيره يجرف كل من تعرض لهُ ؟ أوَ ليسَ هذا الفكر من باب الانتفاخ ، حدّث احدهم قال اكثر الناس في مجالسهم ذكر « الفنان » اي المتفنن فلان وانهُ بذّ كل « فنان » بما ادخله على صناعة الالحان العصرية والموسيقى العربية حتى غلبني شوق شديد الى استماعه ، وانا منذ الصبا بي ولع بالصوت الحسن والموسيقى عامةً من عربية وافرنجية ، فذكرت ذلك لاحد اصحابي وكان ممن أولِع بالموسيقى ايضاً فقال ان شئت اسمعتكهُ الساعةَ ، قلت وكيف ذلك ؟ قال هيا بنا الى منزل اقربائك ـ وذكرلي اسمهم ـ فان عندهم مِسمعة (فونوغراف) ولا بدّ من ان يكون بين اصواتها صوت لصاحبنا فلان ، فقلت ذاك اليك فلفّ ذراعه بساعدي وسرنا حتى وصلنا الى منزل النسيب ولم نكد نستقر حتى حكى له صاحبي سبب زيارتنا وطلب المِسمعة ثم نظر في الواح الاصوات وانتقى منها لوحاً وقّعهُ على المسمعة وادار دولابها قال الراوي فاصغيت كلّ الاصغاء ، فاذا بجَلَبةٍ ثم سمعت رنة عودٍ ثم عقبها صوت كمنجةٍ ثم عادت فغلَبَتِ الجلَبة وصاحبي يتفرس فيّ وانا أصغي ولا اسمع الا اصواتاً مختلفة وبينها صوت

ومن هذا الباب باب الانتفاخ والحمق تصدّر بعض الاغرار للانتقاد ولا آلة لديهم وانما هم عبيد الشهرة او عبّادها، فان هم لم يتوصلوا اليها بالتافه من قرائحهم المستحجرة، عمدوا الى مدح كاتب او شاعر قرظوهُ، ثم برزوا للطعن على كل من انتقده لمخالفته رأيهم السخيف، فان عجزوا عن الدليل - وما اكثر ما يعجزون - لم تعجزهم المسبة، وبامثال هذه الوسائل يقصدون الوصول الى الشهرة التي يتهالكون في سبيل نيلها.

ومن جنون الزمن - اذ يظهر للباحث ان للازمان جنوناً كما للناس ومثل ذلك للممالك والامصار ولستُ ادري أيعدي البشرَ جنونُ الزمن ام الناسُ يُعدون المكان والزمان؟ - اقول ومن جنون الزمن ان علة الانتفاخ هذه قد فشت كثيراً في بعض الامصار حتى كادت تعم احداث السن ولاسيما فتيان المدارس، فهم ان لم يجدوا عملاً او لم يجيدوا قولاً يسيّر ذكرهم على السنة الخلق او في الصحف، توافقوا على ان ينشر احدهم قصيدة او مقالة ثم يعقبه صاحبه بتقريظ تحت عنوان «انتقاد» ليشهروا اسماءهم بين الشعراء والكتاب، وفي ذلك تضليل وتغرير لمن هم دونهم في السن والعلم.

ومن هذا الباب ايضاً بل اشنع منه واشد وقاحةً تعرض بعضهم للتلحين والايقاع والضرب والتخريج، وكله لا يخرجُ عن

تنشرها كل يوم مجلات اولئك الاقوام وصحف اخبارهم ، ولسنا في البحث عن خبائث السياسة ولا عن شيء بعينه من هذا الباب وان كان غير اجنبي عن موضوعاتنا لانه داخل في بحث ادب النفس وانما ساقنا اليه الكلام في الانتفاخ وانحطاط الاخلاق والجرأة على الفحش الجرائم وافظع الاثام .

فلا عجب بعد ان قل الحيآء بين الناس الى هذا الحد المتناهي في فوضى فساد الاداب ، بل التباهي والانتفاخ في الاقدام عليها ، ان نرى زعانف كل صناعة قد مدت يديها الى ما يعلو اقدارها غير مبالية بفضيحة القصور وعار الفشل ، بل برز اكثرهم بثوب استاذ منتفخ يتكلم من علُ ، فيزري على العلمآء مناهجهم وعلى الكتاب طريقتهم ولاسيما المتقدمين ، ويتوهم ان في استطاعته ان يجمع بين لهجته العامية ومحصوله من الاعجمية وما اقتبس من افاق الارجآء البعيدة والاجوآء الغربية ، وان يفتق للناس من هذا الخليط المضحك المستكرَه لغةً عربية تطأطىء لدى فصاحتها رؤوس البلغآء ويفهمها عامة الشعوب العربية ، ومَن لا يفهمها فليتعلمها اذا شآء ، ولهُ ان يدخل فيها ما يعجبه من اللفظ فتزداد ثروة ــ وفصاحة ــ بل ما قيمة الفصاحة عند هذا الفنان ــ كما يقولون ــ وامثاله في جنب المعنى مهما كان خسيساً ؟ .

والحكومات وانتشار الظلم وانواع الفساد والفواحش في اكثر طبقات المجتمع البشري المتمدن ، حتى اجمع عقلاء الامم من محبي الفضائل ، على أنَّ هذه المدنية العظيمة التي وصل اليها الانسان بعد مشاق يعجز وصفها الواصف ، قد تنمحي بما انتشر من الفساد والشر تحت عنوان الديمقراطية في امةٍ من ارقى امم الارض ، اذا لم يتدارك عقلاؤها وغيرهم وضع حدّ لهذه الديمقراطية بل فوضى الفساد والخبائث اذ تعمّ عدواها غيرها من الامم ولاسيما جاراتها ، ويومئذٍ تعمّ الفوضى التي لا يُعرف مصيرها ، وفي اخرها يتم انقضاض هذا الصرح الشامخ من حضارة القرن التاسع عشر وبدائع مدنية هذا الثلث الاول من القرن العشرين وغرائبهِ وما يُرجى بلوغه من خفيات عجائب الكون بالوسائل التي ادركها العمران الحالي باجتهاد العلماء ، وذكاء قرائح المخترعين وصبرهم ومخاطراتهم بالنفوس النفائس ، وسواعد العاملين ، وتدبير اهل الرأي ، وعدالة الاحكام ، وسلطان الشرائع السموية والقوانين الدولية وعمر الزمان ، بل ان في عدوى هذا الفساد تقويض مدنية سبعين قرناً او تزيد وهلاك امم لا يحصيها الا الله .

وانّ ما ذكرناهُ من الشر والفساد اللذين انتشرا بين تلك الامم ليومنا هذا ان هو الا لمحةٌ ضئيلة جداً من مطولات المقالات التي

الاخلاق فوق ما فتكت في الاجسام البشرية ، وهي ان كانت قد اهلكت سبعة او ثمانية ملايين من الناس ، وخلّفت وراها نحو خمسة ملايين ايضاً من العمي والصم والبكم والمقطعين والمشوهين ، فقد افسدت اخلاق مئات الوف من الخلق انتشروا بلباس الجند وغيرهم في سائر الممالك لا عمل لهم الا السلب والنهب واللصوصية والجاسوسية والفسق والغدر والغش والاحتيال حتى اقدموا على خطف الناس من بيوتهم والهجوم والغارة على المصارف الكبيرة في نصف النهار وعلى سلب الخلق في قارعة الطريق وعلى مشهد من المارين وعلى سفك الدمآء والتعذيب كأنَّ ارواح البشر دون ارواح الكلاب ، هذا كلهُ واكثر مما وصفنا، تراهُ وتسمع بهِ كل يوم وتقرأ اخباره في الصحف السيارة وهو يقع في ارقى بلاد الارض مدنيةً وعمراناً ولاسيما اميريكا وفرنسا الجمهوريتين العظيمتين . بخٍ . بخٍ .. عدا ما يأتينا كل يوم عن انتشار الفساد والرشوة في شرطة بعض الدول وحكامها انتشاراً فاحشاً فاضحاً ، وهما الركنان العظيمان لسلامة الاموال والابدان ولله در الشاعر

يا حكمآء الارضِ يا ملح البَلَدْ ما يصلحُ الملحَ اذا الملحُ فسدْ

واضف الى ما ذكر فضائح لا عدّ لها من اختلاس افراد الناس ودوائر الحكم وافلاس الوف من المصارف وشركات التأمين

يرى من ثمرات اقلامه .

ومنهم من يأتي بمقدمة كلامه ويقسم الكلام الى انواع ثم لا يأتي بنتيجة ولا بانواع ، فاما ان يكون ذلك عن عجز منه ، او أنهُ يظن في منحهِ الكلام حقه من الايضاح مع انهُ لم يوضح شيئاً ، وهذا غاية في الفهاهة .

وكثير من امثال هؤلآء ـ وعلى ضروبٍ شتى من الشذوذ ـ قد تولّتهم علّة الانتفاخ ، وسوآء في ذلك طلاّب الانشآء وطلاب النظم في كل عصر وعند جميع الامم ، وقد شكى منهم افاضل ازمانهم والعقلاء ، واما الذي نراه من ذلك في عصرنا هذا ، ولاسيما منذ السنة التاسعة عشرة من هذا القرن العشرين فقد فاق وتجاوز كل حد ، اذ كادت تتساوى اخلاق اهلهِ في الانحطاط والتدني وتتجارى في السقوط والرذائل في كل بقعة من بقاع الارض ولاسيما عند الامم المتمدنة ، ولعل الامة الانكليزية لم تزل الى اليوم متمتعة بتقدمها على جميع الامم تهذيباً ، وانها والحق يقال اقلّ الشعوب شرّيرنَ واراذل ، ومن المعلوم ان منشأ هذا التقهقر جميعه في ادب النفس ، هو هذه الحرب الضروس المسمّاة بالعامّة ، وهي التي وقعت في منتصف الرابعة عشرة بعد التسعمائة والالف ، ولم تنتهِ الا اواخر الثامنة عشرة ، فانها في مدى هذه السنوات الاربع ، قد فتكت في

بل كبراً وانتفاخاً ، فيقتسرون قريحتهم على الانتاج ، فتلد لهم بعد اشد الطلق واعسرهِ ، مسوخاً يسمونها ضروباً من الجمَل ، وهي تُقرأ بعناء جزيل ولا تُفهمُ بل هي غاية الغايات في السخف كقول احدهم ـ ليس للمنشىء رسالة خاصة يؤديها من لدن الحياة ويضيع شفرها اذا لم يقم هو بادآئها ـ الى كثير من امثال هذا الخلط والتقعير حتى تحسب الكاتب في هذيان حمى شديدة .

والعجب من هذا وامثاله ، انهم اذا لم يحاولوا الابتداع والتعمق ، ولاسيما اذا استحسنوا محاكاة طريقة مسلوكة مألوفة في فن الكتابة ، فانهم لا يبعدون عن متوسط الاجادة وهذا دليل على انهم وان كانوا لم يُرزقوا قريحةً فياضة لكنها ليست غاية في العقم وليتهم اتعظوا بقول الشاعر

جازَ حدودَ اجتهادهِ فاتى غيرَ اجتهادٍ لامّهِ الهَبَلُ
ابلغُ ما يُطلَبُ النجاحُ بهِ آلـ طبعُ وعندَ التعمقِ الزللُ

ومنهم من يظن انهُ فَكِهٌ مزّاح ـ ولِفَنّ التفكيه والمزاح اناس فُطروا عليهما ـ فمن اقتحم الدخول في هذا الباب ولم يكن ذلك في غريزته ، فاكثر ما يأتي به التافه البارد وقد يرضى عنه بعضهم ، وهولآء يُعدّون عند اهل الذوق من البلداء . وقد يُضحك بعض الصبيان لانهم لا يفهمون شيئاً من كلامهِ ، وهذا غاية ما

يندر ان ينجو من تأثيره احد من المعاصرين، وكثيراً ما يعثر الناقد على اغلاط لاكابر العقلاء والعلمآء، فيحار في تعليلها واذا امعن في البحث عن عادات اهل العصر وكثير من الاوهام التي تفشو فيهم وترسخ رسوخ المذاهب والمعتقدات، ايقن ان صاحبه ممن جرفهم تيار عصره، ولم ينجُ من سلطانه وقهره.

الباب الرابع عشر

في الانتفاخ

إنّ بعض العلم ينفخ، حكمةٌ قديمة تشهد لصدقها حوادثُ القرون مهما تقادم عهد النطق بها، ولذلك قالوا ان الجاهل المعترف بجهله خير من نصف العالم، واكثر ما يُرى الانتفاخ في ذوي القرائح العُقّم.

فمن باب الانتفاخ المذكور، ان بعض عشاق التشاهر ومُغرَمي الاعتلان، يودّون ان يأتوا بالمبتكر اثنآء مطالعاتهم كتب العلوم الادبية في اللغات الفرنجية، وعندما ياخذون القلم ليخطّوا ما تتوق اليهِ نفوسهم وما يحسبون ان يكون قلادة في جيد العربية، او غرة لم تنتج مثلها قريحة شرقية، تعاصيهم القريحة فلا يرضون ان تعترف ضمائرهم امام محكمة صوابهم بالعجز عن ذلك إبآءً وأَنَفَةً

هولآء الاجلاف الفقرآء تُعطى مراتب اهل العلم وعنهم يتوارث الشعرآء مراتبهم؟ واذا انت فتشت مئة كتاب من كتب الذين تكلموا في الشعر والشعرآء، لا تجد حكماً ولا اعتراضاً ولا قولاً غير ما قال اولئك الجُفاة من أكلَةَ الجراد والشيح والقيصوم كأن اقوالهم من الاحكام المنزلة واذواقهم غَسَّالة الاذواق المُعلّلة، ولعل احدهم لم يكن يأبى عشر عنزاتٍ او اقل ثمن حكم يسجلهُ بقصيدة سبابٍ وفحش، وانت تعلم كيف كانت شهادة الاعرابي بين سيبويه والكسائي. وكلما امعن الناقد في الوقوف على سير العلوم تبين لهُ شدة تيار التقليد عند جميع الامم، فقد كان منتهى علم الكاتب في علمٍ من العلوم، ان يحرص كل الحرص على نُقول من تقدمه واسناد كل قول الى من نقل عنه كأنه ايات بينات او احاديث مسندة، دون اعتراض على معنى او جملة او لفظ، اللهمَّ الا ما كان متعلقاً بالصناعة اللفظية، ويحسب انهُ اذا اكمل كتابهُ على تلك الصورة فقد ادّى امانة العلم، اما ذوو القرائح المبدِعة فقد كانوا قليلي العدد ولاسيما ذوي الابصار النقادة في كثير من العصور لاسباب كثيرة ذكرنا اهمها في الجزء الاول من كتابنا هذا.

وعلى الجملة فتأثير التيار الجارف اي العام الذي يجرف بعمومه غير مملكة من الممالك، مما لا يماري فيهِ سوى المكابر، اذ

ركبةً على ركبةَ ، ظهر من عريهنّ بعد لبس الغلائل الموّشاة ، ما كان يجب إحصانه عن عيون الامهات ، ولم تنجُ من هذا التيار الفضّاح الّا مقطّعات الستين او من عصم ربُّك وقليلٌ ما هُنّ .

ومن بلايا التقليد ان كثيراً من الناس يسترسلون اليه تدريجاً وفي غالب الاحيان عن سلامة صدرٍ لا بغية التقليد بل كانه امر لا بد منه ، وكلما امتد وتشعب عظم تياره حتى يجرف احزم الناس واعقلهم كما ذكرنا ، فكم اديب طوت ذكره التواريخ لغضب الملك او احد الحكام عليه ، وكم نَكِرة عريّ من كل فضل توصل بالخبث او بالسعاية او بغير ذلك من الاسباب الذميمة الى ارضاء امرآء وحكام بلده فذُكر اسمهُ بين الاعيان والاعلام وامتدت شهرته في حياته ثم ظلت بعد موته ، ومنهم مَن عُدَّ عالمَ عصره او شاعر مصره ، ثم ظل كذلك بحكم تيار التقليد وهو الوقوف عند قول فلان ، والحكم بما ارتأى الشاعر فلان ، والذين جرفهم هذا التيار من اهل العلم خلق كثير منذ حكاية المفاضلة بين شعرآء الجاهلية والمخضرمين والمولدين الى يومنا هذا ، وياليت شعري ما قيمة بدويّ جلف يشهد لجرير على الفرزدق او للاخطل على جرير ؟ وان هي شهادته الا قوله مسبة هذا كانت ابلغ من ذلك وفحش هذا كان دون ذاك ، وهل لمثل هذه الاحكام يخضع شيوخ العلم ومن مثل

العجيبة ، ولا ادلّ دليل على ذلك من شهادة علماء الالمان آخر الحرب العالمية .

ومثل ذلك تيار علوم السحر والتنجيم وغيرها فقد جرف اناساً من الفلاسفة غير ابي العلاء ومن اكابر العقلاء ومنهم من من كتب وملأ الصحائف بما ظنه علماً راسخاً كالجبر او الهندسة ، حتى كان الملوك لا يُصدرون اوامرهم باعتلان الحرب او بهجوم الجيش ، الا بعد ان يستخرج منجم الملك الطالع للنهار والساعة التي يُسعَد فيها الملك ، وكان يؤتى لكل مولود في بلاط الملك بالمنجم يستخرج لهُ طالعه وينظر في مستقبله ، بل كان بعض الملوك والامرآء لا ينتقل من قصر الى آخر ولا يحتجم ولا يستحم دون ان يستخرج المنجمون لهم طالع ما ينوون عمله ، حتى ان كِپلر الفلكي العظيم صاحب القواعد المشهورة وكاسّيني قيّم مرصد پاريس وكوْردان الطبيب الرياضي المشهور ممن جرفهم تيار هذا العلم الذي نعده اليوم من الخرافات .

ومن اعظم البرهانات الناصعة والحجج البينة على اجتراف التيار ما رآهُ الناس منذ اعوام قريبة اذ جرف تيار زيّ التعرّي نسآء هذه البلاد الشرقية نفسها ، بلاد الحجاب والتصون والعفاف والحيآء ، حتى كان اذا لَفَّتْ رَبّاتُ الخدور ، وربائب الحجال والستور ،

من الحرب ؟ وهي تُحسَب الى اليوم سنّةً بين الامم ، وانت لا تجهل ان القتل طعام لا تستلذهُ الاذواق ولا تهضمهُ المَعِد ولا تستحي النفوس من الاحجام عنه والهرب منهُ ، ومع هذا كله فان خبر اعلان الحرب بين امتين وان وقع ساعة اذاعته وقوع الصاعقة على ارؤس الناس ، فهو في نفس الساعة يخلق فيهم تياراً هو تيار الحقد والبغض والغضب ، تيار اخذ الثأر وكشف العار ، تياراً يتصارع فيهِ الطيش والفطنة والحمق والحلم والخطأ والصواب ، وينفخ في تهييجهِ دُهاة السياسة من الامتين تحت ستار الوطنية فيصرع الطيش الفطنة ويتغلب الحمق على الحلم ويسدل الخطآء على الصواب اسدال الظلام ، ويتغنى ذوو الشرّ باناشيد الشعرآء ويزَمرون بمزامير الاغاني الحماسية وتجري اقلام الكتاب وتنطلق السن الفصحآء بخطب الحماسة حتى ترى الجبنآء ، مندفعين الى الهيجآء ، واصحاب الحزم ، واهل النهى والحلم ، والنافخين في التهييج كلهم بين من اجترفهم التيار .

ومن التيار الجارف ان تزعم الامة التي اوقدت النار وسلّت البتّار انها هي المظلومة وانها هي المُعتدى عليها ، ويجرف هذا الرأي جلّ عقلاء وعلمآء تلك الامة برغم ما بلغوه من رفاهة العمران وبسطة المدنية وما ادركوه من سعة المعارف والعلوم واختراعاتها

وكما في التنزيل كلُّ حزبٍ بما لديهم فَرِحون ، على ان عقلاء كل امةٍ وان اعترفوا بمحمود العادات التي في سواهم من الامم ، فانهم شديدو التعلق بما ورثوه عن اجدادهم من الاخلاق والعادات المستحسنة ، وهي فضائل وسجايا ليست دون سواها تُحبّبُ الى مجموع الامة التمسك بها والجري عليها ، بل قد يكون في اخلاق بعض الامم وعاداتهم شيء من النبوّ عن الذوق الحسن ، او بالعكس عما ليس بالحسن ، الا ان التيار الجارف ، ونريد بهِ هنا التقليد والتشبُّه ، يدفع اهل المدينة او الامة الى استحسان ما ليس بالحسن وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ، وقد اشرنا الى هذا الموضع في رسالتنا المعنونة بالموازنة بين الألعوبة الالهية ورسالة الغفران ، او بين ابي العلاء المعري وداتني شاعر الطليان ، ولعلنا ننشرها في آخر هذا الجزء اذ موضوعها وموضوعهُ واحد .

وعلى الجملة ان تيار الارآء كتيار العلوم ، وهذا كتيار الاداب وتيار العادات كتيار الازياء وهلم جراً ، وكل تيار يجرف ما امامه ، فلا يصده اعتراض ، ولا تقف في وجههِ حجةٌ ، ولا تستعطفه استغاثة ، ولا تثني اصحابه عظة او نصح ، ولا يُقنعهم برهان ، فكم من رأي فائل فشا بين قوم فجرف تيارهُ احزم الناس رأياً واوفرهم حصافةً ، وهل من رأيٍ اشد طيشاً وخطأً واقبح عاقبة

صفاته ـ في لبس اللون كذا وشكل اللباس كذا ولون الفرش كذا الى ما لا ينتهي من ضروب التقليد في اكثر احواله ، وكلما اتسع شكل من اشكال التقليد فانه يصبح تياراً يجرف عموم المدينة او الامة ، وهذا غير مقصور على بلد من البلاد ، بل قد يعم المملكة اي الامة كلها ، وشاهده ميسور لمن تتبع النقد بعين بصيرة ، فهذه الامة الفرنسوية قد اشتهر عنها حب الاقتصاد وحسن الذوق في المفروش والملبوس والمأكول وان ضاق المسكن او الملبوس ، او تقتّر المأكول ، واشتهر عن الامة الانكليزية حب السعة في العيش والرفاهية والراحة في المسكن والملبس وان لم يكن في ظاهرهما كمال الحسن والذوق ، واشتهر الكرم عن العرب ، فهذه الاخلاق في الامم ـ وان كانت دون ارتياب في اول امرها محاكاة المرء بما استحسنه من سواه ـ فقد امتدت من جار الى جار حتى عمّت المدينة ثم امتدت فعمّت المملكة كلها ، ولم تزل تتمكن من الامة على مرّ القرون حتى صارت سجية لتلك الامة ، وهنا قد يعترض المعترض فيقول ولم لا تأخذ الامة الفلانية من جارتها حسن الذوق او حب سعة العيش او غير ذلك بما هو محمود ، فالجواب عن ذلك بقول الشاعر

نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والرأي مختلف

ينظر اليهم بعين المعذرة وان يكرر فيهم الاية « خذِ العفوَ وامرْ بالعرفِ واعرض عن الجاهلين » .

الباب الثالث عشر

في التيار الجارف

ان التيار الجارف مما يجب ان يتنبه لهُ الناقد وان يحذره اشد الحذَر، وقبل الافاضة فيهِ ، يحسن ان نوضح المراد من هذه التسمية فالتيار هو موج البحر يجرف كل ما يعترضه ، فاذا عُلم هذا وعُلم ان المراد من هذه التسمية هو المجاز فقط نقول .

من المعلوم المشهود ان للناس في عصر من عصور حضارتهم احوالاً وعادات ، ان اختلف بعض منها عن بعض في متفاوت بيئاتهم ، فان الطبائع الغريزية في الانسان لا تزول ، وهي اذا لبست عند امة ثوباً غير ثوبها عند الامة الاخرى ، فما على الناقد الا ان يعرّي الامتين من ثوبيهما فتبرز له الفطرة الاصلية مجرّدة من افعال التصنع .

ومن الغرائز البشرية التقليد كما ذكرنا ذلك في الجزء الثاني من كتابنا هذا ، فكما يتشبه المرء بجاره ، فهو يحاكيه في طريقة بذخه وسرفه او ببخله وتقتيره ، ثم هو يقلده - ولاسيما اذا اعجبته بعض

الروح الظرفآء المتأدبين وكل اديبٍ لطيف ، فان في مفاكهتهم ومحادثتهم انتعاشاً للقلب وجلاء للذكر وطيباً للقريحة ، وانساً وارتياحاً للنفس .

وقد يُبتلى ذو الذوق الحسن بأناس لهم نصيب من العلم وفيهم خشونة الاجلاف الجُفاة ، وقحة الاوباش ، ودناءة التحتوت ، يفتقرون الى الشيء الكثير من التهذيب للتعبير عما في ضمائرهم باداب اكارم الناس ، فاذا استفهموا حسبت الجلاميد تنقض ، واذا افهموا حسدت ذوي الصمم وتمنّيتَ لهم البكمَ ، لا عن بغض بل عن كراهةٍ ، وقد يرومون المداعبة فينطقون بكلام فيه من الفظاظة والجفوة ما يُستنكر مثلهُ على رعاع البدو اكَلَةَ الخنافس وهم لا يشعرون بخشونة ما نطقوا ، شنشنةٌ هي ثمرة ما ورثوه عن ابائهم او سوء تربيتهم او بيئتهم او خلطتهم ، فانهم لم يتذقوا طعم اداب النفوس العالية ، ورقة التربية النقية ، وجمال التهذيب القويم ومحاسن المعاشرة الشريفة ليتخلقوا بالاخلاق الفاضلة .

وخليقٌ بالناقد الحصيف ان يستدعي واسع حلمه عند نقد ما يقع امامه من اقلام هولآء بان يُنزل كلامهم منزلته من خشونة فطرتهم وغلاظة تربيتهم السقيمة ، وجدير بذي الذوق الحسن اذا تعرض له احد من هذه الطينة المُشتَبَهَة ، مشافهة او كتابةً ، ان

تنبو عنه المسامع، والمأنوس الرقيق كشعر عنترة وابن الدمينة قليل، فان وقع على امثالهما فنعم الوقوع، والا ففي شعر ادبآء المولدين ما يغني اتمّ الغنـاء.

وكما ان تجنب الخطأ لا يؤدي وحده الى حسن الانشآء، والبعد عن العدوى لا يكفي لدوام الصحة، فنستحب لذي الذوق الحسن ان يطيل التأمل في مختلف التصاوير البديعة والتماثيل الجميلة لمشاهير المصورين والمثّالين وفي عامة النقوش والتزاويق البالغة من الدقة والحسن غايةً بعيدة، وان ينقّل طرفه في الغياض والرياض بين مخضر النبات ومختلف الورد والازهار تحت ظل الاشجـار يستمع نَغم الاطيار وخرير المياه وتدفق العيون، او ينظر الى محاسن السماء في الليلة القمرآء وسير بدرها ونجومها وصحوهـا وغيومها الى غير ذلك من محاسن الطبيعة.

ونستحبُّ لهُ ان يكثر من استماع الموسيقى الرفيعة التي وصل بها الافرنج الى غاية متناهية في الاحسان والتطريب، فهو الفن الذي تتعشقهُ قلوب ذوي الالباب ولا يستغني عنه ذو ذوق من بني الانسـان، بل هو الفن الذي يسبح المتفنن في امواج نغمه ليقتنص السانح من عجائب الاختراعات، في عوالم بدائع التخيلات.

ويجدر به ان يعاشر الاذكيآء والنبهآء المهذبين ولا سيما خفاف

اخريات الحلبة ، ولكن اهل القناعة الذين يشعرون من انفسهم بمثل ذلك قليل ما هم .

والذوق الحسن موهبة بل نعمة طبيعية ينشأ مع الانسان وينمى كسائر القوى العقلية وهو مثلها يقبل التربية والتهذيب ، ومن المستطاع تحسين الذوق بالتربية والعناية ، ولكن لا يمكن تكوينهُ في مَن خُلق بغير ذوق .

وصاحب الذوق الحسن مُضطرٌ الى العناية بذوقهِ على الدوام لحفظه سليماً من الآفات فالعادة غلاَّبة والصحبة معدية ، وخليق بهِ ان يتجنب ما استطاع كل منظر شنيع من الانسان والحيوان والجماد ، وان يباعد بين سمعهِ وبين كل لفظٍ قبيح ، وكلامٍ فظٍّ ، وصوت مُنكَر ، وان يعادي كل اكلٍ بَشِعٍ يفشّي رائحة مكروهة وان يهجر كل مجلس يضم فظّاً غليظاً ، وان يهرب من كل منتفخٍ فدم ثقيل الدم ، وان يضع سدّاً بينه وبين مطالعة الفحش من منثور ومنظوم ، فانهُ مفسدة للذوق الحسن ، والحسن والقبح لا يستويان والخبيث والطيب لا يصطحبان .

وان يُكثر من مطالعة ما نمقتهُ يراع حُذّاق المنشئين ، ونبهاء الكتّاب المبرّزين ومصاقع الخطباء ونوابغ الشعراء من عرب واعاجم ، وليحذر شعر الجاهلية فالفحش فاشٍ فيه ووحشيّهُ كثير

هم عماد المدنية وبهجة هذه الحضارة ونخر الانسانية .

الباب الثانى عشر

في الذوق الحَسَن

الذوق هو احد الحواس الخمس وبه يشعر الانسان والحيوان بالطعوم ، واللسان هو العضو الرئيسي لايصال الطعم ، والذوق هو قوةٌ مفاجئةٌ تسبق الفكر ، وهي عامة في النوع الانساني ولكنها مختلفة في كل واحد من البشر .

والذوق الحسن هو الحاكم المقدِّر - في العقليات - حسنات الصناعة وسائر نتائج الفنون ، وهو الذي يعيّن مراتبها وينزلها منازلها ويميّز بين حسناتها وعيوبها ، مثلما يدركُ بهِ صاحبهُ فيقدّر الحلو من الحامض وما بينهما والطعم الجيد من الرديء ،

والذوق شعورٌ تقويمٍ يملكهُ اكثر الناس ، ولكن اصحاب الذوق الحسن قليلون جداً .

ومما تقدم يعلم المطالع اللبيب ان الناقد بل كل كاتب اذا لم يُرزق حُسن الذوق فيجدر بهِ ان يكرّر امثولة الخليل للاصمعي

اذا لم تستطعْ شيئاً فدعهُ وجاوزْهُ الى ما تستطيعُ

وخيرٌ للعاقل ان يظل مسكوتاً عنهُ من ان يُسمّى سِكّيتاً يأتي في

وحزنه الى ما لا يحصى من الملامح والحركات التي يعجز عن ايفاء حقها من الوصف، افصح الشعراء والخطباء، حتى تحسب المصوَّر بارزاً تكاد تلمسه والشخص ناطقاً تكاد تقول لهُ واما بنعمةِ ربك فحدث، وقل مثل ذلك فيما يتفرع عن التصوير كالنقش والحفر.

ومثل ما تقدم ذكره عن هذه الفنون ينطبق على فن الخطابة، فانه يحتاج الى الفصاحة والبلاغة وذلاقة اللسان والشجاعة، والخطيب المتفنن هو الذكي الفؤاد الذي تدعوه فراسته الى استلهام القريحة الفاظاً وحركات تسترعي الاسماع وتستوقف الانظار في مواقف معلومة كما لو قصد الى نفث روح النخوة والشجاعة في روع السامعين او الاقدام والاستماتة في سبيل الوطن، او الحلم والصبر في الخطوب والمكاره، الى غير ذلك من الاحوال التي يفعل فيها المتفننون في سامعيهم فعل المعجزات المروية اذ انهم يأتون بالفاظ وجملٍ لم ينطق بها احد امامهم ولا سُمِعَت قبلهم.

وكل اصحاب هذه الفنون الجميلة، هم اصحاب قرائح سامية كاعظم نوابغ الشعراء ولولا القريحة ووحيها لكانت الفنون البديعة كباقي الصناعات لا كبير تأثير لها في النفس ومما يقتدر عليها اكثر الناس، وفي الحقيقة لولا القريحة لم يكن صناعات جميلة على الارض ولم يكن يُسمع لمخلوقٍ بيت شعر معجب، وعلى الجملة فالمتفننون

من انه بنغمات قانونه او نايه ابكى واضحك في مجلس سيف الدولة بحلب ثم انام السامعين وانصرف دون ان يشعروا بذهابه ، فمن هذا وغيره يُعلم ما كان من المنزلة الرفيعة للمتفننين من الموسيقاريين ايضاً عند جميع الامم القديمة .

ولا يُستَغرَب حسبانهم الرقص في جملة الفنون البديعة او فرعاً منها ، وهو مذكور في اقدم تواريخ الامم ، وقد ورد ذكره في التوراة ولعل الشعب الاسرائيلي كان اقتبسه من المصريين قبل خروجه من مصر ، وورد ذكر الرقص في التواريخ اليونانية فانهم كانوا يرقصون في حروبهم ويرقصون امام معبوداتهم وفي اوقات سرورهم ، وكان الرقص معروفاً عند العرب الاولين .

واما التصوير فلا يحسنهُ الا المتفنن الماهر ذو القريحة الوقّادة يستوحيها ما ترسمه يده من المناظر الطبيعية والتحولات الجوية واشخاص البشر وعامة الحيوان من سابح وطائر وذي اربع وغيره في سائر حالاتها ، بل كل ما تقع عليه انظارهُ في هذا الكون الفسيح ، فتفتق له قريحتهُ الابعاد والالوان والرسوم والظل والخيال وانوار الليل وانوار الصبح والظهر وقبل المسآء والمسآء وغير ذلك مما لا يُدرك دقة صناعته الا اهل الفن ومثل ذلك ملامح الانسان في حالات سروره وغضبه ويقظته ومنامه وسخطه ورضاه ويأسه

من الشعرآء النوابغ ، ولكن لم يكن احد بين شعرآء العرب على الاطلاق يماثل المتنبي قريحةً وبداهةً وعلماً وذوقاً وعقلاً وبعد نظر وحسن تصرف بالكلام، فامثال فيرجيل وهوراس والمتنبي لا يوجد الا في فترات متطاولة من الزمان ولا يتأتى ما ورد لهم الا لأمثالهم من المتفننين النوابغ ، وليست حصافة الموسيقاريين الملهمين دون ذلك ، فمن اين للموسيقار غير المُلهَم ومَن ليس ذا قريحة سامية ان يبتكر ويؤلف بين تغريد البلابل وهدير الحمام وشقشقة العصافير وهزيم الرعد وهطل السحاب وغير ذلك من الاصوات المطربة والاحداث الطبيعية فيخرجها بتناسب وتطريب يكاد يطيش لب الشيخ الحليم ويدعو سامعها الى ان يقول هي نسمات السحر وارواح النعيم ، واما مَن يحسن النقر على الاوتار والصفير بالقصب او النحاس وغيره فهو الموسيقار المجيد لا المتفنن ، ولا عجب ان يُعَد الموسيقار المتفنن في رتبة الشاعر ، ففي اساطير شعرآء اليونان ان امفيون وهو احد مشاهير الموسيقاريين عندهم بنى مدينة طيبة (اليونانية) على نَغمات عوده اذ كانت تتأثر الحجارة من حلاوة ذلك النغم فتندفع من ذاتها وترتكز بعضها فوق بعض ؛ وان السباع كانت تدنو على نغم عود اوْرفاى الالهية ، وان الاشجار تحرك اغصانها على ايقاع ذلك العود ، ومثله او دونه ما روي عن الفارابي

بغداد وهي سنة ٣٥٣ اي قبل وفاته بسنة فقد كان عمر ابن جني يومئذ ثلثاً وعشرين سنة وكانت سن المتنبي واحداً وخمسين سنة وكان قد ملأ الدنيا شهرة وقد نُقل عنه انه كان شديد الاعجاب بنفسه والاعتداد بعلمه ، فتعرّضُ ابن جني له وهو في نواحي العشرين وتخطئته وصبر المتنبي وطول آناته به محل تدبّرٍ ، وهذا لا يعني اننا نشك في رواية ابن جني بل في رواية المؤرخين لمولده . وكدنا نحيد عن موضوعنا في هذا الباب .

وزعم كثير من المؤرخين ان المتنبي ممن رُزق السعادة في شعره وهذا كلام يكرره متأخرهم عن متقدمهم وفيه دلالةٌ على نقص البصر في صناعة النقد ، ومن نظر بعين الناقد المنصف تحقق ان المتنبي كان من افراد البشر عقلاً والمعيةً وشجاعةً وعلماً بما فيه من الفضائل التي يفوق بها اكثر مشاهير عصره ، وان شعره لم يبلغ هذه المنزلة السامية الا لاختياره وصف حروب سيف الدولة واختصاصه به ، فقد كان سيف الدولة من مشاهير الابطال وكان شاعراً عالماً عارفاً باليونانية والفارسية كريماً نقاداً لجيّد الشعر نزوعاً الى المعالي ، ولكن كان كثير من الشعراء حول الرشيد والمأمون وهما ارفع قدراً واوسع ملكاً بما لا يذكر عندهما سيف الدولة الا كالظل للشمس ، وكان حول سيف الدولة نفسه كثير

في اوائل الترجمة انهُ كان يدرّس في حلقةٍ بالموصل وانه تبع ابا علي الفارسي بعد ذلك وصحبه اربعين سنة ، وابن جني يقول في كتابهِ المذكور صـ ٧٦ انشدنا ابو علي هذا بالموصل سنة احدى واربعين ، فهل كان عمر ابن جني احدى عشرة سنة عندما سمعهُ الفارسي يقرّىء بالجامع النحو ؟ بل دون ذلك لانه كان يقرىء النحو قبل ان يعرف ابا علي في حلقةٍ بالموصل ثم تبع الفارسي تلميذاً ومتعلماً . فتأمل . ولعل مولد ابن جني كان سنة عشرين وثلثماية لانهُ يقول في كتابه « سرّ الصناعة » في ـ باب زيادة الالف ـ ودار بيني وبين المتنبي في قوله : وقلنا للسيوف هَلُمِّنا كلام فيه طول وانكرتُ ضمة الميم هنا من طريق القياس الى ان قال لي فكيف كان ينبغي ان يكون اذا اكّدتَهُ هنا بالنون فقلت كان قياسُهُ ان يقول هلمُنّا فقال هذا طويل فقلت هذا جواب مسألتك فاما طوله وقصرهُ فشيء غير ما نحن فيه .

هذا كلام ابن جني بحروفه وهو ممن لا يُرتاب في صدقه ومن اعظم محبي المتنبي واشدهم بهِ اعجاباً وكان يثني عليه امام استاذهِ ابي علي الفارسي وهو الذي دعاه لزيارة ابي علي ونقلت لنا التواريخ شهادة الفارسي بعلو كعب المتنبي في علوم اللغة ، فاذا افترضنا ان حكاية ابن جني المتقدمة جرت لهما في آخر سفرة وقعت للمتنبي الى

ولو وجد لها مثيل للدولة الاموية او العباسية لكانت دون شك فوق ايلياذة شيخ الشعرآء هوميرس ، ولكن ما لم نفز بكله لم يفتنا بعضه ، والعجب من حمق حسّاد المتنبي فيما رووهُ عن جبنهِ وانهُ عثر او عثرت يده بعقاله فخاف وولى هارباً ، ايقول بل يخاطب سيف الدولة بمثل الابيات المتقدمة ويتغاضى عنه ، بل أيجسر ان يقول ما تقدم بعضه من قصيدته الميمية بحضرة ابي فراس الحمداني وهو الذي كان يتسقطهُ في كل بيت من قصيدته بحضور الشعرآء ويعدّها عليه سرقاتٍ شعرية ، أيُعقَل انهُ يسمع منهُ كل هذا التفاخر بالشجاعة والفروسة ولا ينبس بحرف ، وهو اعظم بطل في دولة بني حمدان بعد سيف الدولة ؟ ومن هذا وامثالهِ تعلم كم اكذوبةٍ بل لا تستطيع ان تحصي عدد الاكاذيب التي تناقلها الرواة وحشا المؤرخون بها كتبهم حتى تعسّر علينا بعد مرور القرون على كثير من الحوادث ان نستخلص الصحيح من السقيم وقد امتزج كثير من الكذب بكثير من الحقيقة ، نعم ان الناقد قد يستطيع تصحيح كثير من الاوهام الفاشية في كتب التراجم والتواريخ اذا تيسرت له الوسائل ، مثال ذلك انك تجد في ترجمة ابي الفتح عثمان بن جني في اول كتابه ـ الخصائص ـ عن معجم الادبآء لياقوت ما يفيد ان مولده سنة ثلاثين وثلاث مئة ثم يقول

وما حمدُتك في هول ٍ ثبتّ به ِ حتى بلوتكَ والابطال تمتصعُ

وكقوله

وانّا اذا ما الموت صرّح في الوغى

لبسنا الى حاجاتنا الضرب والطعنا

قصدنا لهُ قصدَ الحبيبِ لقاؤه

الينا وقلنا للسيوفِ هلمِنا

ويقول من أخرى

واوردُ نفسي والمهنّدُ في يدي مواردَ لا يَصدرنَ مَن لا يُجالدُ

ويقول من اخرى قبل مفارقتهِ سيف الدولة وهي المشهورة واولها

وآحرَّ قلباهُ مِمن قلبه شَبِمُ

قد زرتهُ وسيوفُ الهندِ مغْمَدَةٌ وقد نظرتُ اليهِ والسيوفُ دمُ

ومنها

ومُرهفٍ سرتُ بينَ الجحفلينِ بهِ

حتى ضربتُ ومَوجُ الموتِ يلتطمُ

كل ذلك هوّن عليه وصفها بصورة لم يُسبق اليها ولم يُلحق بها بين شعراء العرب ولو أُنتُسِقَتْ قصائده في سيف الدولة بعضها الى بعض على نحو ايلياذة هوميرس لكانت بحق ملحمة (ايلياذة) العرب ، الا انها مقصورة على زمن قصير ومُلْك مَلِك واحد ،

في ذلك السفر ، فلا تحب ان تنصت الى استماع بيت حتى يرد على سمعك بعدهُ ما هو ابدع واروع ثم لا تنتهي من مطالعة القصيدة او استماعها الا وقد امتلأتَ بشراً وسرورا ، كأنك من جماعة سيف الدولة وكأنهُ عاد سالماً منصورا ، واذا طالعت قصيدته التي اولها «اذا كان مدحٌ فالنسيبُ المقدَّمُ» ترى منها عزة سيف الدولة يومئذٍ وهو بين عسكره والشاعر يصف مسيرهُ لزيارة قبر والدته تحت وابلٍ منهمر وسيف الدولة يستعرض الجيش ويريك اولئك الابطال تحت ملابسهم الحربية وعلى خيولهم حتى تحسب نفسكَ واقفاً بينهم تسمع مديحه، واذا طالعت قولهُ «تذكرتُ ما بين العذيبِ وبارقِ» تنقَّلتَ من قصةِ تنزّهٍ وسباق ، الى طعام مع صعاليك الرفاق ، الى ذكرى ليلة مرّت في مُنتزّهٍ بين راح وحسان ، وغناء وعيدان ، الى حِكَمٍ وفلسفة ، الى رواية واقعةٍ حربية جرت لسيف الدولة وراء تدمر فهزم بها قبيلتين شديدتي الشكيمة من قبائل العرب بتفصيل لا يترك للمؤرخ الدقيق وجه ابهامٍ او اشكال ، ولم يكن يصف صراعاً او حرباً بين اثنين على ما نرى مثله كثيراً في شعر الجاهلية ، بل كان يصف حروباً على عادة ايامه الا ان تصويره الوقائع ومحاربته مع عسكر سيف الدولة في كثير من تلك المعارك كقولهِ :

شعرآءنا من جاهلي ومولّد (برغم حساده ومزاعمهم الكاذبة) الا لاصابة نظره وبراعته في وصف الجليل والدقيق مما يقصدهُ واختيارهِ احسن الالفاظ لمعانيها ومواقعها وتنقله في الوصف خلافاً لسواه من نوابغ الشعرآء انفسهم اذ يملاؤن القرطاس واذان السامع واعين القاريء بتكرار موصوف واحد وتشبيهات متعددة وقد يكون الموصوف تافهاً ، حتى يغطي ذلك على غيرهِ من احسان الشاعر في اعين الناقد الذائق ، اما المتنبي فخذ اياً شئت من قصائده العامرة ، فلا تكاد تنتهي من قرآءتها حتى تعجب مما استفدتَهُ منها ومما تركتْ في نفسك من سرورٍ او نشاط او إعجاب او حماسة او رغبة في محاكاة شيء منها او تمني معرفة قائلها ـ المتنبي ـ او مشاهدة صورته ، فطالع مثلاً رثآءه والدة سيف الدولة فلن تجد لهذا الرثاء الملوكي مثيلاً في كل ما قرأت من الشعر ، قد جمع بين التفجع الرزين والرثآء العلي المقام والثنآء اللائق وتفصيل سير الجنازة وتشييعها ثم تعزية الامير ابنها بابلغ لفظ ، واذا نظرت في قصيدته التي مطلعها « اعلى الممالكِ ما يُبنى على الأسلِ » وقد سار سيف الدولة لنصرة اخيهِ ناصر الدولة في الموصل ، تجد في كل بيت منها حكاية حالٍ تنبيء عن علو همة الممدوح وبأسهِ واستخفاف الشاعر بالاعدآء الذين ذهب الممدوح للبطش بهم وتفاؤل الشاعر بالنصر والسعادة

وقس عليهم سائر المتفننين ، واما الخاصة من الشعرآء عندنا فقد اوردنا شواهد من بدائع القرائح في الجزئين المتقدمين من كتابنا هذا وفيهما ايضاح وتذكرة للناقد البصير. على ان اجود الشعر ليس في طول القصيدة ولا في ضرب مثل او اقتباس ، وانما هو في ابتكار المعنى وابتداع التركيب والترتيب ودقة الوصف وجزالة اللفظ والبعد عن التعقيد والمناسبة بين القول وقائله ، والاصل في ذلك كله اختيار الموضوع ، ولعل تفوق هوميرس وفيرجيل على من جاءَ بعدهما من شعرآء الارض لم يكن الا لاختيارهما موضوعيهما ، وهو سرد ملحمة الابطال من اعاظم الدنيا ، وليست حكاية يوم وليلة ، ولا مفاخرة يفاخر بها الشاعر بنفسه او بقومه ولا قصة عشقية ، ولا مدح ملك عظيم او وزير كريم ، ولا وصف مجلس شراب وطرب او غير ذلك كسيف او فرس ، ولا ندب طلل ولا رثاء مفقود ولا شكوى زمن جائر ، وانما الملحمة هي جميع ذلك وزيادة ، فهي تأريخ امة بوصف بلادها وما اشتملت عليه وخلقها وطباعهم وعاداتهم وملابسهم ومآكلهم ودعواتهم وحروبهم وافراحهم الى ما يطول وصفه مما تجده في شعر هوميرس وفيرجيل فتتنقل فيهِ من حسن الى احسن وتقف حائراً دَهِشاً من سمو وعظمة تلك القرائح . وعندنا ان ابا الطيب المتنبي لم يتفوق

زادتك استحساناً لها ، فلا ، اللهمّ الا ان يقع ذلك في بيت واحد كما يُروى عن ابي تمّام في قصيدته السينية ، والامر مشكوك فيه ، على انهُ ان صح الخبر فهو من الخوارق التي لا يروى مثلها الا في مدى مئات من السنين (١) وحسبك ما ورد بالتحقيق عن فيرجيل ثاني شعرآء الدنيا انه لم ينتهِ من نظم وتنقيح ملحمته المسمّاة بالـ[إيلينيئد] الا بعد اربع عشرة سنة واظب فيها على ذلك .

ويجدر بنا بعد ان اتينا على لفظ الارتجال بما تقدم ان نعود الى البيان عن خاصة المتفننين وهم اصحاب القرائح ، فان المهندس الذي رسم شكل هيكل الألهة اثِينهْ في اتينا قد ابتدعت قريحته طائفةَ جمالٍ وظرافة تكوين في كل عضوٍ من اعضآء ذلك الهيكل وفي كل جملة من جملهِ ، وكأن قريحته اقتادت لطاعتها كل ما تستحسنهُ الاعين وتُسَرُّ بهِ النفوس من ايات الحسن والذوق وغايات الملاحة في دقة الفن الهندسي ، وهذا لا يتأتى لكل من درس صناعة الهندسة وعرف رسم الخطوط والابعاد والبسائط والمجسّمات ، فهذا شيء ، وابتداع وتكوين مثل هذا الهيكل شيء آخر ، وهذا لا تجود بهِ الا قريحة كقريحة فيدياس ومعاونيه واضرابهم

(١) عند تبييض ما تقدم وقفنا على كلام بهذا المعنى للناقد الشهير سانت بوف يؤيد ما ذكرناه هنا من الشك في مثل هذه النقول والروايات .

الصناعات الجميلة او بعبارة اخرى شيء من الفنون البديعة سوى الشعر والخطابة فاطلقوا القريحة على الشاعر والخطيب ، لتعريفهم لفظ الاقتراح بالارتجال وعرّفوا الارتجال بانه القآء الخطبة او الشعر من غير تهيئةٍ ، كل ذلك كان ولا شكّ يوم كان العرب في تيه بداوتهم الاولى ، يوم لم يكن عندهم علم بشيء من فلسفة اللغة بل ولا بمعنى او اسم فلسفة ، وكانوا يرتجلون الخطبة والشعر ارتجالاً ، ولو علموا ان سيأتي على الشعرآء والخطبآء ازمان يقضي فيها الشاعر حولاً كاملاً لنظم قصيدة واحدة وتهذيبها كزهير بن ابي سُلمى المُزني ومروان بن ابي حفصة وامثالهما وان الفرزدق يقول تمرّ عليّ الساعة وقلع ضرس من اضراسي اهون عليّ من نظم بيت من الشعر - هذا وهو فحل مُضَر فما بالك بمن هو دونه - نقول لو علم العرب الاولون هذا ، لما كان تعريفهم الاقتراح كما ذكرناه ، فالقول في اقتراح الشعر هو ارتجال بعض ابيات او هي حكايـة حال او خطبة قصيرة كدعوة الى دفع غارة وقد تطول بتكرار الفاظ تهييج وتحميس وما شاكل ذلك ، وكل هذا يمكن حصوله للشاعر والخطيب ويحسن وقعهُ في اذان سامعيه في ساعته ، واما ان يكون في ذلك ابتكارات وتنوع معانٍ او تحقيقات تأريخية وتشبيهات او وصف واستعاراتٍ تملك القلب وتسحر اللب وكلما كررتها

الباب الحادى عشر

في المتفننين

قال الجوهري في تاج اللغة الفن واحد الفنون وهي الانواع والافانين والاساليب وهي اجناس الكلام وطرق ، ورجل متفنن اي ذو فنون ، وافتن الرجل في حديثه وخطبته اذا جاء بالافانين ، ورجل مفن يأتي بالعجائب .. والفنّان في شعر الاعشى ، الحمار الوحشي انتهى المراد منه ومثله في سائر كتب اللغة ، فاذا رأيت للمجددين بل قل للمقلدين لفظ فنّان فلا تحسبه من العربية في شيء .

والفن هو الصناعة العقلية السامية فالخطابة والشعر والكتابة والغناء كلها صناعات ويقال في فصيح اللغة صناعة الكتابة وصناعة الشعر وصناعة الانشاء ويطلق عليها لفظ فن ايضاً وقد تقدم ذكر الفنون البديعة (ويقال ايضاً الصناعات الجميلة) في الجزئين المتقدمين من هذا الكتاب ، والمراد بلفظ متفنن هو صاحب فن من الفنون البديعة ، وكلها بنات القريحة فلا متفنن حيث لا قريحة والمتفنن هو المعرّف عند الفرنسويين بلفظ Artiste .

لا شك ان واضع لفظ ـ القريحة ـ في اللغة العربية ، او المواطأة على هذا اللفظ قد كانت يوم لم يكن عند العرب شيء من

واندر منها تلك التي تجيد فيما هو فوق الفنَّين ، وقد روى لنا تاريخ الفنون والمتفننين شيئاً من ذلك وهو في غاية الندور .

والقريحة تصدأ بالاهمال ونقص المراس وتضعف في الشيخوخة كسائر القوى الانسانية .

والقريحة لا تجود بالاكراه ، ولا تجيد ولا تجود حقاً الا اذا كانت نفس صاحبها مطمئنةً مسرورة فحينئذٍ تنبسط الى الجود بما دعيت اليه .

والقريحة مهما سمت لا تطيع صاحبها في كل وقت ، ولا تجيد على وتيرةٍ واحدة .

ومن محاسن القريحة السامية انها تنوّع الموضوع المفرد بلباقة سحرية فتكسبهُ لذةً وفكاهةً حتى تشرأبَّ الى سماعهِ الاعناق ، ويستطيب تكراره اولو الاذواق .

ومن مزاياها انها تسكب على الموضوعات القاحلة سحائب خصبٍ يقف عندها ذو اللب مخموراً بنشوة الاعجاب وتلبسها حللاً زاهية الالوان ، يقال عندها ليس في الامكان ابدع مما كان .

وفي الختام نقول ان القريحة السامية ليست من خواص الشاعر فقط بل هي فطرية في عامة المتفننين كما سبق القول .

والاقتضاب غير القضيب وقس على ذلك .

واما حقيقة تعريف القريحة فانها مزّية فطرية او استعداد طبيعي ، او هي قوة من القوى العقلية لقبول تصورات ووهميات متعددة متنوعة ، والقدرة على ابتداعها وتركيبها وتصويرها باليد واللفظ ، وعلى الجملة فان في القريحة استعداداً خاصاً يتجاوز حدود الفهم والتلقين والرواية والترتيب إنْ في الاداب والفنون من توليد وتوضيح وابتداع وسهولة تعبير وبلاغة ، وإنْ في العلوم والفلسفة من اختراع واستنتاج ، وتعريف وتحديد ، ومباينة واقتران .

والقريحة لا تُعرَّف بكونها مزّية سامية دون تحديد ، وانما هي المزية الفطرية للابتكار والاختراع والاستنباط ، فاذا لم يكن ابتكار او اختراع فليس ثمت قريحة او هي قريحة عقيم ، وانما هناك علم وممارسة وجَلَد وجمع وتحقيق وانتقاد وفطنة وحفظ ورواية .

على ان التعلم والمِران والدربة تزيد القريحة جمالاً وكمالاً ، ولكن ذلك كلهُ لا ينشىء قريحةً ، اذ هي موهبةٌ غريزية لا اكتسابية .

ولكل قريحة استعداد خاص لقبول احد الفنون والابتكار فيهِ والمراد بالابتكار الابتداع ، وقل من يستطيع ان يثني عنان قريحته عما ُطبعت على حبهِ ، وتعويدها على الاجادة في فنّ سواه .

والقريحة السامية التي تستطيع ان ُتجيد في فنّين هي نادرة ،

قالوا اقترح شيئاً نُجِدْ لك طبخَهُ　　قلتُ اطبخوا لي جبَّةً وقميصا

فهذا فقير عريان هبط على قوم فظنوه جائعاً وانما هو كان مبروداً فبادروه بقولهم اقترح اي قل سريعاً ما تحب من الطعام فنحسن لك طبخهُ حالاً فاجابهم فوراً جبةً وقميصاً وقولهُ اطبخوا لي، على سبيل المجاز اي اكرموني بجبة وقميص كما هو ظاهر، ولا يعني كلامهُ انهُ ابتدع طعاماً جديداً، ولا قولهم لهُ اقترح اي ابتدع واخترع لوناً من الطعام فنطبخه لك، فمثل هذا التفسير تعسف محض وتحميق للقائل والمجاوب.

ولنعد الى ما قالوه في تعريف القريحة، اما السيد الجرجاني فلم يذكر هذا اللفظ بتةً، واما ابو الضيآء فقد قال في كلياته والقريحة البئر.. واطلاقها على الطبيعة بطريق الاستعارة وهو كما ترى غير مفهوم وأين الطبيعة من البئر؟ نعم انهم قالوا اي فسروا القريحة بالطبيعة وسكتوا، فقد يمكن التفسير لهذا التعريف الناقص بغير ما قالهُ ابو الضيآء كأن يقول يريدون انها احدى طباع الانسان او ما شاكل ذلك ولعل تعريف اصحاب المعاجم اوضح واوسع على ما فيه من القصور.

فيتحصل مما تقدم ان الاقتراح هو الطلب والسوأل ارتجالاً وبدون روية، وهو غير القريحة، كما ان الاعتماد غير العمود،

وقريحة الانسان طبيعته التي ُجبل عليها . . وقيل قريحةُ كل شيءٍ اوله . . وقال قبل ذلك والاقتراح الكلام والاقتراح ابتداع الشيء تبتدعه وتقترحه من ذات نفسك من غير ان تسمعه . ومثله ما ورد في القاموس وكلاهما من الضعف كما ترى مما ذكرناه ، وقال في الصحاح . . والمآء القراح الذي لا يشوبه شيء والقريحة اول ما ُيستنبط من البئر ومنه قولهم لفلان قريحة جيدة يراد استنباط العلم بجودة الطبع ، واقترحت عليه شيئاً اذا سألته اياهُ من غير رويةٍ واقتراح الكلام ارتجاله . انتهى المراد منهُ وهو وان لم يفِ بالتعريف الصحيح ، فهو احسن ما جآء في المعاجم في تفسير لفظي الاقتراح والقريحة ، اذ ُيفهم من قولهم كلهم ان اقتراح الكلام هو ارتجاله ، واما قولهم من غير رويةٍ فهو مخالف لقولهم ابتداعه ، لان الابتداع والاختراع والاستنباط والاستخراج كل ذلك لا يكون ارتجالاً ومن غير رويةٍ ، بل يحتاج الى مزيد رويّةٍ وتعمُّق كما ُيتعمّق في استنباط المآء من قعر البئر حسب تعريفهم ، وكما ينتج من وصفهم المآء القراح بانهُ الذي لم يخالطه شيء من ثفَلٍ وهو الخالص كالقريح وهذا لا يكون الا بعد ان ُيتعمق في البئر ويتجمع الماء فيها ويركد ويصفو وهذا كله يحتاج الى وقتٍ طويل ، اما الاقتراح وهو الارتجال من غير رويةٍ فهو كما قال الشاعر

اصحاب المعاجم وُجدوا بعد القرن الثالث للهجرة وان كل ما عُرّب من فلسفة اليونان كان بامر المأمون اي قبل دخول القرن الثالث او في اوائلهِ ، ولكن التعليل الاقرب الى الحقيقة هو ان اكثرهم اخذ متأخرهم زمناً عن سابقهِ ، ولعل الاول وسواه كانوا يخشون ان يُرموا بضعف الدين اذا تعرضوا لشيء مما يتعلق بالمباحث الفلسفية والعقلية ، ولذلك امثال كثيرة في كتب التأريخ والادب وغيرها نخسر المتأخر خسارة يصعب تعويضها ، وحالة الامم العربية على ما هو مشهود من تأخر بعضها وتقلقل بعضٍ واشتغال آخرين بغير ذلك مما هو بعيد عن هذا الغرض .

ولا نعلم فيما وصل الينا من كتب التعريفات سوى تعريفات الجرجاني ، وكلّيات ابي البقآء وان كان اوسع منه فهو جدير بان يقال في مؤلفه ما قلناه اعلاه عن اصحاب المعاجم كما يتضح لمن تبصر في بحر هذه اللغة ، ولاسيما لمن يتصفح كتب العلوم العقلية والادبية عند امم اوروبا في هذا الربع الثاني من القرن العشرين ، على ان لأبي البقآء فضلاً يقدرهُ قدرهُ كل من ذاق شيئاً من فلسفة اللغة والمنطق ، ولسنا في معرض التقريظ وانما ذكرنا هذا اعترافاً بفضل أُلي الفضل .

وقد جئنا بهذه المقدمة تمهيداً لما يأتي . قال في لسان العرب

الباب العاشر

في القريحة

كلٌّ من عانى الوضع لقواعد فنٍ او علم، او عمد الى ابتداع صورةٍ فكرية مُلهمة على غير مثال سابق، يعلم مقدار النَصَب والجُهد الذي يلقاه الباحث في تعريف وتحديد كثير من اللفظ، اذ يبدو لهُ ما في كتب اللغة من فرط التقصير في هذا الباب، فقد تروم الوقوف على تعريفهم لفظ الادراك، اي القوة العقلية التي تدرك اي تُفهَم بها المنظورات، فلا تجد لذلك شيئاً في الصحاح ولا اللسان ولا الاساس ولا القاموس ولا المصباح ولا في سواها من كتب اللغة، وقد تجد للفظ العدل مثلاً تعريفاً شافياً بل زائداً عن الحد، واصحاب المعاجم في ذلك بين تفريطٍ مخلّ وافراط ممل، اما فيما يعود الى العقليات فهم في غاية التفريط، واما في ما تعاق بالعلوم الشرعية او ما لهُ ذكر فيها، فهم في اقصى الافراط، فكانما كتب اللغة ومعاجمها لم تكتب الا لخدمة الدين، وكأن لم يكن للعلوم وسائر المعارف البشرية عند اولئك العلمآء منزلة تستدعي عنايتهم بما يتعلق بها، وقد يُقال ان اللغة العربية لغة بدوية بسيطة ولم تصل اليهم علوم غير علوم اللغة والشريعة، ولكن هذا قول مردود متى عُلم ان جميع

فهي الحماسيات ، ومن يستلهمها في حال رفاهيته وصباه فهي الغزليات والارغديات ، ومن يستوحيها في البؤس والشقآء او الحزن والبلاء ، فهي النوّاحات او المناحات او النائحات ، اعاذنا الله واياك من نوائب الدهر .

ومما تقدم يُعلم ان الوحيَ لا يتنزل على الشاعر النابغة ، الا لاختيارهِ الساعة التي تناسب الموضوع الذي قصد اليه ، وانتقائهِ المكان الذي يسعفه بكل ما فيه وبما يحيط بهِ على ابراز مخدرات قريحته ، وما احسن قول الحريري ـ فما كلُّ قاضٍ قاضي تبريز ، ولا كل وقت تُسمع الاراجيز ـ فاذا مررت بالشعر العامي او السوقي او التجاري فاعلم ان اصحابه لم يُرزقوا حظاً من الشاعرية ولا نصيباً من الوحي والتخييل وانما هم وزّانو كلام ، وان كرعوا البواطي في دور القهوة والحانات او تزيوا بزي اهل الصبابة والرفاهات .

وكما ان الشاعر هو غير الوزّان والرجّاز ، فكذلك الاديب العبقري هو غير المؤلف العلمي وغير المؤرخ ، واعلم ان العباقرة من المتفننين كلهم في منزلة نوابع الشعرآء كما سبق القول او سيأتي الكلام عن ذلك في باب المتفننين .

كثير في هذه المحلة ، فقالت حقاً ان الشعرآء مثلك في الشرق يفوقون جداً شعرآءنا وادبآءنا في اروبا ولاسيما الكبار المشاهير كادمون روستان واناتول فرانس ودانونزيو وامثالهم ، ولعلهم لا يقتدرون على منظوماتهم والاجادة فيها ، الا لأقامتهم بالقصور الفسيحة الانيقة، او في الجنّات العَبِقة الطليقة ، والشعرآء الذين لا يملكون مثلها لا يعجزون عن قضآء بعض اشهر في المصايف او في المشاتي ، وهناك ، بين جنانها الزاهرة ، وبدائع الطبيعة الساحرة ، وعلى نغمات الموسيقى التي تسكر الالباب ، وغنآء الغانيات مطلّقات الحجابْ ، ورقص المبديات من الدلال فتن العجائب ، وجر اللابسات من الحرير بدائع الجلابب ، يطلقون لقرائحهم العنان ، فلا عجب اذا جادت بالدر وأنفت من المرجان ، قال المحدث بهذه الحكاية فشكرتُ لزائرتي حسن ظنها بنا شكراً جزيلاً وشفعته بشكر على زيارتها لما نثرته عليّ من الفوائد بل الفرائد . انتهى كلامه.

وفيما تقدم عبرة للقول بان الشاعر الذي يستلهم القريحة بين الكأس والطاس ، لا ينتشر من شعره غير رائحة الخمور فقصائده هي الخمريات ، ومن يستوحي قريحته بين خرير الماء وغديره وهبوب النسيم وتمايل الاغصان ونغم الالحان فلا بدع ان يعبق منها نشر الازهار فهي الزهريات ، ومن يستوحيها على وقع السيوف والرماح

واستلهامه ، يصدق على الاديب العبقري وهو الذي يستوحي القريحة فيكتب في موضوع لم يُسبَق اليه، او يروي حكايةً يبتدعها فيرسم على القرطاس الفاظاً تصور اشخاصاً وقصوراً وانهاراً وبحوراً بل بلاداً وممالك وعوالم واشكالاً واشيآء مألوفة وغير مألوفة تحسبها حقائق لا ريب فيها ، وكلها من مولّدات مخيّلته يودعها من بدائع اللفظ والحكمة والفطنة ما توحيهِ اليه رسل الألهام ويعينه عليه استبحاره في تفنن الكلام مما ذكرنا منه شيئاً في كلامنا عن فن الروايات ، فان هذا الاديب العبقري ، بل هذا المتفنن لا يختلف في الرتبة عن الشاعر في سائر مزاياه واخصها الوحي والاستلهام .

ومما يحسن ايراده ما حدثني بهِ احد الخلان ممن لا ارتاب في صدق كلامه قال :

زارتني يوماً في منزلي سيدة نبيلة من اشراف باريس (واسماها لي) وقد هبطت الشرق غير مرة ، فلما دخلت الى غرفة كتابتي وادارت فيها النظر قالت لي أفي هذه الغرفة وتحت سمائها تنظم اشعارك ؟ — وكانت عرفتني شاعراً وطلبت اليّ ان اترجم لها شيئاً منها ففعلت — فقلت نعم ، فاستشرفت من احد شبابيكها ورأت ارضاً فسيحة امامها ، فقالت ولمَ لا تجعل من هذه الارض جنينة ذات احواض وتُجري اليها المآء ؟ فقلت الارض ليست لي وثمنها

يطرب النبات والاحجار، والحنجرة وان كانت عامة في المخلوقات، فالقوة الصوتية تختلف جداً في كل فرد من النوع الانساني بل وبين انواع الحيوان والنبات، فان التصويت بكل نوع من القصب لهُ رنين يختلف عن سواه بل يختلف الرنين في النوع الواحد بين قصبةٍ وقصبة كما يختلف الصوت في الانسان بين الاخ واخيهِ، وقل مثل ذلك بين شاعر وشاعر فهذا يستلهم القريحة فتجيبهُ مطيعةً، فان كان غضبان اراك الرعد ينشق والصواعق تنقض وتندق، وان كان طرباً اسكر ولا خمر وشرح كل صدر، وترى سواهُ يستلهم قريحته فتعصيه وان كان في طبيعته نظم الشعر، الا ان قريحته لا ترتاح الى النظم والاجادة الا في احوال معينة، كأن يكون على الشراب او في مجالس الطرب او غير ذلك، وليس كل ناظم شاعراً كما ان ليس كل مصوت مغرّداً او مرنماً او مطرباً، والفرق بين الناظم والشاعر، ان الناظم غير محتاج الى الاستلهام ولا يستطيعهُ وانما هو ذو اذن وزّانة او انه تعلم العروض وبعض علوم اللغة ليتصرف في نظم الارجوزة العلمية او القصة او الامثال، فهو في الحقيقة وزّان كلام وقوافٍ ورجّاز قواعد وحكايات، واكثر ما يكون هولآء من العلماء، اما الشاعر فهو ذو القريحة والالهام، وسيأتي بعد هذا بيان القريحة، وكل ما ذكرناه عن وحي الشاعر

بمعانٍ يتركب منها بيت او ابيات من الشعر ، لكنهم بوصفهم هذا انزلوا الالفاظ الشعرية منزلة الدر المنظوم ، غير انه بهذا التعريف والتحديد يكون الفارق بين نظم الشعر وبين التأليف ، هو وزن الشعر فقط ، وهذا غير الحقيقة ، فان تعريف التأليف كما بينا قبل هذا لا ينطبق على نظم الشعر ، لان هذا من الفنون البديعة بل هو اولها ورأسها ، والفرق بينهُ وبين التأليف ، ان هذا الاخير تنقيب وتفتيش وجمع ، اما النظم فهو وحي القريحة واستلهامها فهو فوق التأليف وفوق العلم ، اذ كل مَن اكبّ على تحصيل العلم وكان غير جامد الذهن وأوتي شيئاً من الذكاء قد يبلغ مرتبة العلمآء ويؤلف كما سبق القول ، ولكن ليس كل من بلغ مرتبة العلمآء ونال قسطاً من الفصاحة والبلاغة والذكاء ، يقتدر على نظم الشعر ، وليس المراد بذلك نظم بيت او اكثر في علم من العلوم او نظم مثَل من الامثال او ارجوزة علمية ، فهذا جميعه يدخل في باب التأليف ، وانما المراد من النظم هو شعر الذين يُدعون بحقٍ شعرآء وذلك لانهم ملهمون ، والملهمون هم في طبيعتهم كذوي الاصوات الحسنة الرخيمة ، تستدعي نفس احدهم الغنآء فيصوّت فتجيبهُ الحنجرة مطيعة . فان كان مكتئباً فاين منهُ شجن الحمام المحزون ، وتلهف المتألم المطعون ، وان كان مسروراً ازرى بالبلابل والاوتار ، ويكاد

وعادم الحسّ وان كان سعيداً في نفسهِ ، او انه يحسَب ذلك ، فهو بلاء شديد على اهله ومعارفه بل على سائر ابناء جنسه ، وعلى الجملة فمن عدم الحس فقد عدم كنزاً عظيماً .

والناقد الذي يفوته التدقيق في بيان احساس الكاتب او الموصوفين في روايته ، لا يُختَم على نقده بطابع الاصابة والاحسان ولا يُعدُّ مجلّياً وان اصاب الغرض في بعض الاحيان .

الباب التاسع

في الوحي والاستلهام

ذكرنا في الباب الخامس تعريف لفظ التأليف لغةً ، وهو الجمع او وصل بعض الكلام ببعضهِ ويتحصل من هذا التعريف والتحديد انهُ لا يُطلق لفظ التأليف على قصيدة منظومةٍ بعينها وعلى شعر كشعر المتنبي او البحتري او الطائي وامثالهم من الشعرآء النوابغ ، لانهُ غير مجموع بل منظوم ، واطلاق العرب لفظ النظم على الشعر يدلّ على انهم فرّقوا بين التأليف والنظم فلم يقولوا ألّف القصيدة او البيت من الشعر ، بل قالوا نظمهُ وعرفوا النظم لغةً انه التأليف اي جمع اللؤلؤ فاذا كان في السلك اي انضم في الخيط وانتظم فهو النظيم والعقد من الجوهر ، ولا ريب في ان النظم هو جمع الفاظ

نعوت الاحتقار ، اي عادم الفهم ، لانهم اكثر ما يطلقون لفظ الشعور على حاسة اللمس ، وذلك لان اللمس ابعد الحواس عن الغش والخديعة ، فقد يخدع البصر ومثله السمع ، وقد يكذبك الطعم والشم ، واما اللمس فقلما يكذب ، فقولهم فلان فاقد الشعور يريدون به عادم الحواس الخمس ، ومن عدم الحواس الخمس فهو دون الحيوان شعوراً اذ هو والميت سوآء .

والاحداث الفجائية تنبه الاحساس وهي مهاز لظهوره في اصحابه ، كما ان الشقآء وارتقاب البلايا يزيدان في قوة الحس اي شدته .

وتظهر قوة الحس في محبة الشعر والتصوير والنقش والخطابة وفي ممارستها اتم الظهور ، وان من الشعر لفظاً يفعل في الالباب ما لا تفعله الصور ، ذلك لانه كله احساسٌ ، فان اردت ان يؤثر خطابك في السامعين ، او نثرك او نظمك في نفوس المطالعين ، فاجعل لكلامك تأثيراً في احساسهم وانتقِ لذلك خيار اللفظ وانفذَهُ في المسامع والقلوب بابلغ تعبير واوضح مقال وما احسن قول البحتري

اهزُّ بالشعر اقواماً ذوي وسنٍ
في الجهل لو ضُربوا بالسيف ما شعروا
عليَّ نحتُ القوافي من مقاطعها
ومـــا عليَّ اذا لم تفهمِ البقرُ

من نوعه والاجتهاد في سبيل التحسين وغير ذلك من العبر ، الى ان وصل الى التفلسف على ما تقع عليه ابصاره من الشؤون العلوية والارضية ثم الى الكتابة فالعلوم اذ سارت المعارف من ارض الى ارض ، ولا يشك عاقل متبصر في ان عقول اولئك القدموسين من البشر ، لم تكن لتمتد الى ما وراء عقل ابن الثمان سنين من ابناء هذا العصر .

قال ديدرو ان العقل الانساني كانت لهُ طفوليته وشبابه ثم تكامله اي كهولته وعسى ان لا تعقبها شيخوخته اي تقهقره .

والشعور نوع من الاحساس الا انهُ عقلي اكثر منه ماديّ ، والشعور في اللغة هو العلم والفطنة والدراية ، يُقال شعر بهِ اي علمه وعقله ، وشعر لهُ اي فطن وزعموا ان لفظ الشاعر من انه يشعر ما لا يشعر غيره ، وعرّف بعضهم الشعور بانه ادراكٌ متزلزل ، وهو تعريف فلسفي في غاية الحسن والاصابة ، اي كما لو كنت متردداً فيهِ او على غير ثقة من الامر ، واكثر ما يُستعمل بهذا المعنى ، تقول شعرت بوقع اقدامٍ او شعرت بفتح الباب ، كأنك تقول وقع في اذني صوت كذا ولكني لست على يقين من ذلك ، ولهذا عرّفوا الشعور بالادراك المتزلزل ، واذا قالوا فلان لا شعورَ لهُ او انه فاقد الشعور ، فانهم يريدون بذلك احطّ

البشري ، لا يرى في الامر ممتنعاً حسبما يراهُ بعضهم ، لانه لما كان الحسّ يتكامل بالتربية وما يستخدم فيها من الوسائل الموصلة الى التكامل المطلوب كما تقدم ، وكان العقل متعلقاً بالحسّ ، اذ اننا نعلم بوجود الحسّ حيث لا عقل ، ولكن لا نعلم وجود العقل دون وجود الحسّ ، ولما كان الحسّ والعقل متلازمين فلماذا يُمتنَع اصلاح العقل بالتربية اذا استُخدمت لهُ الوسائل التي نجحت في تكامل الحسّ ؟

بل نحن نرى ان الوسائل التي تيسرت لاصلاح العقل البشري في العموم بطبيعة العمران الانساني ، قد قطعت شوطاً بعيداً منذ زمن مديد على هذه الارض ، اذ ليس من عاقل مفكّر او باحث متبحر في تاريخ البشر ، يجهل ما كان عليه اسلاف هذا المخلوق الاقدمون ممن طمستهم الاف القرون ، من طفولية العقول وسذاجة الحال وهمجية العيش ، وذلك مما وجد من اثارهم الضئيلة ، ثم بما ظهر لمن بعدهم بالافٍ أُخَر من اثار الرقي البطيء في سائر اسباب العيش ، ومثل ذلك لمن تلاهم ، ولعل من سبقوهم وغابت عنا اثارهم في ظلمات الدهور المتغلغلة قد كانوا على حالة اقرب الى الطفولية بل الحيوانية ، والذي نحن عليه اليوم لم يكن الا نتيجةً طبيعية في اصلاح العقل وقد هذبته دهراً فدهراً محاكاة الماضين

اولادها عقب الولادة او بعد ايام ، وقد تحقق وان كان نادر الحدوث ، ان بعض النسآء يخنقنَ اولادهن او يقتلنَهمْ او يعذبنهم حتى يهلكوا ومثل ذلك بعض الآبآء والمشهور غير مختَلَف فيه ، ان الأم تحب ولدها بالحسّ الفطري لا بالتعليم حتى ضُرب المثل بحنان الأم عند جميع الامم ، فما شذ عن ذلك فهو من فاحش الخوارق ومن ادنى طبقات الطبيعية الحيوانية الوحشية .

ويشترك الذوق مع الاحساس في كثير من الحالات ، فقد تجد في زيد من الحس بالتذاذهِ انغام الموسيقى ، ما لا يوجد نصفه في عمرو ، وترى في خالد من الحس بالتذاذهِ النظر الى تصاوير الرياض والغابات والانهار وغيرها من مناظر الطبيعة ، ما لا يكون عشرهُ في حسَن وكلهم ابناء مدرسة واحدة ومدينةٍ واحدة ومحلةٍ واحدة .

ويمتاز بعض الناس برقة الاحساس ولطف العواطف الى غاية بعيدة ، واكثر ما يُرى من ذلك في افراد من النسآء المهذبات الذكيات ، فقد تتجهُ كل عواطفهنَّ نحو الشفقة والخير والمحبة .

ومما لا ريب فيه ان الحسّ سابق العقل ، ولكن لا يُعلم على التحقيق ان كان في الامكان اصلاح العقل باصلاح الحسّ ، على ان مَن ينظر الى ذلك بارشاد المنطق والتدقيق في درس التاريخ

الباب الثامن

في الاحساس والشعور

ان الحسّ او الاحساس هو قوة من قوى الجسم يشعر بواسطتها بما يصطدم به او يلمسهُ من جامد او سائل ، ورخوٍ او صلب ، وناعمٍ او خشن ، الى غير ذلك من الاجسام وهو في عموم الحيوان؛ وفي بعض النبات شيء من ذلك وليس هذا موضع تفصيله .

ثم توسعوا بلفظ الاحساس فقالوا احساسٌ مؤلم او محزن او مفرح او ملذّ ، وقد يعبّرون عن ذلك بلفظ شعور ، فيقولون شعر بألم الجوع او بلذة الشبع او بتعب السهر او بنشاط الراحة .

ثم هو احساسٌ بحقيقة الشيء كأن يشعر المرء بحريته او باسره او بحدٍّ من حدود الواجبات التي تتقاضاهُ بها اداب المخالقة .

ومن الاحساس احساسٌ بالمعرفة ، فاننا نشعر باننا نعرف كذا وكذا معرفةً عقلية اي انها صادرة عن رأي إستصوبهُ عقلنا او عن حسٍّ باطني .

والاحساس من القوى التي تخلق مع الانسان وتتكامل بالتربية حتى ان هذه القوة تكون في بعض الحيوان عكس ما هي في سواه من نوعهِ ، ومثل ذلك في بعض البشر ، فان بعض الهرر تأكل

فهو التعبير عما يجول في الخاطر ، وهذه الخواطر هي آية الآيات في هذا المخلوق العجيب ، بل ما لا ينتهي الفكر الى ما يمكن ان يصل اليه بعد اليوم من معجزات خواطره وعجائب اعماله .

وتعريف الخاطر انه ما يتحرك في الذهن من رأي او معنى ، وعرّفوا الذهن بانهُ القوة المدركة ، قال في شرح الاشارات ان استعداد النفس لاكتساب العلوم يسمى ذهناً .

فالتعبير عما يجول في الخاطر يكون بالنطق ويكون بالخط ويكون بالاشارات ، والنقد يقع على النطق والخط والمراد بالخط الكتابة ، الا ان الناقد يعاين في ملامح المتكلم دليلاً اميناً يساعده على الكشف عن خفيات نفسه من غضب او حقد او رضى او رياء او شجاعة اوتشاجع الى كثير من مثل هذه الاحداث النفسانية اذ لا يقوى على كتمان الملامح في الاحوال المذكورة الا افراد قليلون .

والصوت وحده لا يكفي الناقد لقرآءة ما تطويه النفس ، لانه اسرع سلاح في البشر استعمالاً وظهوراً ، وايسر العلامات افشاءً وكتماناً ، واسهلها تدليساً وخدعةً ، ففطنة الناقد يجب ان تبعد الى ما ورآء الصوت من الملامح ، وهذا كله مما لا يعرض للناقد الا في نقد الخطب ، ولاسيما المرتجلة في الاحوال العامة والخطوب الجسيمة او في احوال خاصة نادرة تخرج عن موضوعنا هذا .

لشدة فرحهِ » وهذه الحالة لا ترافق السرور بل احرى بان تكون علامة الغضب او ضيق الصدر او فقد الصبر ، فالناقد ينبّه في نقده الى ما قصّر فيه الكاتب الواصف او اجاد ، ولا ننكر انه مطلب عسر وقد لا يُوفَق الوصول اليهِ دائماً .

قال احد الفلاسفة المعاصرين ما تحصيله ان النطق وحده هو الفاصل بين الانسان والحيوان وهو قول قالت به طوائف الفلاسفة من اقدم العصور ولكنه زاد عليه ان الصوت من صراخ وهمس وولولة وعوآء ونباح وهرير وزئير وغيره مشترك بين الانسان والحيوان ، اذ ان الحيوان يعبر عن احساسهِ من غضب او سرور او خوف او ألم بالصوت وهذا جميعه يشاركه فيه الانسان ، الا ان الحيوان لا يتعدى هذا ، لان الصوت فعل حيواني ، اما الانسان فبالنطق يعبر اي يصوّر ما شعرت بهِ النفس من ذلك الحادث ، فالصوت للانسان عامل من اظهر العلامات عما في نفسه ، على انه وان شاركهُ فيه الحيوان كما تقدم ـ لان عوآء الكلب في حالة الغضب هو غير عوآئه في حالة الألم وغيرهُ في حالتي الجوع والفرح ـ الا انّ هذا كله في الحيوان نتيجة احساس محدود يشترك معه فيه عامة الحيوان على اختلاف في الاصوات ، واما الصوت في الانسان فهو في اقل ظواهرهِ نتيجة الاحداث النفسانية ، واما في سائرهِ

واما العلامات فتنقسم الى ناطقة وصامتة ، فاما الناطقة فهي حركات اليدين والرجلين والرأس ، فان بعض الناس يستعينون ـ لا بارادة مخصوصة بل بعادةٍ تملكتهم حتى كادت تكون طبيعية ـ بحركات اصابعهم او سواعدهم او احدى ارجلهم او رأسهم ، حركات ظاهرات واشارات ناطقات تعرب للناظر الناقد عما يختلجهم من سرور او غم او قلق او غضب او خوف الى غير ذلك من الاحداث النفسانية وكثيراً ما تكون هذه العلامات مصاحبة مختلقي الاكاذيب والمفترين .

واما العلامات الصامتة فهي اصفرار الوجه وشحوبه او بالعكس احمراره وتهلله .

على ان كل ما ذكرناه هنا من الملامح والعلامات لا يتعدى المشاهدة فكيف يتسنى للناقد ان يحكم على صورة المنقود ساعة كتابته من كتبه نفسها ؟

والجواب على ذلك ان الملامح والعلامات التى ذكرناها ليست للدلالة على احوال المنقود نفسه ، بل هي للدلالة على صدق الوصف او قصور الكاتب في التصوير ، كأن يقول في كلامهِ « وكان الرجل منذ سماعهِ ذلك الخبر او الكلام لا تستقر لهُ قدم على الارض وهو يروح ويجيء في الغرفة من شرق الى غرب اوطولاً وعرضاً

الباب السابع

في الملامح والعلامات

كلُّ من شدا شيئاً من علم النفس La Psycologie يعلم ما للملامح والعلامات من الدلالة الصريحة بل الوحي الناطق عما تكنّهُ نفس المتكلم من الرضى او الغضب ، ومن السرور او الغم او الخوف او الامن او القلق او الاطمئنان او الصدق او الكذب في كلامه الى كثير من الاحداث النفسانية التي يشاهدها الناقد البصير على وجوه اهله ومعارفه واصحابه وغيرهم ممن يخالطهم ، بل قد يُرى شيء صريح من ذلك على وجوه كثير من الناس لدى اول نظرة تقع فيها عليهم من اعين الناظر ، حتى كأن الملامح والعلامات هي عواذل تنم عليها وتفشي اسرارها للناظرين .

اما الملامح فهي ما يبدو على الوجه من قطوبٍ ـ وهو جمع ما بين العينين ـ او عبوس او تشنّج او تقلص وانقباض في طرفي الفم ـ الشِدْقين ـ او الانف وغير ذلك من رَجفان في حالتي الخوف والغضب وتلاشٍ واسترخآء في حالات الحزن والغم ، وبعكس ذلك في احوال السرور من انبساطٍ في سائر اعضآء الوجه وابتسام او ما يقرب منه ، وصفآء وبريق في العينين كانها تتكلم بغبطتها .

تشبيهاً او مدحا او ذما او غيره فاعرف ذلك .

وكلام الامام الجرجاني لم يتهيأ له الا بما طالعت اعلاه ، اي بما امكن اختصارهُ بنحو ثلث كلامهِ ولعله اوضح مما قال .

وهذا يبرهن لك ما ذكرناه في هذا الباب من ان العلم غير صناعتي الكتابة والخطاب فقد يكون الرجل الثغ او فأفأ او عيياً في المنطق ويعيا عن الكتابة ، وهو عالم ، او يتكلف التأليف والانشآء ولا يجيد فيهما ، ولعل اكثر ذلك ناشيء عن نقص المعاشرة والتخاطب والاجتماع بالناس واستماع احاديثهم ونوادرهم وضعف الهمة في ركوب الاسفار وقناعة الرجل بديل ذلك كله بان يظل حِلس بيته راضياً بجلسآء من العامة او صغار الطلبة يوقرونه وهو يظن انه يفيدهم ويجهل جسامة خسارتهِ العقلية والعلمية من ورآء هذه القناعة ، قال في بغية الوعاة في ترجمة عبد القاهر الجرجاني « اخذ النحو عن ابن اخت الفارسي ولم يأخذ عن غيرهِ لانهُ لم يخرج من بلده » .

فاذا تبصر الناقد الاريب فيما يعرض له من مثل هذا وتوغل في البحث ، فقد تهديهِ فطنتهُ الى كثير مما تقدم بيانه من العلل والاسباب .

« واعلم اني لست اقول ان الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة اصلاً ، ولكني اقول انهُ لا يتعلق بها مجردة من معاني النحو ومنطوقاً بها على وجهٍ لا يتأتى معهُ تقدير معاني النحو وتوخيها فيها كالذي اريتك . والاّ فانك اذا فكرت في الفعلين او الاسمين تريد ان تخبر باحدهما عن الشيء ايهما أولى ان تخبر عنهُ واشبه بغرضك مثل ان تنظر ايهما امدح واذمّ وفكرت في الشيئين تريد ان تشبه الشيء باحدهما ايهما اشبه بهِ كنت قد فكّرت في معاني انفس الكلم الا ان فكرك ذلك لم يكن الا من بعد ان توخيت فيها معنى من معاني النحو وهو ان اردت جعل الاسم الذي فكرت فيهِ خبراً عن شيء اردت فيه مدحاً او ذمّاً او تشبيهاً او غير ذلك من الاغراض ولم تجيء الى فعلٍ او اسمٍ ففكرت فيهِ فرداً ومن غير ان كان لك قصد ان تجعله خبراً او غير خبرٍ فاعرف ذلك . »

وهذا الكلام جميعه بعد ان يتدبره المطالع مراراً ليفهمَهُ يلَخَّص بما يأتي لا اقول ان الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة اصلاً ، ولكني اقول لا يتعلق بها مجردة من معاني النحو كما ذكرت ، مثال ذلك لو فكرت في اسمين او فعلين تريد ان تخبر عن احدهما فلا شك انك تنتقي لذلك انفس الكلم في الموضوع الذي انتقيتهُ ولا يتم لك ذلك الا بعد توخيك معنى من معاني النحو كأن يكون

الكماليات تعددت الموضوعات ، وكلما كثرت موضوعات الكلام توافر التشبيه والاستعارة والاشتقاق والمجاز ، واتسع مجال القول وانطلق لسان المنطيق والخطيب .

فاذا بدا لك التعقيد او عاينت ظهور المعاياة في كلام بعض المتقدمين ، ورأيت ان الجملة كذا كان في الامكان ان تكون اوجز مما هي واكثر فصاحةً واسهل تعبيراً ، فلا تظنّنَ بكاتبها الاقتدار على ذلك واهمال السهل عمداً الى هذا الوعر ، اوكأن تسطو على حسن ذوقك فخامة شهرة المؤلف فتجهرك فتتردد فيما بدالك ، بل كن مستوثقاً من انهُ لم يستطع ان يأتي بغير ما عاينت وقرأت ، لان صناعة الكتابة هي غير العالِمية ، والتبحر في علم واحد او اكثر ، هو غير حسن التعبير وغير جمال الوصف والتنسيق وسهولة التفهيم ، إن مخاطبةً او كتابةً ، قال الاصمعي سألتُ خلفاً الاحمر ما معنى المقزحرّ (او المقذعر) فلم يتهيأ له ان يخرج تفسيره بلفظ واحد فقال أما رأيت سنّوراً متوحشاً في اصل راقود ؟ . اه

وهذا خلف الاحمر وما ادراكَ مَن هو قال صاحب البغية وقيل هو معلم الاصمعي ، ولعلهُ لو قال كالهر المنتفخ اوالهر الوحشي الخائف لوفى المعنى حقهُ . واليك مثالاً من دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني الامام العلم المشهور من اهل القرن الخامس قال :

الحكومة او عند الوزرآء والامرآء ولا جديد تحت الشمس .

وكل نفس الى الاموال تائقة ٍ وليس الا لطيب العيش ما جمعت ْ

ومما يحسن ايضاحه في هذا الباب وان يَتَنَبَّهَ له كل اديب ، ان مَن تواتيهم قرائحهم على اجادة التعبير عما في ضمائرهم وعن مشهوداتهم انفسها ، هم قليلون بين الكتّاب في كل امة ، ولاسيما البلغآ والفصحآء ، وان اكثر الناس يعسر عليهم ذلك وبينهم جمهور من اكابر العلمآء والكتّاب ، وكلما توغل المرء في تأريخ حياة الامم يراهم في هذا متشابهين ، ولذلك سببان الاول تبسّط الحضارة والثاني تعدد العلوم اما تبسط الحضارة فقد دفع الامم الى الاستبحار في ابواب العمران وما يتفرع عنها من احوال المدنية وكمالاتها وكثرة اختلاط الناس لتقارب المسافات بين البلاد البعيدة من تعبيذ الطرق واستخدام البخار والكهرباء ووقوف كل امة على لغات غيرها من الامم وتعلم كثير منهم غير لغة من تلك اللغات ، كل ذلك مهدّ سبل المخاطبة والمعاشرة وتبادل الخواطر وتصوير المشهودات ووصفها ، بعكس ما كان الحال يوم كانت الامة حديثة النشأة بسيطة العيش بعيدة عن العلوم ، لا كماليات عندها ، شديدة الاقتصاد في حاجيّاتها بعيدة عن التعامل مع سواها من الامم ، قليلة التعاشر مع جيرانها ، ومن المقرر انه كلما توالى التعاشر كثرت المحادثات وكلما توفرت

مبدأ الاضافة . »

انتهى المراد من هذا المثال وان اشكلَ عليك شيء من كلامه فلا ترجو ان اوضحه لك اذ انني اعترف بمنتهى الاخلاص انني لم افطن الا الى القليل مما تقدم ولعلك اذا عرضته على احد المنطيقيين او أئمة المتصوفة ترتوي من معانيه .

واليك مثالاً آخر من كثرة الالفاظ المشتركة في المعنى ...
« تَقَسَّمَهُ امران متباينان احدهما عسر ذلك واباؤه وتعذّره والتوآؤه فيظن لذلك ان الامر الذي يُحاولهُ معجوز عنه وانه غير مقدور عليه وان الوصول اليه محال ، والاخر استجابة ذلك وانقياده ومطاوعته وامكانه فيظن لذلك ان الغاية التي يؤمها باجتهاده وقصده ورأيه وعزمه دانية معرضة سهلة قريبة . »

فلو قال احد الامرين اللذين قسمهما لتم بهِ معنى الكلام كقوله عسر ذلك او اباؤه ، والوصول اليه محال ، ومطاوعته ، وهلم جرّاً ، ولا يمكن الاعتذار عن هذا وامثاله بان السجع قد اقتضاه ذلك لانه لو لم يذهب الى الحذلقة والتقعير لكان له في غير ذلك من المعاني مندوحة عن هذا التكرير المملّ البارد ، ولكنهم كانوا يعدّون هذا من حسنات الانشآء والاقتدار في صناعة الكتابة والتبحر في معاني كل لفظ من الفاظ اللغة ، توصلاً الى كتابة الرسائل في دواوين

كالسحب الهطّالة فيُشتهر في القوم انهم فلجوه في الجدل وافحموه بالحجة ، واليك مثالاً من كلام ابي حيان التوحيدي وكان ممن يُرمى بضعف العقيدة كالجاحظ ويقتفي اثره في انشائه ، وكان اكثر صراحة منهُ في مذاهب المتفلسفين والمتصوفة ، واكثر اقواله على سبيل السوأل والجواب بينهُ وبين من يسميهم من مشاهير حكماء ذلك العصر قال في مراتب الاضافة :

« قلت لابي سليمان احب ان اسمع كلاماً في مراتب الاضافة التي هي مستولية في جمل حالاتها مثل قولي هذا ، وهذا لي ، وهذا مني وفيّ وعليّ واليّ ولديّ وعندي ، وما ضارع ذلك (انظر بعد كل هذا التكرار يقول وما ضارع ذلك) . . . فاذا اضاف الانسان شيئاً الى نفسه فانما يضيفه الى الآلة التي تستحق الاضافة كلها بالاطلاق ، لان مراتب الاضافة مختلفة من مرتبتين ، الحائط ، وماء النهر ، وسرج الدابة ، الى يد الانسان ، الى فضل زيد ، الى ما لعمرو ، الى كوكب الفلك الى العلّة الاولى . . . وكيف كان ذاك فقد بان ووضح ان اضافة الانسان انما هي الى شيء مستحق للاضافة وليست على باب التحريف والاضافة .

ثم قال ان مبدأ المضيف الى المضاف الى المضاف اليه ومبدأ المضاف الى المضاف اليه هو مبدأ المضيف ومبدأ المضيف هو

تَتَأَلّفَ جملاً ، ثم في انسجام عبارته واتّساق جمله و بنيانها جملةً جملة الى ان تبلغ تمام المعنى الذي ارادهُ لها ، تراهُ قد شيد من ذلك البناء قصراً فخماً على امنع اساس ، فهو بحر عجّاج والالفاظ كالجبال المتلاطمة امواجه ، و بركان يقذف بالمعاني فتشتعل بالفاظه كانها شهب او نيازك تتساقط من قلب الاسد ، وهو يغور و ينجد في كل علم بل هو استاذ الكتّاب والعلمآء حتى جرى المثل في اللغة باسمه كما قال الزمخشري في مقدمة اساس البلاغة (حتى يُقال هو من علم البيان حظي ، وفهمهُ فيهِ جاحظي ،) ومع ذلك وبعد كل الذي ذكرناه فهو لا يسلم من تكرار الكثير مما قاله في غير كتاب من كتبه ، وقد نبّه هو نفسه على ذلك ، ولا يخلو انشاؤه في غير موضوع من الموضوعات التي طرقها من فضلات القول ؛ ومما يجب ان لا يذهب عن الكاتب الناقد ، ان بعض المتكلمين والمتفلسفين كانوا يطيلون القول ويكثرون الالفاظ ويكررونها لاسبابٍ ، منها ضعف الحجة او فقد البرهان او المغالطة حيث لا غلط ، حتى اعتادوا ذلك لذلاقة ألسنتهم وتوقد قرائحهم وتبحرهم في الفاظ اللغة وجسارتهم على الجدَل والخصام ، واستخفافهم في كثير من المقامات بمجادليهم او خصومهم ، وذلك ليشدهوا سامعيهم او مجادلهم ويدهشوه بل ليغمروه بسيول الالفاظ المتدفقة من افواههم

به جد امريء القيس وكالعقر والغبيط والتمطي والعير وامثالها ولا معانيها البدوية الصبيانية في كثير منها ولا كالتفصيل والتطويل في النثر كقوله « وما بيننا وبينك من التشاجر والتنازع والتحاكم والتنافر فان الكلام قد يكون في لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجد » وكقوله فاصبحت لا محتجاً ولا محجوجاً ولا غفلاً ولا موسوماً ولا معذوراً ولا فيك اختلاف ولا بك حاجة الى ائتلاف ، وكقوله « الا فيك اوعندك او لك او معك خالصة لك ومقصورة عليك لاتليق الا بك ولا تحسن الا فيك » وشيء كثير من امثاله فهذا كله يجب تركه لاصحابه امرىء القيس واهل زمنه والجاحظ وابي حيّان التوحيدي ومن حذا حذوهم من اهل تلك القرون ، قرون الوبر والاباعر والكلب النابح والليل الكافر ، لاسيما وكثير منه وارد في معرض الهزل او التهكم ، على انهُ وان عُرض اليوم في قرن النور في مثل ذلك المعرض ، فليس من بضاعة هذا الاوان ولا من زيّ اهله ، واوقاتهم اضيق من ان تنفسح لمثله ، بل اين مثل الجاحظ وهو اعجوبة الدنيا ونادرة العلمآء والكتّاب ، وقف على اكثر علوم عصره وصناعات اهليه وكتب فيها ، واذا تبصرت فيما كتب وفي فصاحة لهجته وطريقة انشآئه وتدفق الالفاظ من فم قلمه يزاحم بعضها بعضاً حتى

لكم لفظاً من الوف الاسماء الأعجمية التي نحن في اشد الحاجة الى تسميتها باوضاع عربية ، واما التعريب فلم نعثر لكم الا على تعريب مشوّه او محرّف او حرفيٍ وكل ذلك غريب عن وطن التعريب ، وهجنةٌ في وجنة اللغة .

اما التجديد في عرف الانتقاد ، فينحصر في اهمال كل ما كان لعصر مضى نافعاً وعزيزاً ولم يبقَ لهُ شيء من النفع في هذا العصر بل فقد قيمته المادية والمعنوية اللتين كانتا لهُ في العصور الجاهلية وما قرب منها بل ما كان يُفاخَر به منذ قرن واحد ، مثال ذلك ما قيل في الإِبِل والقوس والرمح والسيف والعصا والدلو والخيل وكثير من امثالها وما يتعلق بها وبفوائدها واضرارها مما كان لا يستغني عنه اقوامنا الماضين وفي كتب اللغة منهُ شيء يعادل نصف ما فيها بل ما يزيد كثيراً على النصف ، فترديد هذا كله اليوم تقليدٌ جامد إنْ في الشعر وان في النثر ، بل ما احرانا بحذفهِ بتاتاً من معاجم اللغة التي تطبع جديداً لخدمة طلاب العلم واولاد المدارس على ان تبقى المعاجم الكبيرة لخدمة العلمآء واكابر الادبآء ، واما محاكات فحول الكتّاب . ونوابغ الشعرآء فيجب ان يقصر على تراكيبهم الفصيحة وجملهم البليغة الواضحة لا تكرير الفاظهم ولاسيما ما كان خشناً قبيحاً قذراً وحشيا كالبعر ولو بعر الارام ولو نطق

الاندلس : الامام المتقن المتفنن ابو القاسم . . وممن صحبه من العلماء المتفننين ابو بكر محمد بن طفيل احد فلاسفة المسلمين . . هذا وكثير مثله عدا ما ذكر صريحاً في كتب اللغة فمنحتم متفننيكم لقب الحمار ـ وهو الفنّان كما صرحت بهِ معاجم اللغة ـ واعرضتم عن لفظ فصيح ليس عليه غبار ، اما فترة فهي عامية مبتذلة ، والفترة في اللغة هي مدة تبلغ مئات من السنين فبأي معجزة جعلتموها دقائق ، ولم تبالوا بقلب الحقائق ؟ ويقال للمدة القصيرة في فصيح اللغة "هنيهة" او لمحة او قليلاً او دقائق او لحظة" كما يقول عندنا عامة الناس في حلب ، وما تجديدكم الا احد اثنين ، فإمّا عجز وكسل عن البحث في كتب اللغة ومراجعة اسفار الادب ، ومطالعة كنوز فصحائنا وتراكيبهم واستعمالاتهم ، او ولع في الانتفاخ وحب الشهرة ونقص في صدق البصر للتمييز بين الفصيح وبين الركيك المبتذل وافتقار الذوق الحسن ، واما تعميركم المزعوم فهو التخريب الذي يعجز عنهُ اعدى اعدآء العربية واهلها .

وقالت فئة ثانية اننا نسعى في تجديد ما اندرس من تراكيب الفصحاء وننحو اثارهم ونسير على طريقتهم ، قلنا نعم السعي هذا لو شفعتم القول بالعمل ، ولكننا لم نرَ شيئاً مما ذكرتموه ، واولى ما نحتاج اليه من التجديد هو الوضع والتعريب ، اما الوضع فلم نجد

الاغلاط والركاكات، واما حسب فليس لفظاً مستحدثاً وهو اقدم من قفانبكِ، ولكنكم زدتم عليه الفآء تقليداً وجهلاً باصله قياساً على فقط، ولا يقوم حسب مقامه وليس هذا موضع بيان ذلك وقد يطول ولكن هب انهُ ناب عن فقط فلماذا اتخذتموه واهملتم فقط؟ وما هو ذنبه؟ وما هي محاسن فَحسب وفوائده؟ أَلَا تعلمون ان الفصيح هو ما تكرر على ألسنة الفصحاء، وهذا لفظ فقط تكرر منذ الف ومائتي سنة على ألسن العلمآء والفصحآء وفي رأسهم سيبويه، ولم نجد احداً من علماء البيان جاء بحسب بدل فقط كالعسكري والجرجاني صاحب دلائل الاعجاز وابن الاثير وابن سليمان الحلبي صاحب صناعة الترسل وغيرهم من امرآء البلاغة والفصاحة كالمبرد والثعالبي والخوارزمي والزمخشري وامثالهم. واما لفظ فنّان فهو ايضاً قديم في اللغة وهو الحمار الوحشي، اما تعريب Artiste فيكون لفظ متفنن في العربية قال الفارابي منذ الف سنة او نحوها في مقدمة احصآء العلوم «وينتفع به المتأدب والمتفنن» ومن اغرب والطف ما رأينا من تهافت المجددين ان الشاب الذي نشر هذه الرسالة «احصآء العلوم» لم يفرغ من ترجمة الفارابي في اولها حتى ختمها بتعريبه هذه الجملة «وثبات كثبات الفنّان» ولم يستفد من قول الفارابي اعلاه فتأمل! وقال التميمي صاحب تأريخ

الشعرية فكذا ومن الناحية الادبية فكذا وهلم جراً ثم اوجدنا لفظاً جديداً وهو الفنّان artiste ثم صرنا نفصل بين جملة وجملة بقولنا «والواقع» فهذا مع لفظ الناحية والاحاسيس واللمس كقولنا ان ما تلمسه من سهولة التعبير والتقدم العصري والثقافة هو نتيجة كذا وقد اكثرنا ايضاً من الثقافة وهذه الالفاظ التي ملأت وزينت اكثر كتابات العصريين قد ملأت الصحف والمجلات وزادت في ثُراث اللغة، ولا تنس لفظ تُراث اللغة وتراثنا القومي فانهما محط كلام استعان كثيراً بهما الكتّاب فاستفادوا وافادوا. قلت ماذا افادوا، انك تريد انهم افادوا املاء الفارغ من الصفحات، قال نعم فما قولكم في هذا التجديد والتعمير؟ قلنا اما التعمير فانهُ لا يذكر في هذا الذي قلتموه الا اذا بدلتم لفظ التعمير الى معنى التخريب، واما التجديد فكل جديد يُستحب ويستحسن الا في اشياء، فالخمر الجديدة والخبز الفطير (وهو الجديد) ليسا بمحمودَين ولا مستحسنين، واما في اللغة فغير مكروه ولا منكر الا من الباب الذي دخلتموه، فان التحبيذ لا وجود لهُ في اللغة وحبذا لفظ جرى مجرى المثل والامثال لا تُغير في اللغة، والتحبيذ ومشتقاته لفظ يثقل على سمع من منحهُ الله شيئاً من الذوق، والاستحسان والاستصواب وما بمعناهما في اللغة لا يُعوّض عنها بامثال هذه

اللغة لو اصطلحوا على هذا التعريب الواضح في هذه النعوت والالقاب وافادوا العربية من تجديدهم لفظاً يفهمهُ الخاص والعام ولاسيما بعد دوارنهِ على الانس وعلى اقلام الكتّاب ؟ اجابنا على هذا السؤال بعض من يظن انهُ يترجم عن خواطرهم ، ان كثيراً من المجددين يتوهمون ان اللفظ الفرنسوي او الانكليزي يوقع في اذن العربي من اهل البلاد حرمةً ورهبةً ليستا للفظ خريج او استاذ او معلم ، ولاسيما اذ يفهمون معنى اللفظ ، لان البراعةَ كلَّ البراعة عندهم في ان يُحال بين فهم السامع العربي وبين اللفظ ، فتغشاه الرهبة وتغمره الحرمة ؛ تيّارُ اوهام تُحسَب صبيانية ، ولا يدفع التيّار ، الّا تبدّل الليل والنهار .

ولنعد الى موضوعنا قالت فئةٌ منهم يقوم التجديد بطمس ما خَلُق من الفاظ اللغة والاعتياض عنها بالجديد ، فقلنا ما مَثَلُ ما طمستم واهملتم ومَثَلُ ما عمّرتم وجدّدتم ؟ فقالوا اننا اهملنا الاستحسان وما في معناه كالاستصواب والاستحباب والامتداح والارتغاب الخ وجدّدنا بدل ذلك كله لفظ التحبيذ فقلنا حبذناه وحبذوه الخ ثم اهملنا لفظ فقط واتخذنا بدلاً منهُ فحسب ثم قلنا للمدة القصيرة فترة ، ثم قلنا طيلة بدل طول او طُوال ثم قلنا الناحية بدل الوجه او الجهة كقولك اذا نظرنا اليه من الناحية

الباب السادس

في التجديد والتقليد

نريد بالتجديد ما يدّعيه جماعة انتحلوا لانفسهم نعت المجددين او اصحاب التجديد وقام على اثرهم مَن هم دونهم سناً او اقرب عهداً بالمدارس فقالوا مدرسة المجددين ، القاب ونعوت اول ما ظهرت في مصر في اوائل هذا القرن على ألسنة واقلام بعض طلاب العلم من الذين طلبوا العلوم في اروبا ، ونالوا من تلك المدارس خرّيجات (ديبلومات) وراحوا يكتبون فوق امضاواتهم ليسانسيه او دكتور او ماجستر ، وتعريب (ليسانسيه) خرّيج او متخرج يقال خريج المدرسة الفلانية او العلم كذا واما دكتور فهو العالم المتخصص لعلم بعينه كالنحو فيقال النحوي او اللغوي او المؤرخ او الجرّاح وكلها استعملها العرب الا ان الدكتور جرت كثيراً على الالسن حتى صارت لفظاً الفته الاسماع وانما المشهور المعلوم عند العموم وكثير من الخاصة انه لا يُقال لغير الطبيب ، واما ماجستر فهو لفظ ونعت انكليزي وفي الفرنسوي maître او professeur ولكن لفظ ماجستر اضخم واملأ في الفم وافخم في السمع وهو في العربية معلم او استاذ ، وما ضرهم نفع الله بفضلهم

التعريف اللغوي للفظ التأليف كما سبق القول في اول هذا الباب .

وفي الحقيقة ان تأليف الكتب في قواعد علوم اللغة عند جميع الامم هذا شأنها بعد ان اسَّس قواعدها الواضعون الاولون ثم اتمَّ تحسينها وضبطها وتبويبها وجمع شواردها من جاء بعدهم من العلمآء ، فكان منتهى علم العالم المؤلف ان يفتش ويبحث في طيات الكتب القديمة والاوراق المتفرقة المدفونة . او ان يباحث الاعراب في بواديها او مَن خالط الامم المتقدمة في قبائلها ونواديها ، وله بذلك فضل الجامع والمؤلف والمحقق والمفيد والمعلم ، وكفى بذلك اشادةً بفضلهِ ، وكل ذلك يصدق فيمن جمع ووصل بترتيب - يقرّبُ الاقصى بلفظٍ موجزٍ - وبيانٍ يترفع عن الغموض والتعقيد والحشو والتكرار ، ليحل كلامه في ذهن طالب العلم حلول الكرى في الاجفان ، والماء البارد في فم الظمآن .

وينتج مما تقدم ان ليس كلّ مَن ألّف يُدعى بحقٍّ عالماً ، ولا كلّ متقدم في ذلك دهراً تتوجب علينا حرمة كلامه ، ففي كل عصرٍ زاحم ادعيآء العلم العلمآء ، وتطاول العرّيضون على اهل الفضل ، والادب منهم برَآء .

الى الشر اميل ، وهذا كله ليس بمانع قبول العلم في سائر الفنون لان منشأهُ العقل الانساني ، وهو يكون في الطيب والخبيث ، ومثله الصوت الحسن لانهُ صادر عن الحنجرة كما هو معلوم ، فقد تكون شريرة وصاحبها في ارفع دارات الذكاء ، وقد تكون فاضلة وصاحبها في اقصى دركات الخمول والبَلَه ، ولله درّ الحديث : اكثر اهل الجنة البُلْه .

ومن هولآء جماعة يُسَمّوَن في عرفنا مقيّدي العقول مستحجري الفطنة ، لكنهم بما لهم من الجلادة والصبر والمثابرة على المطالعة وتكرار المدارسة وشيء اوتوهُ من مَلَكة الحفظ وتفرّغ البال، وتخصصهم لعلم واحد كالنحو او الصرف او الفقه او الجدل وما يتعلق بهذه العلوم ايضاً ، قد يبلغون مرتبة التدريس اي التعليم بل التأليف كمؤلفات السكاكي وامثاله من العلمآء المشهورين الذين يُقال عنهم ما قالهُ القزويني في مقدمة تلخيص عن مفتاح العلوم « ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد ، مفتقراً الى الايضاح والتجريد » واكثرهم يقف عند علم واحد (وذلك دون ارتياب ٍ لحسن طالع اهل العلم) ولو قصد الى علم آخر لعجز عن تفهمه ِ ولا سيما الفلسفة وسائر العلوم العقلية ، وذلك لان القوة المدركة في امثاله محدودة او قاصرة ، وتأليفاتهم لا تتجاوز

الحشو او وافر فضلات اللفظ ، مثال ذلك ما يُرى في تأليف ابي يعقوب السكاكي وهو من العلمآء المشهورين ، فانك اذا نظرت في ما قالهُ في كتابهِ مفتاح العلوم تجده في كل باب من ابواب الصرف والنحو كثير التعقيد والتطويل والحشو على غير فائدة ، واذا راجعت الباب نفسه في النحو للزمخشري في المفصّل وهو متقدم عنهُ بدهر طويل ، او اتمام الدراية للسيوطي وهو متأخر عنه كثيراً ، تجد فيهما من الاختصار والوضوح ما يشرح الصدر ، وينقل الى السهل من الوعر ، وحسبك ان تطالع تلخيص المفتاح للقزويني مع انه اختصار وتلخيص المعاني والبيان ، لتعلم كم يُستغنى بهِ عن المطوّل للسكاكي .

ومن العلمآء طائفةٌ افظاظٌ غلاظ فحاشو المنطق نهّاشون ، كجرير والفرزدق والبُعيث من الشعرآء ويتلوهم الاخطل ولكنه لم يكن فحّاشاً بل شتّاماً عياباً ، ومن العلمآء كابن حزم فظاً سبّاباً وقحاً في التفكير واللعن متلبساً بثياب الجدل والتعليم والدفاع عن الدين ، ويحذو حذوه السكاكي في اللعن والشتم ، فهولآء ومن على شاكلتهم من الشعرآء والعلمآء ، إمّا انهم نشأوا في بيئةٍ يكتنفها التوحش او الفساد او الفحش او كل ذلك فألِفوا شراسة الاخلاق والتفحّش او غيرهما من الرذائل ، او ان تكون غرائزهم رديئةً فهم

يعقوب المذكور ولما توفي وتولى ابنه يعقوب ابو يوسف انقلبت الحال ولم يمت الا بعد ان كان أمر بحرق كتب الفلسفة وسائر العلوم ونكب اصحابها وشتتهم كل شتيت حتى

كأنْ لم يكن بينَ الحجونِ الى الصفا انيسٌ ولم يسمُر بمكةَ سامرُ

الباب الخامس

في التأليف ومراتب المؤلفين

التأليف في اللغة هو الجمع او وصل بعض الكلام ببعضه ، والمراد بالجمع جمع كلام من تقدم ، او قواعد اي علم من العلوم ، فالمؤلف يجمع ما يختارهُ من اقوال علماء ذلك العلم ويزيدها ايضاحاً ، فيفكّك مُعقَّدها ويفتّح مُغلَقها ، وقد يزيدها تعقيداً واغلاقاً ، او يُفتَح عليهِ باشياء لم يتقدمهُ احد فيها فيضيف الى ذلك العلم فوائد لم يُسبق اليها ، وذلك كله يتوقف على مرتبة المؤلف .

وليس من يجهل كثرة الفروق بين الناس في الفهم والذكاء والنباهة والادراك وسرعة الخاطر والحفظ وقبول التعليم ، ولذلك فنقص هذه الصفات او بعضها في بعض المؤلفين بل العلماء ، يعترض في سبيل الاعراب عما في ضمائرهم فيبدو انشاؤهم بعيداً عن منازل الفصاحة ، غريباً عن مواطن البلاغة ، او معقّداً او غامضاً او كثير

اجتماع الرجال والنسآء مباحاً او مألوفاً في مجلس واحد ، ولم يصل الينا شيء من اثارهم الادبية ، وقد وقفنا على بعضَ ابيات لابي بكر ابن الطفيل هي الغاية في فن القريض وان كانت في باب التصوف لما تضمنت من البلاغة وبراعة التصرف قال .

وجرّتْ على تِربِ المحصّبِ ذيلَها   فما زالَ ذاكَ التربُ نهباً مقسّما
تَناولُهُ ايدي التجار لطيمةً   ويحمله الذاريُّ إيانَ يمّما
ولما رأت ألاّ ظلامَ يَجُنُّها   وأنَّ سراها فيه لن يتكتّما
نضتْ عَذَباتِ الريطِ عن حُرِّ وجهِها   فابدتْ محيّاً يُدهشُ المتوسّما
فكان تجلّيها حجاب جمالها   كشمسِ الضُحى يعشى بها الطَرفُ كلما
ولما التقينا بعد طولِ تهاجرٍ   وقد كادَ حبلُ الودِّ انْ يتصرّما
جلتْ عن ثناياها واومضَ بارقٌ   فلم ادرِ مَن شقَّ الدجنّةَ منهما
وساعدني جفنُ الغمامِ على البكا   فلم ادرِ دمعا اينّا كان اسجما
فقالت وقد رقَّ الحديثُ وابصرتْ   قرائنَ احوالٍ اذعنَ المكتّما
نشدتُكَ لا يذهبْ بكَ الشوقُ مذهباً   يهوّنُ صعباً او يرخّصُ مأثما
فامسكتُ لا مستغنياً عن نوالِها   ولكن رأيتُ الصبرَ اوفى واكرما

ولم يطل عمر هذه اليقظة العلمية الا بمقدار حياة يوسف ابي

للفلسفة فذاق محبو العلم شيئاً من حرية الكتابة لعهده واجتمع حوله الفلاسفة كأبي بكر بن الطفيل وابن الصائغ وابن رشد وسواهم، وكان جل اشتغالهم في العلوم الفلسفية عن كتب رسطاليس وسواه من فلاسفة اليونان، ومع ان اختلاطهم باليهود والنصارى بلغ حداً لم يُعرف مثله في حكم الاسلام (١) فلم يكن

(١) قال صاحب كتاب (ابن رشد والرشديون) لم يسبق في التاريخ لفاتح من الفاتحين تسامح كتسامح العرب الاسبانيين فوق ما ظهر منهم من لين الجانب مع المغلوبين، ومنذ القرن العاشر المسيحي اصبحت اللغة العربية هي اللغة العامة للمسلمين واليهود والنصارى، وكثر الزواج المتبادل بينهم، بالرغم من معارضات رؤساء الاديان.

وسقطت الدروس اللاتينية والكنيسية الى درجة قصوى من الاهمال *] الى ان اصبح الاساقفة يتعاطون نظم القصائد بمراعاة غاية الاصابة في الوزن والاجادة في قوانين البيان في اللغة «العربية» حتى ان الفار القرطبي (لعله رئيس اساقفة قرطبه) كان يؤنب مواطنيه بشدة لتفضيلهم الحروف العربية على الحروف المسيحية (اي اللاتينية) ولجهلهم دينهم ولغتهم، ولاقبالهم بتعطش (متعطشين) على تحصيل النثر وبديع البلاغة العربية.

اما اليهود فقد استقبلوا غزوة اللغة العربية بسرور اوفر، لان هذه السلالة المسكينة وجدت اخيراً بعض الراحة عقب سفرها الطويل، وشبهَ تذكار لبيت المقدس (اورشليم) وكانت اسبانيا منذ عهد بعيد وطناً ثانياً لليهود، فقد التجأ اليها منذ السنة الخامسة والعشرين بعد المائة على عهد ادريانس (ادريان) عدد كثير من الاسر التي نجت مما نزل بامتهم من توالي المهالك، ولما كان القوطيون الغربيون les Wisigoths يضطهدونهم فقد استقبلوا العرب كمعتقين، ثم ان العلم ومذاق نفس العلوم اتمت مزج السلالتين، حتى شوهد يهودٌ ترأسوا مجمع قرطبة **]. ان وحدة العلوم العقلية كانت في كل زمن احسن وسبط في تأسيس المسامحة والمساهلة.

*] يوجد مخطوطات في اللغة لاسبانية مكتوبة باحرف عربية وبالعكس. (عن مجلة العلماء Journal des Savants السنة الخامسة ٧ فى ١٦ جيرمينال للعلامة ده ساسي شارح مقامات الحريري.

**] كما روى البحاثة ميديلدورف.

البديعة ولاسيما الفصاحة والشعر ، لم ترْتب في هذا الاساس الذي بنى عليهِ ادبآء وشعرآء القرنين اللذين عَقَباهُ ثم هذا الاول من القرن العشرين هذين الفنين .

ومن اين للغة العربية من مثل ما تقدم وصفه ، بل شيء من وصفه ؟ فان خير عصور علومها ورواج سوق ادابها هو العصر الاول العباسي ولم يطل اكثر من حكم الخليفة المأمون ، الا ان المادة الاولى الجوهرية لتقدم الفنون كلها ولنبوغ اصحابها ، لم يكن يحلم احد بامكان حصولها ، وهي اجتماع الرجال والنسآء ، والمادة الثانية هي البحث في جميع الاداب والعلوم ، وهذا ايضاً لم يكن مباحاً الا لمن عرّب بعض كتب الفلسفة اليونانية بامر الخليفة وجلهم من النصارى - واكثرهم من اهل سوريا - كما هو معلوم ، ووقفت المعارف عند هذا الحد بل بدأت تتراجع القهقرى .

ولم تكن دولة هذه اللغة في الحكم الاموي وما تبعهُ في الغرب خيراً مما عانت في الحكم العباسي الى ان قام في القرن الثاني عشر امير المؤمنين ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن(١) فراجت لعهده سوق الاداب والعلوم وكثرت الاموال بين ايدي الناس لكثرة فتوحه ، وعم الامن وتوالى الخصب ، وكان عالماً شاعراً محباً

(١) تولى سنة ٥٥٨ للهجرة وتوفي سنة ٥٧٩ .

المختلفة والمعارف المستحدثة، الى ممازحات لطيفة ومعاشرة مهذبة رقيقة بين الجنسين، وكان في خلالها يتبادل اولئك الشعراء والمتفننون الارآء فيما كانوا يؤلفونه، فيتذوق احدهم طعم رفيقه فيما يعرض عليه، بل كان بعضهم لا ينشر شيئاً من نظمه او نثره دون عرضه على صاحبه وتصحيحه طبق انتقاده، كما كان يفعل بوالو وراسين حتى فرقت بينهما المنون.

وانت تعلم ان قيمة المصنوع تتبع قيمة مادته الاولى، بل هي سُنّةٌ في جميع المواد وسائر المصنوعات، اذ ان حسن الصناعة يقتضي جودة المادة التي يتركب منها المصنوع، والصائغ الماهر لا يرضى الفضة بديل الذهب لصياغة الحجارة الكريمة.

فمادة الروايات التي ظهرت في القرن السابع عشر، هي من هذه المادة الجليلة، من معدن العز وموطن الابداع والذوق الفائق المثال، فلا بدع بعد هذا ان يسمو فنٌ مادته الاولى من هذا المعدن العزيز.

فاذا نظرت بعين الناقد الحصيف الى الظروف والاحوال والبلاد والامة ودار ملك تلك الامة والى موقعها الجغرافي من اوربا وفصاحة لغتها ووضوحها بين جميع لغات الامم الاروبية يومئذٍ، ولا سيما الى ملكها الشاب ومحبته المعارف وسائر الفنون

الشعور او غير ذلك مما توسعت به المعارف في متعدد الاخلاق البشرية .

ولم يكن هؤلآء الشعرآء والكتّاب ومن على شاكلتهم ممن طرق هذا الباب من الانتقاد، الا من الذين في غريزتهم حب الانتقاد، غير انهم لو لم تتيسر لهم اسباب البحث والتفتيش والمراقبة، وهي تلك المهرجانات الملكية، والمجالس المتعددة، التي كانت تضم مختلف اكابر الهيئة الاجتماعية في باريس قاعدة العمران البشري في القرن السابع عشر، ومحط رجال العظمة والترف والبذخ، ومعدن الازيآء بل مجمع العلم والفن والجمال، ولو لم يكن لهم ذلك الملك الملقب بالشمس ذو النفس السامية والهمة العالية سنداً وعوناً، شملهم بعطفه واقباله واستحسانه واحسانه، واحتذى مثاله سائر آل بيته واشراف المملكة، لما بلغ فن النقد هذه المنزلة التي نراها اليوم من البراعة والاتقان، واضف الى كل ما ذكرناه من البواعث والعوامل التي اعلت مقام هذين الفنين، المجامع العلمية والمجالس الادبية التي كان لها حظ رفيع في اكثر قصور الامرآء ومنازل الاشراف، اذ كانوا يتسابقون الى دعوة الادباء والشعرآء والمتفننين، يوماً في الاسبوع وبعضهم مرة في نصف الشهر وغيرهم مرة في كل شهر، لتمضية ساعات طويلة مع اقربآء صاحب الدعوة واصدقائه، في مساجلات ادبية ومفاكهات شعرية وانتقادية وابحاث في الفنون

او عبوس ، او قنوط او سرور او انقباض او تقلّص او رَجَفان او رعدة تعتري بعضهم لمفاجأة شخص يكرهون ان يراهم او يخشون ان يقف على امرٍ يكتمونه او عدوٍّ او حاسد الى غير ذلك مما لا يمكن انتقاده او مراقبته ، الا في مثل هذه الحفلات ، ولعل موليير ولافونتين وبوالو وغيرهم من شعرآء الملك والنقادين كانوا يتخذون من هذه المحافل وغيرها ـ مما كان ينتظم عند الامرآء والاشراف ـ وسائل المراقبة واستراق السمع لما يدور بين بعض النسآء والرجال من الاشراف الذين لم ينالوا حظ الهضم في ذوق الملك ، فألفوا الروايات والقصائد البديعة الانتقادية وانشدوها او مثلوها بحضرة الملك لمسرّته وتسليته ،كالتي عنوانها : المتصنعات المضحكات ، والنسآء العالمات ، ومدرسة الازواج ـ وغير ذلك الى لافونتين وبوالوْ وسواهم ، ثم لما راقت في اعين اهل الذوق والادب ، جرى من بعد هولآء مَن تبعهم من الشعراء والكتّاب على اثارهم ، ولم يزل هذا الفن يزداد تحسيناً وكمالاً ، حتى وصل الى ما وصل اليه اليوم من تنوع المعارف وشرف الغاية في البحث عن ادب النفس ، وتعليل اسباب احداثها وعواطفها واهوآئها ، اما لطبيعة البلاد او لآثار الوراثة ، او لعوامل البيئة او التربية او العشرة ، او احوال الترف والنعيم ، او الفقر والجهل او الاختلال في

يفرغ هذا حتى يجول المدعوون حول موائد الشراب والفواكه والابازير والانواع العديدة من الوان الحلاوى الملوكية، يدورون ازواجاً وقد تأبط ساعد كل غانية رجل من ذوي قرباها او معارفها ثم يروحون ويجيئون في تلك الرحاب والابهاء، وكل زوج يتكلم بحديث، اما حديث وداد او عتاب، او حديث انتقاد او اغتياب، وهم يُعَدّون بالمئات، ومنهم وقوف ومنهم قعود، من مكتهلاتٍ وكهول وعجائز وشيوخ، وكلهم يتطايبون ويتباسطون، او يتمازحون ويتفاكهون، ويتناظرون حسب اهوآئهم واذواقهم، وفي مثل هذه الليالي الحافلة بالزينات، المزدحمة فيها اقدام اكابر الناس ولُبابهم، وبين الرقص والموسيقى والاغاني والشعر وانواع الاحاديث والتسارر، مجال تسترق فيه اذان الناقدين واعينهم ضروباً من الالفاظ وانصاف الالفاظ والاشارات والملامح التي تفضحها الاحداث النفسانية في اصحابها، ما قد يَمرُّ عمر الانسان ولا تتيسر فرصة يختبر فيها المراقبون طباع المنقودين مثلها، باختلاسهم الاشارات والنظرات والكلمات لعجز بعض النفوس عن كتمان حسدها او غيرتها او ألمها او غرورها او انخداعها او غير ذلك من عواطفها، فتبوح لمن بجانبها من صواحباتها او معارفها او اصدقآئها، او يفشي ذلك اسارير وجوه اصحابها بما ينبيء عن غيظ

ذلك الاثاث الانيق وتطريزه ، ونقوش تلك السقوف وتصاويرها وألوانها وما يخالطها من بريق الذهب الابريز السكب ، والانوار المتألقة من الوف الشموع المعلقة حيثما توجه البصر ، تتضاعف احادها بانعكاسها على الواح هاتيك المرآئي النقية العظيمة ، ثم خفض الطرف بعد الدهشة البالغة فعاين حلقات الرقص تدور ، كما تدور في افلاكها البدور ، فمن اشمُلٍ مسكَت بالايمُن ومن سواعد أُلفَّت على الخصور ، وقامات تتوارى حياءً منهن غصون البان ، وتسجد لتمايل اعطافهن قُضُب الخيزران ، تردّين بغلائل كانها نُسجت من بُخار الماءِ ، فشفّتْ عن اجسام كانها كُوّنَتْ من عنصر الهواء ،

حِسانُ التثني يَنقش الوشيُ مثلَهُ اذا مِسنَ في اجسامِهنَّ النواعمِ
ويبسمنَّ عن درٍّ تقلدن مثلَهُ كأنَّ التراقي وُشّحت بالمباسمِ

ينقلن ارجلهن على وقع الالحان وضرب الاوتار وكأنهنَّ المراد بقول الشاعر

وراقصٍ مثلِ غصنِ البانِ قامتُهُ تَكادُ تذهبُ روحي في تنقّلهِ
لا تستقرُّ لهُ فوقَ الثرى قدمٌ كأنَّ نيرانَ قلبي تحتَ ارجلهِ

ولا تكاد تنتهي نوبة الرقص حتى ينهض احد الشعراء كموليير او راصين او كورنيل او بوالو ، فينشد قصيدة من شعره ، ولا يكاد

عدا المَنح والانعام التي كانت تسبغها عليهم الملكة والاميرات والامرآء من آل البيت الملكي ، ودانت لصولته البلاد ، وامنت السبل ، واخصبت الزراعات وراجت التجارات لوفور عنايته بهما وكثرت الاموال بين ايدي الخلق لتوالي الفتوح في حروبه وقامت الافراح وتوالت الزينات والاعياد والمواسم والمهرجانات ولاسيما الاحتفالات التي كانت تنظم في قصور الملك في باريس وكانت تجمع ربّات الملاحة والحسن واميرات العقل والدلال ، وكل امرآء فرنسا ونبلائها والشعرآء والعلمآء والفلاسفة والنقادين واعيان باريس وكل ذي مقام سام ولاسيما سفرآء الدول ، وكان يقصد باريس لتلك المهرجانات الملوكية كثير من الامرآء والاشراف من الامم المجاورة فرنسا ، اذ كان يعقب ما ينتظم في القصور الملكية كثير من الاحتفالات الانيقة في قصور الامرآء والوزرآء والاشراف في باريس يُدعى اليها كثيرون ممن يُدعَون الى المهرجانات الملكية ، واذ ظلت باريس في تلك الحقبة من الدهر - ١٦٥٨ الى ١٦٧٠ اي في اوائل شباب لويس الرابع عشر الملقب بالشمس - جنّة الدنيا وعرس الزمان ، وكان زائر تلك القصور في تلك الليالي البهيجة اذا تقدم في ساحاتها وتنقّل في باحاتها ثم ارسل رائد طرفه في مجال تلك الابهآء المترامية الاطراف ، وتأمل في بدائع تلك التصاوير وترقيش

واساس فن الروايات وعماده هو المراقبة ، اي مراقبة المؤلف اخلاق البشر ، لينبش عواطفهم واسرار نفوسهم في حالات الرضى والغضب ، او الحب والبغض ، او الحزن والسرور ، او سعة الصدر وضيقه ، الى غير ذلك من كثير الحالات التي تختلف باختلافها الاحداث النفسانية في الجنسين من النوع الانساني ، ولاسبيل لادراك هذا الغرض الا بالمصاحبة والاجتماع والمعاشرة مع مختلف الطبقات المتمدنة ، ولايتيسر ذلك الا في الامصار التي استبحر فيها العمران والترف والغنى وسائر اسباب اللهو والسرور ، وتوفرت فيها الاجتماعات والمحافل ومجامع العلم والشعر وسائر الفنون البديعة ، وهذا كله يندران يجتمع في غير العواصم العظيمة التي هي دور الممالك والجمهوريات . واكثر ما كان يُرى من ذلك لدى مشاهير الملوك الذين غلب في طباعهم حب العلوم فجادوا على العلمآء ونشّطوا القائمين باسباب المعارف وساعدوا اهل التعليم ، ولم يقم في الممالك الاروبية كلها من عظماء الملوك الى القرن السابع عشر ، مَن حاكى لويس الرابع عشر ملك فرنسا في ذلك ، فاجتمع حول عرشه عصابة من الشعراء والعلماء والمؤرخين والفلاسفة والنقادين والمتفننين النوابغ ما لم يجتمع مثله في عصر من العصور ، فرتب لاكثرهم وظائف يقبضونها من خزانة الدولة في كل شهر ،

الوصول الى جلائهِ من الغوامض الطبيعية الى غير ذلك من شتى التحقيقات ، وفيها ما يلهو بهِ الكبار ، ويهذب الصغار ، ويرشد الى الطريق القويم من ادب النفس للنوعين ، اذ قلما تجد عند الورّاقين ـ باعة الكتب ـ كتاباً من هذا الفن لا يليق ان يوجد في خدر العذراء . وعلى الجملة فقد جعلوا فن الروايات خزانة العلم الانساني .

الباب الرابع

في مادة فن الروايات

ذكرنا في الباب المتقدم ما كان لفن الروايات عند الامم الافرنجية من التأثير العظيم في تشعب العلوم الادبية ، وقلنا ان فن الروايات لم يبلغ مستواهُ الرفيع الا منذ اول القرن التاسع عشر وانهُ لم يُعرف عندهم قبل القرن السابع عشر او السادس عشر .

ومن المعلوم ان الفنون الجميلة ومثلها سائر المعارف ، هي كجميع الصناعات البشرية ، لا تنتقل في مراتب النمو ما لم تتهيأ لها البيئة الصالحة ، ولا ترتقي في درجات الاحسان وتبلغ مقامات الكمال ما لم تتعهدها ايدي الجد والاتقان وتحوطها عناية الرجل النبيه الحاذق بتسهيل الوسائل الموصلة الى النجاح المطلوب .

من ثمرة هذا التخصص شهرة الكاتب بالفرع الذي اجاد فيه .

وقد يرى المؤلف ان يدمج القصة في رواية واقعة تاريخية او بعض تلك الواقعة يعلل بها الاسباب النفسية التي كانت السبب لوقوعها مما قد لم يكن تنبّه لهُ مؤرّخ قبله، او انهُ يكون مما استنبطهُ المؤلف وفيه من شبه ما يحدث في العالم على تقادم الدهر ، ما يجعله قرين التصديق ، غير بعيد عن الحقائق المعروفة .

وقس على ما وصفناهُ من فن الروايات ، فن الكتابة في مجلاتهم في هذه وتلك يتكلم الكاتب بلسانه او بلسان من صور تهم قريحته بما توحيه اليهم افكارهم فينطقون بما يشعرون غير هيّابين ، ولا مترددين ، فان قضت احكام ضمائرهم بجور الحاكم ، او خور القائد او جبن الجندي او فساد التدبير او رعونة السياسة او تخطئة عالم او كاتب الى غير ذلك من حسنات المدنية وسيئآتها ، اطلقوا لاقلامهم اعنّتها وبسطوا ألسنة المقال انتقاداً وتفنيداً او تغليطاً لا يمتنعون الا عن الشتم والطعن المعيب .

اما فوائد هذا الفن بعد الذي عدّدناه ، فانها لعموم الناس تسلية تلهو بها الخواطر ، وللعقلاء لذة تتغذى بها العقول ، ولاهل الظرف والادب فكاهة ، وللعلماء مجال للاستبصار والاعتبار في دقائق الحس واختلاف تأثيراتها في النفوس البشرية ، وما يمكن

المشهور من لزوم تجنبهِ او تعلّمه ، الى ما لا يحصى من حالات ادب النفس واختلاف عواطفها ، وغرائب الشذوذ فيها ، واثرها باختلاف الاصول والتربية والتعليم والقدوة والصحبة والبيئة والصحة والضعف والظروف حتى اختلاف ساعات النهار والليل ، وتأثير الحر والبرد والجوع والشبع والشمس او المطر او الغيوم المتلبدة ، في الاشخاص المحكي عنهم في الرواية ، ويتخلل ذلك كله اشياء من دقة الوصف والحذر وحسن التعبير وسهولة التفهيم وتصوير حالات النفس في سائر مظاهرها مما لا يفيهِ حقه الا الراسخون في هذا الفن .

ولما تخصص لكل فرع من هذه الفروع طائفة من اكابر كتّاب كل امة من اممهم ، فاتخذه لهُ صناعةً لا يعاني سواه ، ورأى ان يتعهده مدارسةً ومراقبةً وتفتيشاً خدمةً للعلم والتذاذاً بالتحصيل ليأتي على غاية ما تشعر بهِ النفوس باختلاف الاشخاص من النوعين ، من الحزن او الفرح ، والبغض او الود ، والجسارة او الجبن ، والحقد او سلامة الصدر ، والانجذاب او النفور الى كثير سوى ما ذكر ، وعلى التأثير الذي يحدثه كل عارض من هذه الاعراض على اختلاف مراتب اصحاب تلك النفوس من الاصل والتربية والصحة والمزاج والسن والعلم والبيئة والعشرة ، فكان

في ادب بعض النفوس السامية وما تشعر بهِ من الالم اذ ترى عجزها عن كشف مظلمة او دفع جور او انقيادها لخداع مكّار احسنت بهِ الظن ، بل تجد من هولاء الكتاب مَن يصوّر تأثير الخشونة وحدها في بعض النفوس المهذبة كألم لسع عقرب او طعنة خنجر ، الى الوف من حالات دقائق الحس وانواعهِ بين الألم واللذة او الفرح والحزن الى غير ذلك فتعددت ابواب فن الروايات بتعدد الاغراض التي اتخذها كتّابها البارعون ، فمنهم من رأى ان يقصر تحقيقه على حذق الفِراسة او الحدس في بعض الناس ، فجعل بطل روايته متجسساً او رقيباً ، وآخر رأى ان يجمع في تدقيقهِ تأثير عشير السوء وعدواه ولا سيما في نفوس الصغار والفتيان ، وتفرّع من هذه الابواب فروع كثيرة ، فمنها ما قصروه على الجرائم بانواعها ورتبها من افظعها الى اخفها شراً ، ومنها ما قصروه على غرائب الخبث في بعض النفوس ، ومنها ما وصفوا فيها وصوّروا ابدع المزايا والفضائل البشرية ، ومنها ما خصوا بهِ بعض الرجال ببعض الصفات من حسنة او قبيحة او انها اغلب فيهم من النساء ، ومنها بالعكس ما غلبوها على النساء ، ومنها ما غلب في احد النوعين وندر في الثاني ، ومنها ما نسبوه لخبث الاصول ، ومنها ما اثبتوه في زكاء الاصول مع ندورة شذوذه ، ومنها ما اثبتوا بهِ عكس

يكتب كما يشتهي ويحب ، ليس كمن يكتب مأموراً او مأجوراً ، فان من القرائح ما لا يجيد الا بضرب واحدٍ من الفنون ، كأن لا يحسن الكاتب الا تصوير الوقائع المخيفة او المحزنة ، فاذا كتب في حوادث الغرام ساقه ميلهُ وذوقه الى ان لا يذكر فراقاً غير مصحوب بالنوح والبكاء ، ولا لقاء الا والدمع يرافقهُ خشية البين او الموت ، واذا ذكر حادثة سرور لا يحسن سردها ولا تفصيلها ، وقد لا تصدّق انه نفس كاتب الرسالة الفلانية او الكاتب الفلاني الذي صوّر به غرق السفينة الفلانية او الحريق اذ اتى بهِ على ادق واخفى ما يظن او يُقال في ذلك الحدَث ووصف هول تلك المواقف ، وما عَرَض للشيوخ والاطفال والنساء من الجزع واليأس او شجاعة بعض الرجال ، او تغلب الرجاء او التقلب بين هذه الحالات والنزاع والفزع والمغالبة بين الموت والحياة واصوات المستغيثين وشهقات اليائسين وزفير النزع ومشهد الغرق والتطام الامواج واحتراق ذلك الجمع ، حتى تكاد تزهق روح القاريء من هول ذلك التفصيل والتصوير ، وبعكس هذا كاتب لا يحسن غير الزهريات والمسرات ، وسواه لا يُبارى في وصف احساس النساء ودقة شعورهن ، وغيره في قراءة خواطرهن ، وآخر في وصف بعض النفوس الشريرة ومدى ميلها الى الرذيلة ، وسواه

لم يظهر عندهم بمظهر استرعى اسماع الادباء، واستدعى انتباه الحُذّاق من اهل الفضل والحكماء، الا في اوائل القرن التاسع عشر، ومنذ يومئذٍ شمّر لهذا الفن جماعة من بلغاء كتّابهم، وعرفوا ما فيهِ من فسيح المجال لسوابق الافكار ومن بعيد المدى لتصوير الاحداث النفسانية والاهوآء الانسانية وما يتبطن ذلك من البحث عن العلل والاسباب، وما ينبعث عنها من دِراسة الطباع البشرية، وفي كل بحث من هذه الابحاث العديدة، شغلٌ بعيد الغور للكاتب الالمعي والطبيب النطاسي والمؤرخ الفطِن والمربّي البصير والحكيم المدقق والمتجسس المهذب والرقيب المتأدب الى غيرهم من رؤساء الجماعات وعرفاء الطوائف من ذوي الفطانة والذكاء وممن اوتوا حظاً من العلم ونصيباً من صناعة الانشاء، وعند ذلك رأى البارعون من كتّاب القرن الاخير ان يختار كل كاتب منهم الفنَّ الذي يرى نفسه اليه اميل وتبحّره فيه اوفر فيؤلف روايته ويجعل نتيجة بحثه فيها، الموضوع الذي توجه اليه تفتيشهُ وعلمهُ وخصص لهُ اجتهاده، لا يقف في سبيل ذلك تعدد اشخاص الرواية او قلّتهم، او اختلاف الحكاية التي يبني عليها الموضوع او غير ذلك اذ على المؤلف ان يرتق الفتق وان يصل المقطوع.

ومن المعلوم ان من يغني للذّته، ليس كمن يغني لاجرته، ومن

تأليف فينيلون الاسقف المشهو لتهذيب تلميذهِ وهو الذي رقي الى عرش الملك في فرنسا باسم لويس الخامس عشر ، وعندنا من هذا الباب مقامات الحريري لكنهُ ينطوي على حكايات مُلهية في ظاهرها وتتضمن شيئاً كثيراً من اداب الفصاحة والبيان ، ولكنها لا تنطوي على بيان شيء من ادب النفس او الالمام بعادات القوم لعصره الا شيئاً ضئيلاً جداً ، ثم عندنا كتاب الف ليلة وليلة وهو اشهر من الصبح لكنهُ ليس في شيء من فن الروايات الآتي تعريفه وانما هو حكايات ألّفها مجهول او رجل يسمى الشيخ يوسف بامر احد حكام مصر ـ وقد يكون من الايوبيين(١)ـ في حَدَث معيب ظهر في بيته وتناقله الناس ، فاوعز الى الشيخ يوسف ان يلهي الناس عن الخوض فيهِ ، واذا كان في كتاب الف ليلة وليلة شيء من فن الروايات او من ادب النفس ، فهو ان الاداب في ذلك العهد كانت في احط الدرجات ، اذ في الكتاب من الفحش والاقدام على الرذيلة ما يجب ان يُمحى خياله من كل بيت يحصّنه اهله بادب النفس .

وفن الروايات لم يكن معروفاً عند اليونان ولم يُعرف في اروبا الا في القرن السابع عشر وقيل بل السادس عشر ، على انهُ

(١) اذ في بعض الحوادث التي يذكرها ما يدلُّ على انهُ لم يتقدم ازمانهم .

على ان النقد الادبي لم يتسع لهُ المجال ولم يُحسن الناقدون التبسط في القول الا منذ بداية القرن التاسع عشر وذلك بانتشار فن الروايات وفن المجلات ، اذ اتخذ الفن الادبي فن ادب النفس مستقراً لهُ ، بل مسارح في هاتين المملكتين بل العالمين عالم الروايات وعالم المجلات ، لكنهُ لم يصل الى هذه الدرجة من التدقيق والتفنن والاتقان الا في النصف الثاني من القرن الاخير ، حتى ليستطيع الاديب ان يقول اليوم ان فن الروايات او فن ادب النفس قد بلغ عندهم ولاسيما في فرنسا حد الكمال، ان كان للعلم حدٌّ كمال .

الباب الثالث

في فن الروايات

هذا الفن لم يعرفهُ العرب ولكنهم عرفوا شيئاً من الفن القصصي ، واقدم كتاب ظهر عندهم منهُ هو كتاب كليلة ودمنة تعريب ابن المقفع وهو مشهور وكلهُ حكايات على ألسنة الحيوان، الا ان مراد مؤلفهِ منهُ وعظ ونصح احد ملوك الهند من عهد اسكندر المكدوني وهو في موضوعه وغرضه وبلاغته فوق ان يحيط به تقريظٌ وكفى بهِ تعريفاً انهُ من افصح ما وجدنا لابن المقفع وهو امير كتّاب العرب . ومن هذا الباب حكاية تليماك

لعلم النفس.

وانت ترى من هذه اللمحة الاجمالية ما للناقد البصير من المجال الواسع في تحليل كلام المؤلف وبيان ما اجاد فيه او قصّر من وصف افعال الحواس ودقائق الشعور واخفى حركات النفوس في حالاتها المتباينة من سرور وحزن او صحة ومرض، وهناء وشقاء وعداوة وصدق، وغضبٍ وحلم الى شيء كثير مما يعرض لعموم الانسان وفي سائر ادوار الحياة، من ارقى البشر مدنيةً وعلماً الى احطهم بربريةً وجهلاً، وذلك ببرهانات ودلائل وحجج وشهادات للفلاسفة والعلماء والنقاد والاطباء وغيرهم، ومن قرائن العادات القومية، او الحوادث الطبيعية، لما يمكن ان يخالف بهِ الناقد ما رواهُ المؤلف او قصّر فيهِ، او تفصيل دقته واصابته الغرض او براعته في التعبير، اذ لكل حالة من حالات الانسان اليومية شؤون تستدعي اقصى التبصر في الوصف والشرح.

ومن المعلوم انهُ لا يُقبل عند علمائهم في الغرب قول أُلقي على عواهنه، ولا يُحتَفَل بتقريظ غير مصحوب بحجة واضحة ادبية، وعلى الجملة فلا رشوة عندهم في سبيل حقائق الادب. ولا تُقبل في ديوان احكامه شفاعة صداقةٍ او شهرةٍ او علو مرتبةٍ او وحدة وطن او غير ذلك مهما بلغت منزلة الناقد او المنقود.

وكثرة المعارف التي يستعين بها الناقد الالمعي على استخراج ما في الصدور من وراء السطور، حتى تحسبه يفكك الطلاسم ويستقصي في حل الرموز العويصة وايضاح المعمّيات، ولقد تحسب نفسك وانت تقرأ انتقاده كأنك سائراً مع نديم اديبٍ المعيّ في جنّاتٍ تعبق بها الازهار، وهو يعرّضك لنفحاتٍ من العطور تحت ظلال الاشجار، وينقّلك فيمرّ بك على جسور عُقدت فوق الانهار، ليسمعك غناء البلابل والعنادل، او خرير سَكورٍ وحياض وجداول، ويستوقفك حيناً لتتمتع من اعطر شميم، وحيناً لتتنسّم الطف واطيب نسيم، وآونةً لمشاهدة ابدع منظر وسيم، حتى انتخال انك معهُ في عالم آخر بل في نعيم مقيم.

وهو لا يتعرض في الغالب لمنزلة انشاء الكاتب من البلاغة ولاسيما اذا كان من ذوي الشهرة في علم الادب، ولا لاطالة الجمل او اختصارها ولا لاغلاطهِ ان كان ثمت اغلاط، فهذه كلها من باب النقد العلمي والبياني، وقد يجمل ذلك كله ببضعة اسطر ينبّه المطالع على ما كان يليق ان يُكتب في ذلك الباب، وعلى انهُ – اي الناقد – لم يفتهُ ذلك، لان الغرض الاول من النقد الادبي هو البحث عن المعاني وحقائق الرواية، او ما يلبسها ثوب الحقيقة، وهي افعال النفس واثار الحس في الانسان كما تقدم القول خدمةً

او التخلق عناية ظاهرة متوالية في اكثر شؤونه ، بل يهون عليه الوصول الى بغيته هذه او امنيته ، ما لا يهون على سواه من غير الانانيين - وان هذه المحبة او الرغبة هي الميل الى التقرب والاستئناس بالشخص المحبوب لان علاقة الحب هي ، في الجملة ، الفة واستئناس وسرور ، اما النفور l'antipathie فهو كراهة واستيحاش واشمئزاز ، فهما ضدان لا يجتمعان .

ومع كل ما تقدم بسطه من امتناع الجمع بين قلبين متضادين ، تجد راوي الرواية يدعم ما يرويه عن بطلي روايته ، بحجج طبيعية ، وبرهانات طبية ، وشواهد فلسفية ، وعلل لا يأباها المنطق ، وكل ذلك ليقنع القاريء ان هذا العطف وهو العامل الايجابي من احد الشخصين ، وذاك النفور وهو العامل السلبي من الشخص الثاني ، يجتمعان برغم القاعدة العامة المشهورة وهي ان الضدين لا يجتمعان او لا يمتزجان .

وفي هذا البحث وامثاله مجال لنقد الناقد الادبي ، فاما ان يفنّد براهين الكاتب او ان يفسد بعض ما يحسبه السبب او العلة في ذلك السر ، او ان يدل على ما خفي عليه من الاسباب الطبيعية او العارضة كالالفة والجوار ، او الموانع الخلقية الى غير ذلك مما يطول تعداده من براعة البحث والنقد وشواهد الفطنة والتدقيق وسعة الاطلاع

فالبعضُ قال الحسنُ سِرٌّ غامضٌ　　والحبُّ في الاجمال لن يتحدّدا
والبعضُ قد عشق الجمالَ مجرّداً　　ويراهُ بعضٌ ان يكون مقيّدا
وراهُ قومٌ إلفةً تدعو الى اسـ　　ـتحسانِ ما عاينتَهُ متردّدا
والبعض قد زعم الزمان قضيةً　　عَرَضيةً وعلى المقال استشهدا
فلقد يكون عقيب سهمٍ صائبٍ　　من مقلةٍ قد كان فيها مُغمَدا
ولقد يكون لِكلمةٍ وقعت بإذ　　نِكَ فاغتدى منها الفوادُ مصفّدا
ولقد يكون بغير ذلك هكذا　　قد قال بعضُ أُلي الرجاحةِ والهدى

وعلى الجملة فاننا نرى كل يوم عكس ما تقدم ايضاً وهو ان يقع النفور l'antipathie بين الشخصين لاول وهلةٍ في الغالب بل لنظرةٍ في الطريق لم تسبقها معرفة بينهما وهذا ما يُرى في كثير من الحيوان والجوامد كتنافر الملح والمغنيسيا ، والكبريت والحجر ، والزيت والماء والذئب والغنم والهر والفأرة والحية والارنب وغيره كثير .

اما القائلون بالانانية فانهم يؤسسون رأيهم هذا على أنّ الانانيّ يحب ان يجذب الى شخصهِ حمد الناس ومحبتهم والتحدث بمزاياه ـ وفي الحقيقة ان هذا الحب او التمني غير محصور في ذوي الانانية ، بل هو عامّ في الانسان ، الا ان الانانيّ يتخذ لهذا الميل

هي شعورٌ او ميل قلبي او احساسٌ غريزي يدفع المرءَ الى حب شخص آخر، وهذا الميل نتيجة استحسان المحبوب، وهذا الاستحسان يراهُ بعض الفلاسفة منبعثاً من حب التشبّه او التقليد ولا يكون ذلك الا لما يراهُ المحب في شخص المحبوب مما يشبههُ او انهُ يحسبهُ كذلك، ويُستَخلَصُ من ذلك اننا بميلنا الى انسان نحسبهُ يشبهنا في شيء من الخلَق او الاخلاق انما نحب انفسنا، وتلك هي الانانيّة، وقال آخرون ان العشرة واتفاق الطباع، عامل قويّ سريع لايجاد هذه العلاقة، الّا انهُ وان كان غير مُستَنكَر هذا السبب فقد تحدث كثيراً عرى: الحب la sympathie دون عشرة ولا علم سابق بطباع الشخص المحبوب بل لاول نظرةٍ ولله درُّ فيلسوف الشعراء

لهوى النفوسِ سريرةٌ لا تُعلَمُ　　　عَرَضاً نظرتُ وخلتُ اني اسلمُ

ولما كان الشيء بالشيء يذكر فلا بأس من ايراد ابيات بالمعنى المتقدم من قصيدة لنا على طريقة المتصوفة كنا بعثنا بها الى احد اكابرهم.

. . . .

ما كلُّ حسنٍ جاذبٍ اهل النُهى　　　فالخلفُ فيه لم يزل متجدّدا

اذ لا يُخَصّ بصورة محدودةٍ　　　بل بالصفاتِ وجودهُ لن يُجحَدا

نتيجة نقد ناقد الكتاب والتمثيل ، ومقامه في عالم الادب والنقد .

ولست تجهل ان الشرط الاول من قانون كل علمٍ ان لا يتعرض الاديب او الناقد للكتابة ما لم يكن على تبصرةٍ من ذلك العلم .

ولكي نقرب الطريق على المستفيد نأتي بمثال لما يتوجب على الناقد توخِيّه واستخلاصه واستنتاجه مما انتقد ، ونرجو ان يقف منهُ على روح النقد الادبي وعلى ما فيه من مزيد الفائدة وجزيل اللذة.

من المعلوم ان الحبَّ اعمّ شيء اشترك فيه هذا المخلوق الناطق بل وغير الناطق في كل بقعة من بقاع الارض على اختلاف الالوان واللغات والحضارة وانواع الخشونة الجاهلية والبربرية والهمجية منذ اوائل الاجتماع البشري ، ولذلك فقلما تخلو رواية من حكاية حب او غرام وان كان موضوعها بعيداً كل البعد عن ذلك.

اورد احدهم في روايته علاقة حبٍ بين فتىً وفتاة زعم ان احدهما شغف بالثاني وان هذا تظاهر بالحب وفي باطنهِ نفور ، وظلا كذلك مدة غير قصيرة ، وذلك مما يخالف احكام المحبة وسننها في الطبيعة ، ومن المعلوم ان المحبة ضرب من ضروب الجاذبية ، اذ علاقة الحب la sympathie تقتضي ايجاباً من الشخصين ، لان تقرّباً وائتلافاً من احد القلبين ، ونفوراً وتراجعاً من ثانيهما مخالف للمعلوم والمعقول ، وانت تعلم ان علاقة الحب

البحر الزاخر بهذا الفن عند الامم الاروبية ، ولا سيما عند الفرنسويين ، وغاص على اصناف لآلئه حتى يستطيع ان يتبين الاحسن من الحسن ، وامكنه بعد ذلك ان يؤلف في العربية ما يحقق للناقد ان ملكة هذا الفن متمكنة منه ، فحينئذٍ يفسح للناقد البصير مجال قولٍ وصول ، اما الفنون المعبّر عنها في الغرب : بالفنون الادبية : فأكثر ما نراها مجموعة ومفصّلة في فن الروايات[١].

ويجد فن النقد مادة غزيرة ايضاً في المباحث الاجتماعية والمقالات الفنية التي ينشرها كبار الكتّاب في فن التصوير وفن الموسيقى وسائر الفنون الجميلة على صفحات مجلاتهم ، ولهذا السبب تجرّد للنقد عند كل امة من الامم الغربية ولاسيما عند الفرنسويين طائفة من اكابر كتابهم وعلمائهم وفي رأسهم سانت بوف وتاين وبرونتيير واناتول فرانس وسواهم كثيرون من اهل القرن التاسع عشر ، حتى انه قلما خلت صحيفة من صحفهم من مقالة انتقادية في كل اسبوع ، واما المجلات الشهرية والاسبوعية فلا يخلو عدد منها من الابحاث الانتقادية ، ويتوقف رواج او كساد اكثر الروايات والكتب وما يُمثّل على المسارح في الملاعب ودور التمثيل ، على

(١) اما ما وقع الينا من الروايات المؤلفة في سوريا ومصر منذ نصف قرن الى اليوم فليست في شيء من الفن الذي نحن في صدده .

وقد يعنّ لغرّ جاهل او حسود متجاهل ان ينسب اليّ الطعن على القوم كأنهُ يزعم ان قولنا الشمس يعتريها الكسوف والقمر يصحبه الخسوف قدح فيهما ، والعاقل يعلم ان ليس على قائل الصدق من حرج ، وان الامة التي ادركت تلك المنزلة السامية من المجد والعلم لم تعد اليوم تلك الامة ـ وكم تقلبتِ الايامُ والدولُ ـ وليس صديقك من كذبك بالمدح بل صديقك من اخلص لك النصح ، ونحن في عصر يطير اهلهُ في الغرب ـ بل اربابه ـ على متن الريح فلا يليق بنا ان نعود القهقرى الى الفي سنةٍ ونفاخر بالابل والنجائب ، وهم في كل يوم يُروننا عجيبة بل عجائب ، فمن تأخر في السباق جوزي بالاهمال ، والاهمال هلاك ودثور ولله در القائل

انفوا المؤذّن من بلادكمو ان كان يُنفى كلُّ مَن صدقا

الباب الثانى

في النقد الادبي

ان المادة الحقيقية التي يأخذ منها النقد الادبي عناصر حياتهِ ويشتمل تركيبه ونموه ، هي اداب النفس ، وحرية البحث ، فحيثما وجدت هذه المادة مصورة بقلم اديب او متفننٍ اطلع على كنوز

تشعر بما تشعر بهِ المرأة التي هي واثقة من حريتها الادبية ، والتي تعلم انها نصف الاسرة ونصف المجتمع وربّة البيت وامّ الاولاد القائمة بالتربية الادبية الحقيقية فضلاً عن التربية البدنية ؟ وهب انها بعد كل تلك الحياة الاستعبادية ، لم يزل فيها شعور لكثير من الاشياء ، فهل يصدّق عاقل ان من كان ذاك شأنها تبوح بشيء من قوى نفسها لزوجها او لاخيها او انها تبدي لهما ما يشفّ عنها ؟ وهل يستطيع افرس العقلاء ان يبني من مراقبتهِ عواطفها حكماً صادقاً او شبه حكم ؟ وجملة القول كيف يمكن مَن لا يملك سوى نصف العلم ان يكتب شيئاً في ذلك العلم ؟ وللاسباب المتقدمة نرى ان العلوم الادبية بالمعنى المفهوم في الفرنسوية لا يستطيع ان يكتب فيها او يتقدم لانتقادها عربي من ابناء هذا العصر ، وانما اذا توفق المجتهدون في باب الاجتهاد الى ازالة العراقيل التي تصدهم عن بلوغ سبل المدنية العصرية ، فيومئذٍ يمهّدون لانفسهم طريق الوصول الى هذه الغاية السامية التي تُطلَب منهم قبل مطالبتهم بالوظائف في الحكومات ، وهي احوال عرضية افرادية لا تخدم الامة الخدمة الصحيحة ، فلا ملك ولا حكومة ولا حرية ولا وطنية صادقة ، دون علم متين وتربية خالية من الشوائب تنتشر بين العامة وادب نفس قويم .

تفهم الاشياء العظيمة ، ولهذا السبب لا يُرى بيننا امرأة واحدة تحلّت بفضائل ادبية ومزايا علمية ، فان حياتهن تتقضى كحياة النبات ، وهنَّ انفسهنَّ عيال على ازواجهن ، ولهذا السبب تجد الشقاء يبتلع بلادنا ، لان النساء فيها ضعف الرجال عدداً ولا يستطعنَ ان يحصلنَ بعملهنَ على مطلب حياتهن .

هذا ما يقولهُ ذلك الفيلسوف في الاندلس وكانوا جيران النصارى منذ سبعمائة وخمسين سنة وفيه عبرة وذكرى لمن كان لهُ قلبٌ او القى السمع وهو شهيد .

فان كان لم يزل هذا شأنهم في هذا القرن العشرين قرن النور ، قرن الكهرباء ، فهل يستطيعون ان يجاروا معاصريهم الافرنج في اكثر المعارف ولا سيما في العلوم الادبية اي ادب النفس ؟ وهل يستطيعون وهم في حالة تفرّد الرجال بالاجتماعات والمخالطة والمعاشرة ، ان يبلغوا من هذا العلم مهما كان المتفرّغ لهُ نبيهاً ذكياً عاقلاً ، الا نصف العلم ، اذ انهُ يجهل كل شيء من ادب نفس الانثى ، وقد يعترض المستعجل فيقول أليس عند الرجل منا امرأته او امه او اخواته ؟ والجواب هين ، فهل يجهل عاقل ان المرأة التي تتقضى حياتها على ما اسلفنا بيانه من السجون والتربية يُمتنع عليها ان

بمجالستهنَّ في مجتمعاتهم حتى بين الاقارب ، لم يكن لهم هناك مجتمع متمدن في العرف المشهور العصري . قال احد علماء ادب النفس ان الانسان لا يُعدّ انساناً تاماً الا اذا اتخذ لهُ زوجة ، فاذا كان لا زوجة لهُ عُدَّ نصف انسان .

ومن المعلوم ان المرأة التي هي النصف القائم بحياة النوع الانساني اذا جُعِلَتْ سجينة البيت ، سجينة الحجاب ، سجينة الوحدة او الانزواء ، بعيدة عن كل مجلس يجمع اتمام النوع الانساني - في البدءِ خلقهما ذكراً وانثى - آلةً للايلاد فقط ، فهي لا تصلح بعد ذلك لمجتمع متمدن ، بل هي لا تصلح للتربية ، واذا فسدت تربية الاولاد او لم تكن صالحةً ، فهل تستطيع الاسرة التي ذاك حالها ان تدّعي المدنية الراقية التي تتمتع بها الامم الافرنجية ، بل اقلها علماً وتهذيباً ؟ وعلى الجملة هل يستطيع العرب ان يكذّبوا من يدّعي تخَلَّفهم عن الامم الغربية مراحل طويلة في طرق الحضارة ومحاسنها ؟ قال اكبر فلاسفة المسلمين القاضي ابو الوليد ابن رشد : ان حالتنا الاجتماعية لا يمكن ان تترك سبيلاً لرؤية او معرفة القوى الطبيعية التي في النساء ويظهر من هذا الحال انهنَّ لا يصلحن الا للولادة والارضاع ، وهذه الحالة الاستعبادية قد سلبت منهنَّ

وبالاجمال فان كل ما كتبه العرب في العلوم الادبية بالمعنى الحقيقي الذي ذكرناه آنفاً لا يتعدى نصائح وارشادات في التزام الفضائل ومدحها ، وقدحاً في الرذائل ونهياً عنها ، وهذا لا يمكن نقده البتة لانها حقائق اجمع عليها العقلاء من جميع الامم في سائر العصور للانسان المتمدن اي ساكن المدن ، وما خلا ذلك من كتاباتهم لم يخرج عن طريقة الافرنج في القرون المتوسطة ، وتلك الطريقة تضل الناقد مهما حلّق وانعم وتبحّر في نقده كما ذكرنا في الجزء الاول عن النقد في القرون المتوسطة .

واين من هذه كلها ما كتبه الافرنج في فنٍ بُدىءَ بهِ عندهم منذ القرن السادس عشر لكنهُ لم يصل الى كمالهِ الحقيقي ولم يبلغ مرتبة فوائدهِ السامية ، الا بعد دخولهم القرن التاسع عشر اريد بهِ الفن المعروف عندنا اليوم بفن الروايات كما سيأتي بيانه .

على ان العرب بعد ان قطعوا القرن التاسع عشر كلَّه وثلث القرن العشرين ، ظلوا مكانهم من الغربة عن مملكة العلوم الادبية العصرية .

لانهُ لما كان المجتمع الانساني قائماً على ركنين هما الرجل والمرأة ، وظل العرب ـ اهل المدن ـ ممتنعين عن السماح للنساء

او علم العلوم كما قال دالمبير (ت).

فقد رأينا من مجمل ما تقدم بيانه في اراء فلاسفة العرب وفلاسفة الأفرنج انهم متقاربون في تعريف ادب النفس ، ولا عجب في ذلك فهو مبني على مقالات المعلم الاول في اكثر ما اوردوه ، الاّ ان تحديد ذلك - اي العلوم الادبية - عند الافرنج هو اوضح واكمل واتقن ، شأنهم في جميع العلوم التي مارسوها ، ولاسيما ما تعلق بالنفس وعواطفها وشعورها ونفورها وانجذابها وولوعها وبغضها واستيحاشها واستئناسها وانقيادها وعصيانها واسترسالها واحساسها وعلى الجملة ادق حركاتها واخفى نَزَعاتها مما لا يُحيط بهِ الا التعمق وطول الدراسة في علم النفس او الاحداث النفسانية وهو المسمى عندهم أبسيكولوجي ولهُ شأن عظيم في العلوم الفلسفية كما هو معلوم ، وهذا العلم لم ينظر فيه فلاسفة العرب الاّ من الوجه الطبي بصورةٍ عرَضية ، ومن الوجه الديني اي علاقة النفس بالدين كما كان شأنهم في جميع العلوم ولاسيما علوم الفلسفة ، ومع ذلك كلهِ لم يرضَ عنهم جمهور العلماء وعامّة الأمة وسمّوهم زنادقة وملاحدة وكفّاراً في كل عصر من عصورهم .

وقال دَالَمبير (ت) اداب النفس او اداب الاخلاق يُعَدُّ العلم الأكمل، او هو علم العلوم، لما فيه من الحقائق التي هي مبادئه ولما في تلك الحقائق مما يسحر الألباب. وقال ايضاً ان الاقدمين اجمعوا على ان اداب رسطاليس (مقالاته في الادب) هي اكمل جميع كتبهِ.

وقال ديديروْ ان اداب الاخلاق (او) اداب النفس هي علم الشرائع الطبيعية والمادح والمقابح في المجتمع الانساني.

وقال كمباثيريس ان ادب النفس هو الشعور بالعدل والظلم والخير والشر والصالح والشرّير.

ولا نطيل باكثر من هذا، ومما تقدم ومن مراجعة كتب فلاسفة العرب كالفارابي وابن سينا والغزالي وابن الصائغ المشهور بابن باجه وابن مسكويه وابن رشد، يُفهم ان لفظ ادب النفس وعلى الخصوص لفظ الادب قد عمّموه عندهم وتوسعوا فيهِ حتى ضارع لفظ morale الفرنسوي بجميع معانيه، مع المجازات التي وضعوها لهُ كما يُفهم من عنوانات الكتب التي تقدم ذكرها الى مئات لم نذكرها، فكل هذه الاداب فروع من علم ادب النفس، لانه هو في الحقيقة العلم الانساني كما قال بسكال، او العلم الأكمل

العقل ان يوضع خلافه ، اما ادب الرياضة فهو ما كان محمولاً على حال لا يجوز في العقل ان يكون بخلافها الخ . وهو كلامٌ جدير بالاستبصار ومزيد الاعتبار .

والادب في عرف الفلاسفة هو مجموع قواعد او قوانين يجب على الانسان ان يسير بموجبها ، وبتعريف آخر انها سنَن ادبية ترشد حرية الانسان في جميع احواله الى خطوات او واجبات عليه ومبادلات مع امثاله من البشر ، وغاية هذه السنن ادراك السعادة الدنيوية واخصها تعديل شهوات النفس وزجرها عن المطامع .

وعلى الجملة فالعلوم الأدبية سنن اداب كثيرة تجمعها سنّة ادب النفس .

قال بسكال ان عماد ادب النفس تعويدها على التفكر دائماً بالخير والصلاح ، وقال ايضاً ان علوم الاشياء الكونية لا تشفع عندي في جهلي العلوم الأدبية ، لكن العلوم الأدبية تشفع عندي دائماً في جهلي ما ليس منها . وقال ايضاً ان المبدأ القويم لأدب النفس حبسها عن شهوات الحس . ومن اقواله ان الآداب التي موضوعها تحديد العادات وتقويم الأخلاق هي في الحقيقة علم الانسان او العلم الانساني .

كلها بادب او اداب كقولهم كتاب اداب البحث ، واداب العلم ، واداب السياسة ، واداب النفس، وادب الكاتب ، وادب الغربآء ، واداب الطعام ، واداب الوزرآء ، واداب الملوك ، وغير ذلك كثير جداً .

قال الماوردي الادب ادبان ، ادب مواضعة واصطلاح ، وادب رياضة واستصلاح ، قال فاما ادب المواضعة والاصطلاح فيؤخَذ تقليداً على ما استقر عليهِ اصطلاح العقلاء ، واتفق عليهِ استحسان الادبآء ، وليس لاصطلاحهم على وضعهِ تعليل مستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب ، كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم على هيئات اللباس حتى ان الانسان الان اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانباً للادب مستوجباً للذم ، لان فراق المألوف في العادة ومجانبة ما صار متفقاً عليه بالمواضعة ، مفضٍ الى استحقاق الذم بالعقل ما لم تكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث ، وقد كان جائزاً في العقل ان يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه ـ والاولى ان يقال اعتادوه ـ فيرونهُ حسناً ويرون ما سواه قبيحاً ، فصار هذا مشاركاً لما وجب بالعقل من حيث توجّه الذم على تركهِ ، ومخالفاً لهُ من حيث انهُ كان جائزاً في

الباب الاول

فى تعريف الادب عند العرب

وفى تعريف العلوم الادبية المعرّفة فى الفرنساوية بلفظ

Sciences Morales

قال في لسان العرب الادب ادب النفس والدرس، والادب الظرف وحسن التناول، وقال السيد في تعريفاته الادب عبارة عن معرفة ما يحترَز به عن جميع انواع الخطأ، وقال: اداب البحث صناعة نظرية يستفيد منها الانسان كيفية المناظرة وشرائطها صيانةً عن الخبط في البحث والزاماً للخصم والخامهِ.

وقال ابو الخير في مفتاح السعادة ما محّصله: ان فائدة علم الادب هو التخاطب والمحاورات في افادة العلوم واستفادتها وان العلمآء اعتنوا بهِ فاستخرجوا من ذلك علوماً قسموا انواعها الى اثني عشر قسماً وسموها **بالعلوم الادبية** لتوقف ادب الدرس عليها بالذات وادب النفس بالواسطة، وبالعلوم العربية ايضاً لبحثهم عن الالفاظ الخ.

هذا تعريف علمآء اللغة وقد الّفوا كتباً كثيرة وعنونوها

المشهورة «الهلال» ومن اول الجرائد ولم تزل الى اليوم جريدة «الاهرام» لمؤسسيها سليم وبشارة تقلا رحمهما الله ومثلها جريدة «المقطم» ومجلة «المقتطف» لاصحابنا الدكتور نمر والدكتور صروف وشاهين بك مكاريوس رحمهما الله، وغير من ذكرنا كثيرون وفي شهرة جميعهم وغيرتهم على الفضل ونشاطهم في سبل المعارف غنى عن التفصيل.

اما سوريا فلم تكن دون مصر بل هي السابقة الاّ في حرية الكتابة عن السياسة والحكام وكل ما يمسّ حرمة الاديان ولاسيما الدين الاسلامي.

وهذان هما القُطران العربيان اللذان ابتدأا ارتياد المعارف منذ ستين سنة، الاّ انهما كانا بعيدين عن ان يكون فيهما شيء من شبه النقد الادبي، ولم يزالا كذلك الى اليوم وذلك لما تقدم بيانهُ اجمالاً وسيأتي تفصيلهُ مع عللٍ أُخَر.

فبذلك لزم اصدار امرنا هذا لكم للمعلومية بما ذكر وهذا كما اقتضت ارادتنـا . »

فاذا تبصرت بهذا الامر الصادر من لدن حاكم البلاد المصرية يومئذٍ ، ايقنت ان حالة العلم كانت فيها كالغول والعنقاء ، اذ أنّ الناس على دين ملوكهم ، فان كان حاكم البلاد وهو شبه ملك يصدر عنه امثال هذا الانشاء ، واذا كان هذا منتهى علم وفصاحة اعظم كتَّاب الملك ، فما عسى ان يكون مبلغ علم سائر الكتاب ، بل متوسطي الحال والعامة من الأمة ؟ وهذه الحالة كانت قبل طبع الجزئين من كتابنا هذا بنحو ثلاثين او خمسٍ وثلاثين سنة فقط ، ولما كنا في مصر اي حين طبع الكتاب ، كانت المعارف قد خطت خطىً واسعة ولا سيما في كثرة المطابع والصحف والمجلات والورّاقين (باعة الكتب) ولا بد لنا في هذا المقام من الثناء الوافر على مواطنينا الكرام السوريين اذ كان لهم في هذه الحلبة النصيب الأكمل ، فمن اوائل المطابع التي ظهرت هناك ولم تزل عامرة كثيرة النشاط والفوائد الى اليوم ، مطبعة عيسى البـابي الحلبي بقرب الازهر ، ومطبعة امين افندي هنديه ووراقته (مكتبته) ثم مثل ذلك للفاضل الكاتب المشهور جرجي زيدان رحمه الله ومجلته

والقوانين والأوامر التي كانت تنشرها الحكومة المصرية وهي حكومة عربية الى عهد قريب ، يكاد لا يصدّق نظره لما يراه فيها من الركاكة والغلط واللغة العامية المستركة واغلاط الخط ، واليك انموذجاً منها بحروفه .

صورة امر عال صادر للمحافظة فى ١٨ ذى الحجة سنة ٩٠ نمرة ١٧

« وكيل بطرکخانه الاقباط قدم لدينا انهاء رقيم ١٥ ذي الحجة سنة ١٢٩٠ علمنا منه لمناسبة ان مصالح الطائفة القبطية المختصة باوقافها وفقرائها وكنائسها ومدارسها ومطبعتها آخذة في التقدم والعمارية قد ترآى لهُ انهُ اذا تشكل مجلس من ابنا الطائفة للاتحاد معه في نظر وادارة خصوصياتها المعتاد نظرها بالبطرکخانة ليكون ذلك داعياً لزيادة ترقية تلك الامور ونجاحها فلهذا صار انتخاب اثنى عشر عضواً لذلك المجلس واثنى عشر نائباً لهم بمعرفة من لزم من الطائفة وتم الانتخاب بمحضر عُمل بالبطرکخانة ويلتمس صدور امرنا للمحافظة بمعرفة المجلس المحكي عنه واختصاصه برؤية الامور المثنى عنها وحيث انه ما حصل من انتخاب اولئك الاعضاء والنواب لتشكيل ذلك المجلس بالكيفية التي توضحت قد استحسن لدينا وقورن بمساعدتنا اجابة التماس وكيل البطرکخانه الموما اليه

الدين ومعهم العامة كلٌّ من اشتغل بالعلوم الفلسفية ، ونُكِبَ بسببها اكبر فلاسفة المسلمين ابو الوليد ابن رشد ، وعُزِل عن القضاء وأحرقت كتبه في كل بلد من الاندلس بامر قضاة وموالي الملوك والخلفاء لتألب الغوغاء كما تقدم من جماعة التحمس الديني وتحذر الملوك من عواقب ثورتهم .

ولما فتحت البلاد العربية الجيوش التركية في حكم آل عثمان ، لم يكن لعلماء الترك شيء من العلوم سوى ما اخذه بعض علمائهم عن العرب وهي معرفة اللغة العربية وقواعدها لتفهم علوم الدين الاسلامي ، ثم اقبلوا على شرح تلك الكتب حسبما فهموها ليعلموها سواهم من طلاب العلم الاتراك ، وكانت حالة العلم عند عامة الأمة العربية قد انحطت الى الدرك الاسفل ، وظلت تسير نزولاً وانحطاطاً بعوامل كثيرة اهمها استبداد الولاة والحكام الى آخر يوم من ايام الحكم التركي .

ومَن يراجع مكاتبات محمد علي باشا والي مصر الى ابنه ابرهيم باشا وغيره من وزرائه وعماله في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، يأخذه العجب من حالة الجهل يومئذ في ذلك القطر وهو موطن الأزهر ومجمع الازهريين ، بل من يطالع الرسائل

تلك العصور حكماً استبدادياً كأكثر معاصريهم من الشعوب .

ولما انتقلت الخلافة الى العباسيين كانت اشد استبداداً من الامويين لاسباب ليس هذا موضع ذكرها ، وجميع العلوم التي اشتغلت فيها الامة لم تخرج عن علوم اللغة والدين ، حتى ان العلوم الفلسفية التي عرّبها المعرّبون عن اليونان واكثرهم من غير المسلمين ـ اذ انكرها طائفة كبيرة منهم ـ لو لم يكن الآمر بتعريب تلك العلوم هو الخليفة المأمون نفسه ، لما عرف العرب منها حرفاً ، وجملة القول ان الامة العربية في عهد الخلافة العباسية كلها ، كانت مقيدة باغلالٍ من الاستبدادِ والجور شأن ممالك الارض كلها لذلك العهد .

ثم تلا الحكم العباسي استبداد بني بويه الديلميين وعقبه حكم السلجوقيين ثم الأكراد الايوبيين وكانوا لعهد القرون المتوسطة في اوربا ، وقد ذكرنا حالة العلوم الادبية عندهم في تلك القرون كما تقدم في الجزء الاول ، فلم تكن حالة الامة العربية لعهد الاكراد الايوبيين اسعد حالاً من امم اوربا ، ولم تكن العلوم عندهم اكثر انتشاراً مما كانت في الغرب ، وقل مثل ذلك عن علوم العرب في الاندلس ، ولم يكن حظ ابن باجه وابن الطفيل وابن زهر وسواهم من المشتغلين بالعلوم الفلسفية خيراً من اولئك فقد كفَّر مشائخ

فالانشاء فالمعاني فالبيان وان الاربعة المذكورة قبلاً مندمجة فيها .

وهذه العلوم كلها لا تدخل في بحث النقد الادبي وان سماها علماؤنا بالعلوم الادبية وانما نقدها يسمى النقد العلمي في عرف الافرنج وهو الصحيح .

وفي مطلع هذه المقدمة روينا حديثاً قديماً جرى مع احد اصحابنا الادباء في السبب الذي دعانا يومئذٍ للانصراف عن تأليف قواعد النقد الادبي ، ويُلَخَّص السبب المذكور في نقص استعداد البلاد العربية ، وبعد الأمة يومئذٍ عن سلم العلوم الادبية ولا نحب ان ننتقل عن هذا البيان قبل ان نؤيدهُ بالبرهان .

يجب ان يعلم الباحث عن العلوم الادبية ـ في عرف الامم الافرنجية اليوم ـ (وسيأتي تفصيلها) انها لا تنمو ولا تخصب الا في ظلال الحرية وتحت حماية قانون المساواة واحكام العدل وسلطان الوطنية وشريعة الامان ، فاذا عُلم هذا فلننظر في اي عصر بلغت الامة العربية شيئاً مما ذكرناه ، أفي خلافة معاوية أم في مَن بعده من الخلفاء الامويين ؟ وقد كانت الامة كلها بدويةً او قريبة عهد بالبداوة ، وكل ما اقتبسوهُ من غير علوم اللغة والدين ـ وهو شيءٌ قليل جداً ـ كان عن الفرس ، وكان حكم الفرس في

الاول، توجّب علينا ان لا نكتم عن المطالع تفصيل ما دعانا يومئذٍ الى الأكتفاء بالجزئين المتقدمين في وضع قواعد النقد والاقتصار على بعض ما يشير الى النقد الادبي، وقد اعتذرنا عن العرب عند بحثنا في تاريخ النقد لجنوحهم عن فن الانتقاد، وذلك لما كانت عليه الدولة العباسية في احسن ايامها من الاستبداد والظلم، وقل مثل ذلك في الدولة الأموية ومن تلاها في افريقيا والاندلس في ازهى قرنٍ للمعارف العربية، واحوالهم تلك كانت تشبه في بعضها ما ذكرناه اجمالاً عن احوال الأفرنج في القرون المتوسطة، وقلنا هناك انه لم يكن عندهم سبيل للنقد لاسباب اولها الاستبداد والظلم.

ولا بد من زيادة في هذا البحث اذ قد عزمنا على الخوض في بحار النقد الادبي، وذلك لان المشهور عندنا الى اليوم في جميع كتب العلم، ان علوم الادب هي ما ذكرها السلف ورتبها علماء العرب، اثنا عشر قسماً او نوعاً اولها علم اللغة ثم الصرف ثم الاشتقاق فالنحو فالمعاني فالبيان فالخط فالعروض فالانشاء فالمحاضرات (اي الخطَب) فعلم القوافي فالبديع، واختصرها بعضهم فجعلها ثمانية علوم وهي اللغة فالصرف فالنحو فالعروض فالخطب

وكنا نرى له انتقادات في غاية الاصابة، فلما خلونا واخذنا باطراف الاحاديث بلغنا الى ان بسط لسانهُ في تقريظ الكتاب ثم قال الا انني لا اكتمكم ما كنت اتمنّاه ذاك ان تتعرضوا للكلام عن النقد الادبي، قلت لا ريب في انكم طالعتم الفصل الثالث من الجزء الاول عن النقد في القرون المتوسطة؟ قال نعم بكل تبصر وانعام نظر، قلت أترونَ ان الناطقين بالعربية اليوم هم ارقى حالاً واوفر رغبة في المعارف والفنون من فرنجة القرون المتوسطة؟ قال لا فالى اين تريد؟ قلت اريد ان كان شأنهم كشأن اولئك فما فائدة النقد الادبي؟ قال صدقتم ورحم الله القائل

ولم ارَ في عيوب الناس شيئاً ... كنقص القادرين على التمامِ

وكنت احب لكم ان تختموه بالنقد الادبي وهي خدمة للغة، فلا تجعلوا هذا الغرض بعيداً عن مراميكم وادعو لكم بتحقيقه.

وتوالت السنون ومات الصديق ولم يزل صوت رجائهِ مستقراً في اذنيّ، والايام تماطل بهِ الهمة وتعاجزني عن القيام بهذه المهمة، حتى نبّهت شمس المغيب الى قرب الرحيل ونادت بالتعجيل فاجبتُ بالطاعة وعلى الله قصد السبيل.

ولما كان النقد الصحيح عماده الصدق كما تقدم لنا في الجزء

المقدَّمة

اما بعد فلاريب في ان احدى الصفات الغريزية في هذا المخلوق العاقل هي طلب الاحسن ، فان فاتهُ فلا يبرح يتمناه ، وهي الصفة التي يسميها الفلاسفة ، التماس الكمال ، غير انهُ كلما ازداد توغلاً في طلب المعارف ازداد علماً بمدى جهله الفسيح اي معرفةً بنقصه واستحالة مطلبه ، وهذه المعرفة تزيده شوقاً الى استكشاف المجهولات وحضًّا على ادمان البحث والطلب .

ولا نطيل باكثر من هذا بل نروي للمطالع او نتذكر ما دعانا اليوم الى تأليف هذا الجزء الثالث من كتابنا « منهل الوراد في علم الانتقاد » بعد ان مرَّ على طبع الجزئين الاول والثاني نحو من ثلاثين سنة ؛ ذلك انه لما تم طبع الجزئين المذكورين كنا يومئذٍ في مصر ، فلما عدنا الى الوطن اجتمع الينا كثيرون من اهل الفضل فاثنوا ما هم به اولى ، وكان منهم بين الخلان صديق لنا لم نشكَّ يوماً في صدقه واخلاصه ، وكان رحمهُ الله ينظر الينا دائماً بعين الرضى ،

صفحة

فهرست

الجزء الثالث من منهل الوراد في النقد الادبي

يطلب من مكتبة العصر الجديد
لاصحابها السادات قسطون اخوان

ومن

مكتبة حامد افندى عجان الحديد
بحلب



رُسومُنا تفنى واجسامُنا   تبلى وهذي سنّةُ الكونِ
وليسَ يبقى غيرُ آثارِنا   مَن لي بآثارٍ بها صَوْني



مَنْهَلُ الوُرَّادْ

في

عِلْمِ الانْتِقَادْ

الجزء الثالث

تأليف

قسطاكي الحمصي

الحلبي

عُفي عنه

مطبعة العصر الجديد ❁ حلب

١٩٣٥

منهل الوراد
في
علم الانتقاد

الجزء الثالث

وفي ذيله

مرآة النفوس

تأليف

قسطاكي الحمصي

الحلبي

عفي عنه